

892.709:H23sA

حمزة، عبد اللطيف .

الصحافة والآداب في مصر .

APR 12 X413

JUL 22 A1502

NOV 20

892.709

H23sA

~~415~~ 67

~~APR 27 52~~

~~MAY 1 1952~~

~~JUN 1 1952~~

~~JUN 1 1952~~

~~FEB 3 1951~~

JUL 1 1952

~~JUL 1 1952~~

~~JUL 1 1952~~

JUL 1 1952

JUL 1 1952

JUL 1 1952

JUL 1 1952

~~892.709 H23sA~~

جامعة القاهرة

بعض الدراسات العربية العالية

الصحافة والأدب في مصر

محاضرات

الصحافة والأدب في مصر

مؤلفه

عبد الطيف حمزة

[على طلبية قسم الدراسات الأدبية والفنون]

١٩٥٥ - ١٩٥٤

١٩٥٥

جامعة الدول العربية

مركز الدراسات العربية العالمية

الصحافة والأدب في مصر

محاضرات

ألقاها

الدكتور

عبد اللطيف حمزة

[على طلبية قسم الدراسات الأدبية واللغوية]

١٩٥٤ - ١٩٥٥

١٩٥٥

تَيَّابَاتِي بِهَا تَبَرُّكُ الْمَدِينَةِ

مَقْرُونِي بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

تَابَاتِي

لَهُمَا

بِسْمِ اللَّهِ

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

[قَوْلُهُمَا قَوْلُهُمَا تَابَاتِي بِهَا تَبَرُّكُ الْمَدِينَةِ]

3041 - 5541

بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمي

في مدى الخمسة الأعوام الماضية كنت أشتغل بوضع كتاب في ستة أجزاء إلى الآن ، موضوعه « أدب المقالة الصحفية في مصر » . وقد اضطرني هذا البحث أن أقصر فيه عنايتي على « فن المقال الصحفي » ، من حيث هو ، كما اضطرني هذا البحث أن أمس به الاجواء الفكرية والسياسية والاجتماعية التي عاشت فيها المقالة الصحفية في جميع الاطوار التي خضعت لها . وكنت في أثناء هذا كله أجد الصلة قوية كل القوة بين الصحافة من جهة والأدب الخالص - شعره ونثره - من جهة ثانية . غير أني كنت أخشى دائما إن أنا تعرضت لشيء من هذا الأدب الخالص أن أدخل بالقارىء في استطراد يفوت على الغاية من كتابي السابق . وهى هنا العناية التامة بالفن الصحفي للمقال المصرى منذ نشأته .

حين طلب الى معهد الدراسات العالية بالجامعة العربية أن ألقى عددا من المحاضرات على طلابه في موضوع الصلة بين الصحافة والأدب ، وتأثير كل منهما في الآخر ، رحبت بذلك كل الترحيب ، ووجدت فيه الفرصة التي كنت أصبو إليها والعمل الذي أتربص به . وقد تأملت هذه الصلة بين الصحافة والأدب تأملا جيدا فراعنى حقاً ، وأدهشنى صدقاً أن يكون الأدب المصرى الحديث مدينا بحياته ونمائه ، بنشأته وذبوعه للصحافة المصرية . واستحوذت هذه الفكرة على نفسى حتى وددت أن أجعل موضوع محاضراتى هذه على النحو الآتى :

« الصحافة المصرية : صانعة الأدب المصرى الحديث »

غير أن الأستاذ ساطع الحصرى مدير المعهد رأى في هذا العنوان أنه أخلق برسالة جامعية منه بمحاضرات عامة فوافقته على ذلك .

وسيرى الذين يقرأون هذه المحاضرات أننى لم أكن مبالغا فى دعواى
من أن الصحافة المصرية صانعة الأدب المصرى الحديث . فهم يعلمون أن
أهم فنون الأدب فى وقتنا هذا ثلاثة : القصة ، والقصيدة ، والمقالة .

وسينظرون معى فى (القصة المصرية) أولا فيرونها نشأت فى أحضان الصحافة
واتخذت لنفسها الوجهة التى اختارتها لها الصحافة . فاذ أثبت هذا البحث صحة
هذه النتيجة نكون قد ربحنا من القضية الأدبية التاريخية التى نحن بصددھا
مقدار الثلث فقط . ثم اذا أثبت البحث صحة هذه النتيجة نفسها بالقياس إلى
(القصيدة الشعرية) نكون قد ربحنا مقدار الثلث الثانى . ثم اذا برهن البحث على
صدق النتيجة عينھا بالقياس إلى (المقالة) — ولا شك أن هذا الجزء هو
أيسر أجزاء الدفاع كله — نكون قد ربحنا الثلث الأخير من هذه القضية
ذات الشأن الكبير فى تاريخ الأدب الحديث .

وحين رجعت إلى بعض الآداب الاوروبية الحديثة لمست بنفسى صدق
هذه النتيجة التى ذهبت اليھا . ورأيت القوم هناك وصلوا إلى الغاء المسافة
بين الأدب والصحافة ، وأصبحوا لا يرون بين هذين الفين أكثر من خبط
رفيع يوشك أن ينقطع فى النهاية .

ولكن — هل فى هذا نفع يعود على الأدب ؟ أم فى هذا ضرر يحقق
بمستقبل الأدب ؟ ذلك ما جعلنى أختم كلامى بمحاضرة موضوعها (مستقبل
الادب فى ظل الصحافة) — عاجلت فيها هذا الموضوع معالجة عاجلة وأظنھا
عادلة . ووقفت عند هذا الحد .

تلك هى خطى فى المحاضرات التى ألقيتها على طلبة الدراسات العالية بمعهد
الجامعة العربية . والله أدعو دائماً أن يجعلنى خادما لوطنى الأصغر — وهو مصر —
وخادما لوطنى الأكبر — وهو العالم العربى والله ولى التوفيق ؟

القاهرة فى يناير ١٩٥٥

عبد اللطيف صمحه

بين الأدب والصحافة

الصحافة أرب غير خالد

تخيل أحد الأدباء الفرنسيين حواراً لطيفاً بين كتاب وجريدة قال فيه الكتاب للجريدة :

إنك تنعمين بمائة ألف قارئ . ولكيك لا تمكثين إلا ساعة أو بعض ساعة في يد القارئ . ثم لا تلبثين أن تعرضي للتمزيق أو التلف . وإذا ذلك يلقي بك في سلة المهملات أو يخذ منك الناس غلافاً لبعض حاجاتهم . وهكذا تولدين مريحا تموتين سريعاً دون أن تتركى أثراً ما في نفوس القراء فأجابت الجريدة بقولها :

نعم أيها الكتاب انك لتفضلني بطول العمر وبسطة الأجل . ولكن لا تسمى أنك تعيش أعماراً طويلة في عالم الظلام ودنيا النسيان : وعندى أن حياة يوم واحد بالمعنى الصحيح أفضل باشرافها وحركتها وجلالها من حياة مائة عام تقضيها أنت مجهولاً من أكثر الناس ، مهملاً منهم فوق الرفوف التي يعلوها التراب . آ هـ

ليس وراء هذا الحوار وأمثاله غير معنى واحد ، هو أن الصحافة أدب غير خالد ، وهذا صحيح في جملته وتفصيله . فإن عمل الأدب في كل زمان ومكان إنما هو تصوير النفس البشرية بوجداناتها الكثيرة ، وخواطرها التي لا حصر لها . وعمل الصحافة في جوهرها هو الاهتمام بالجماعات البشرية ، وتناقل أخبارها ، ووصف نشاطها ، ثم توجيه هذه الجماعات إلى ما فيه خيرها ومنفعتها ، ثم تسليتها ، وتزجية أوقات فراغها آخر الأمر .

فإذا ذكرنا أن النفس البشرية باقية بقاء البشر ، وأن حوادث الجماعات الإنسانية متغيرة بتغير أحوالها دائماً عرفنا كيف أن الأدب الذي هو

منوط بالنفس خالد بخلودها ، وان الصحافة التي هي منوطة بالجماعات على اختلافها لا يمكن أن يكون لها حظ من الخلود .

ومن هنا نستطيع أن نلمح أول فرق من الفروق بين الأديب والصحافي :
(فالأول) - وهو الأديب - رجل ذاتي يعنى بنفسه وحدها ، فيصف لنا مايجول بها ، أو يتردد في جنباتها ، ويسجل حركاتها وسكناتها ويتأمل هذه الحركات والسكنات . وهو في هذا الصنيع إنما يصف النفس البشرية كلها ، ويتعمق أسرارها . ويكشف عن حسناتها وسوأتها ، ويكون لأوصافه صدق في نفوس القراء من كل جنس ، وفي كل عصر ، ماداموا قادرين على قراءته وفهمه ، والاستفادة منه . ومن ثم كان الأديباء من أوسع الناس حرية في الواقع . منهم من ينشئون في الجدل ، ومنهم من ينشئون في الهزل . والقراء أنفسهم أحرار في أن يختاروا ما يقرأون من نتاج هؤلاء وهؤلاء . فمن كان من القراء يؤثر الفضائل العامة ، وينشد المثل الأعلى ولى وجهه شطر الأديب الجاد ، والكاتب المتأمل ، والشاعر الذي يسر للناس خلال الخير ، ويرسم لهم طريق السكال . ومن كان من القراء ينجح الى اللذة الحسية ، ويميل إلى التساهل الخلقى ولى وجهه شطر الأديب الهازل ، أو الشاعر الماجن ، أو الكاتب الهدام . ولا يكون للدولة في الأعم الأغلب سلطان على الأديب إلا في حالة واحدة تقريبا ؛ هي الحالة التي يتعرض فيها الأديب للنظام القائم .

(أما الثاني) - وهو الصحافي - فرجل غير ذاتي - لا يستطيع العناية بنفسه ، لأنه مسئول عن العناية بالمجتمع من حوله ، فتراه يسجل حركات هذا المجتمع وسكناته يوما بيوم ، وينهى أخباره إلى القراء في داخل البلد وخارجه . ذلك أن الصحافة في ذاتها عمل اجتماعي بحث يقوم على تنوير الأذهان ، وعلى الاتصال بالرأى العام . ومن ثم كان على الصحافي أن يتأمل الأخبار والأحداث ، وأن يعقب عليها ويفسرها ، وأن يقصد من هذا العرض والتعقيب إلى الإرشاد والتوجيه . ولكن عليه دائما ألا يفكر في مصالحته

الذاتية ، أو منفعتة الخاصة . وإنما يفكر في مصلحة المجتمع ، ومستقبل المجتمع . وعلى هذا فالصحافة مرآة تنعكس عليها مشاعر الجماعة وآراؤها وخواطرها . أما الادب فمرآة تنعكس عليها مشاعر الأديب وآراؤه وخواطره . فبينما الصحفي مقيد بهذا القيد الذي هو مصلحة هذا المجموع . إذ بالأديب طليق من كل قيد ، لأنه ليس مسؤولاً في كل وقت عن مصلحة هذا المجموع . ومن ثم وجب على الدولة دائماً أن تراقب الصحفي مراقبة جيدة . وفي أثناء الحروب والمحن السياسية - بوجه خاص - يكون من حق الدولة أن تسلط على الصحافة ذلك السيف الرهيب الذي هو « قانون المطبوعات »

وفي حرية الأديب وتقييد الصحفي ، يقول الأستاذ عبد القادر حمزه في وصف الأخير :

« يجب أن يكون الصحفي حاضر البديهة ، حاضر الجواب على كل ما يدعى لأن يكتب فيه . وهو في كل ذلك لا يختار - كما يفعل الأديب - بل الحوادث هي التي تختار له كل يوم ألواناً جديدة ، وتدعوه إلى أن يتجه إليها ، وينتهي به الأمر إلى أن يتسع أفق الادب والعلم والخبرة عنده فيصبح وكأنه الموسوعة بينما يكون الأديب بجانبه وكأنه كتاب في فن معين ^(١) ،

هل امتنعت العصور المتقدمة إلى الصحافة ؟

يحدثنا التاريخ أن الصحافة ثمرة من ثمرات « المطبعة » وحسنة من حسناتها وهي كذلك في الحقيقة ^(٢) . فلو لا ظهور المطبعة لما ظهرت الصحافة ، ولما استطاعت الصحيفة أن تصل إلى آلاف القراء في وقت معين ، وعلى نمط معين . ولكن هل معنى ذلك أن الناس في العصور التي سبقت ظهور المطبعة لم يعرفوا لونا من الادب يشبه الصحافة ؟

كلا - فإن الناس في كل زمان ومكان يحتاجون إلى تناقل الاخبار ، وإلى

(١) مختار الوكيل - محاضرة عنهما (بين الأدب والصحافة) ص ١٣

(٢) لولا أن الصحافة الحقيقية ظهرت في أوروبا بعد ظهور المطبعة بنحو قرنين من الزمان لأن الصحافة ترتبط بنشأة الطبقة المتوسطة في المجتمع ، وهي الطبقة التي تؤثر في وجود الرأي العام ومن ثم كانت الصحافة في أكثر الأمم رسمية في أول أمرها ثم أصبحت شعبية بعد ذلك والأخيرة هي الصحافة بالمعنى الصحيح .

التعقيب على هذه الاخبار . وهم بحاجة أيضا إلى المادة التي يقرأونها لكي ينسلوا بها ، ويزجوا أوقات الفراغ . وهل ننكر أنه كان لكل بيئة متحضرة من بيئات العالم القديم ما يسمى « بالرأى العام » ؟ وهل ننكر أن الادباء في تلك البيئات المتحضرة هم الذين كانوا يتولون التعبير عن هذا الرأى العام ؟ وهكذا كان الحال عند الامم القديمة كمصر واليونان والرومان . وهكذا كان الحال في العصور الوسطى الاسلامية كعصر الخلافة العباسية بوجه خاص . وهل نستطيع أن نتصور أن عصرنا كهذا الاخير تعرض لكثير من ألوان الصراع السياسى ، والصراع المذهبى ، والصراع العقلى ، والصراع الأدبى قد خلا من الادباء الذين تأثروا بهذا الصراع أو ذاك ، أو كانوا سببا من أسباب حدوثه آنذاك ؟ .

« وفي الادب العربى بنوع خاص وحدثنا أن افئدة الرأى العام كان يسلك في البيئات العباسية وغيرها من البيئات الاسلامية المتحضرة طريقة واحدة ، هى طريقة (الرسائل الحرة) يكتبها أدباء وعلماء لهم في تاريخ الادب العربى شهرة واسعة . وكانوا بشهرتهم هذه مصدر خطر على الدولة حينما ، ويصدر أمن وصيانة لها حينما آخر . وهذه الرسائل التي كتبها أولئك الكتاب في موضوعات السياسة والدين والادب والاجتماع هى — مع التجوز القليل — صحافة كاملة بالنسبة للعصور التي ظهرت فيها .

« ولك أن تتصور معى رجلا من كتاب القرن الثالث الهجرى كالجاحظ — ما أجدره أن يكون أول صحفى ممتاز لو عاش في عصر كالذى نعيش فيه ؟ بل إننى ذهبت إلى إنه كان بالفعل ذلك الصحفى الناجح الذى لم ينقصه يومئذ غير الاسم . كما نظرت الى الادب الجاحظى كله على أنه صحافة كاملة لذلك العصر ، (١)

وإذا سمحتم لى فانى استطرد قليلا فى وصف تلك البيئة العباسية

الزاهرة في القرن الثالث . فأقول إننا نجد فيها أدباء ذوي أمزجه مختلفة ،
ونجد لسكل واحد منهم كذلك (أصالته) التي يتميز بها . كما نجد مثل هذا
تماما في العصر الذي نعيش فيه الآن .

ففي تلك البيئة العباسية الحية نجد من الأدباء من كان ذامزاج أدبي خالص
(كابن المقفع) صاحب كلفة ودمية . ومنهم من كان ذا مزاج على خالص
(كابن قتيبة) صاحب كتاب الشعر والشعراء ، وكتاب أدب الكاتب . ومنهم
من كان ذا مزاج صحفي خالص (كالجاحظ) . وشتان بين هؤلاء الثلاثة
الذين ذكرنا .

(فابن المقفع) أديب : وأدبه خلاصة مطالعته ، وتجاربه وتجارب
آبائه وأسلافه من الفرس أصحاب الحضارة الفارسية القديمة . وهو يسلك
في كتابة أدبه طرقا فنية خالصة : كأن يتحدث على ألسنة الحيوان ، وكأن
يعتمد أحيانا على الصور البيانية الرائعة ، ونحو ذلك .

(والجاحظ) رجل شديد الانغماس في المجتمع . وهو في الوقت نفسه
غزير النتاج الى درجة تلفت النظر . ونتاجه هذا شديد الصلة بالافكار الشائنة
في عصره . بل هو صورة دقيقة لما يحيط به في تلك البيئة العباسية من دين ،
وسياسة ، وثقافة ، وأدب ، وعادات ، وتقاليد اجتماعية راقية بكل ما في
هذه الكلمة الاخيرة من معنى .

(وابن قتيبة) رجل عالم في اللغة ، وعالم في النقد ، وعالم في
الحديث والتفسير ، وغيرهما من العلوم التي جعلت منه (خطيب أهل
السنة) . ولكنه رجل حبس نفسه على العلم . ولم يشأ أن ينج بنفسه في
المجتمع ، كما فعل الجاحظ من قبل . ولم تكن لابن قتيبة موهبة
الأدب الخالص كابن المقفع . ومن ثم لم يكن (أدبيا) من طرازه .
ولا كان صحفيا من طراز (الجاحظ) بالمعنى الذي نفهمه من كلمة الصحافي
عند إطلاقها في الوقت الحاضر . وهكذا تحتاج العصور الزاهية من عصور

الانسانية في أية بيئة من البيئات الحضرية إلى رجال ذوى مواهب مختلفة ،
 وأمزجة متباينة ، حتى في الفن الواحد فقط كفن الأدب ، أو الموسيقى ، أو
 التصوير ، أو الحرفة العملية ، أو العلم النظرى . غاية ما هنالك أن المخترعات
 الحديثة التى منها (المطبعة) يكون لها أثر واضح فى تغيير أساليب الحياة
 نفسها ، ولكنها لا تستطيع مطلقا أن تغير من طبائع الناس ذاتها ، ولا أن
 تؤثر فى أمر جتهم التى يولدون بها ، ولا أن تعبت بمواهبهم التى فطروا عليها .
 بل إنى لأذهب إلى أبعد من هذا فأقول أن البيئات المتخلفة لاغنى لها - هي
 الأخرى - عن نشاط فكري أو أدبي يشبه النشاط الصحفي فى مجموعه . فمصر فى
 العصر العثمانى - وهو الذى تواضع المؤرخون على تسميته بعصر الانحطاط -
 نجد فيها طائفة من الرسائل الحرة التى يتبادلها العلماء المصريون فى مسائل هامة
 كانت تشغل بال الرأى العام المصرى إذذاك ؛ كمسألة الأضرحة والأولياء ،
 هل هى حرام أم حلال ؟ وكشرب القهوة ، هل هى حلال أم حرام ؟
 ونحو ذلك . فاذا عرفنا أن كل رسالة من تلك الرسائل كانت لاتتجاوز عشرين
 صفحة ، وأن كل واحدة منها كانت ردا على رسالة أخرى سبقتها استطعنا
 أن نسمى ذلك نشاطا صحفيا ؛ طريقته الرسالة الصغيرة التى قامت قبل ظهور
 (المطبعة) مقام المجلة أو الجريدة . وفى هذه الأخبار وأمثالها ما يدل دلالة
 صريحة على أن العصور الانسانية على اختلافها لاغنى لها عن النشاط الفكرى
 أو الأدبى الذى لا فرق بينه وبين النشاط الصحافى الا وجود (المطبعة)
 وما تودى اليه من انتشار الصحف على أوسع نطاق يمكن تصوره .

فنونه الأدب وفنونه الصحافة وتأثر بعضها بالآخر

كان القدماء يقولون : - د من أراد أن يكون عالما فليطلب فنا واحدا
 ومن أراد أن يكون أدبيا فليوسع فى العلوم د ومن ثم توسعوا فى مدلول
 الأدب حتى جعلوه مشتملا على أمور كثيرة ، عبر عنها أحدهم بقوله .
 « الأدب هو الأخذ من كل شيء بطرف » وهذا هو الأدب (بالمعنى العام) . أما

الأدب (بالمعنى الخاص) فهو التعبير عن النفس البشرية وما يصدر عنها من فكرة أو عاطفة . بشرط أن يكون التعبير في ذاته جميلا ، وانه حظ ما من التفكير الانساني على أية صورة من الصور . وهى انفقنا على هذه الأسس المتقدمة جاز لنا أن نحصر الأدب في فنونه التالية ، وهى : فن الشعر ، وفن الخطابة ، وفن الكتابة . ولهذا الفن الأخير ضروب كثيرة منها : -

فن الرسالة ، وفن القصة ، وفن المقالة ، وفن التاريخ ، وفن النقد .
أما (الصحافة) فيمكن أن نحصر فنونها عن طريق فهمنا لأغراضها وأهدافها . وللصحافة فيما نعلم أهداف رئيسية ثلاثة وهى : -
هدف الإخبار والاعلام ، وهدف التعقيب أو الارشاد ، وهدف التسلية .
وعلى هذا فينبغى أن يكون للصحافة فنون كثيرة أهمها اثنان ، هما فن الخبر أو الإعلام ، وفن المقال .
ثم أن المقال الصحفي نفسه أنواع كثيرة منها :
المقال العرَضى (بسكون الراء) . وهو الذى يهدف فيه الكاتب إلى عرض فكرة معينة أو مشكلة محدده .
والمقال النقدى - وهو الذى يهدف فيه الكاتب الى نقد الفكرة أو المشكلة .

والمقال النزالى - وهو الذى يهدف فيه الكاتب الى مساجلة كاتب آخر حول مذهب سياسى ، أو اجتماعى ، أو علمى ، أو أدبى الخ .
ولا شك أن هناك فنونا صحفية أخرى ؛ كفن التقرير الصحفي ، وفن التحقيق الصحفي ، وفن الحديث الصحفي . ولنشر اشارة عابرة إلى تأثير كل فن من هذه الفنون الصحفيه فى الأدب .
(فالخبر) - من هذه الفنون - كان معروفا قبل الصحافة . ولكن الأديباء لم يعنوا بغير الأخبار الهامة النادرة . وكانوا إذا وصفوا واحدا منها عروا في ذلك على التهويل والمبالغة . ثم ظهرت الصحافة ، وساد المجتمع ماتروح

الاهتمام بالواقع من حيث هو . وأصبح الخبر يكتب بطريقة سهلة لا تكلف فيها إلا من حيث الفن الصحفي في ذاته . ولم يصبح من الضروري أن يكون هذا الخبر الذى تنشره الصحيفة زلزالا فى مكان ما، أو معركة حربية دامية فى مكان آخر، أو صاعقه من صواعق السماء ، ونحو ذلك : بل أخذت الاخبار العادية اليومية تحتل مكانها فى الصحف ، وتغزو موضعا لعناية الصحفيين على اختلاف آرائهم ونزعاتهم .

وهكذا أصبحت الصحافة قائمه على الحقائق الثابتة ، والوقائع المشاهدة . وتخلصت نهائيا من المبالغات التى أئسم بها الادب القديم ، والتهاويل التى اتصف بها . ثم تأثر الادب الحديث بذلك ، فبدأ للناس أدبا واقعيا لا خياليا فى أكثره كما كان من قبل .

(والمقال) - كفن من الفنون الصحفيه التى أشرنا اليها - كان يكتب قبل ظهور الصحف بلغة فيها كثير من الوقار والتكاف ، ثم أصبح بعد ظهور الصحافة يكتب بلغة فيها قدر كبير من الإيناس والحيوية والتظرف . وسنتحدث عن الفروق بين لغة الادب ولغة الصحافة فى محاضرة أخرى . وأما موضوع المقال الصحفي فقد أصبح مخالفا كل المخالف لموضوع المقال الأدبى . كان موضوع الادب فى العصور القديمة يمتاز بالفخامة، ويدور حول أشخاص الملوك والامراء والساده ، فأصبح موضوع المقال الصحفي يمتاز بالوضوح والبساطه ، ويشترط فيه أن يكون لصيقا بالمجتمع ذاته . بل غدا كل شىء . - مهما كان تافها فى هذا المجتمع - يصلح لأن يكون موضوعا للكتابة فى الصحف .

(والتحقيق الصحفي) - وهو فن يعتمد اعتمادا كاملا على الدقة التامة وعلى وصف الواقع الملموس، وعلى ايراد الشواهد التى يشتقها الكاتب من الحوادث التى أمامه ، وعلى ربط هذه الشواهد كلها بحياة الأفراد فى المجتمع الذى ينتظر قراءة هذه المادة ، وبفهمها فهما جيدا - هذا التحقيق الصحفي كان ذا أثر بالغ فى الاتجاه بالأدب وجهة موضوعية من جانب، واقعية من جانب

آخر . وأكبر الظن أن هذه المادة الصحفية كانت أساسا صالحا لنشأة القصة الاجتماعية في جميع الآداب العالمية التي نعرفها اليوم ، كما سنوضح ذلك بعد . (والحديث الصحفي) - وهو مظهر من مظاهر الفردية البارزة في المجتمع الديموقراطي - تعنى فيه الصحيفة بالنابهين في هذا المجتمع أو البارزين فيه ؛ حتى في النواحي السيئة غير الصالحة ، وتحاول الصحيفة أن تنقل آراءهم للجماهير . وفي ذلك ما يدنو بالصحافة من دائرة الواقع الملموس ، ويعين بها إيماننا في هذه الدائرة . وفي ذلك أيضا ما ينأى بالآداب الصحفي عن الملك الذي دار فيه الآداب القديم ، وهو الآداب الذي كان يأنف من الاهتمام بالافراد ؛ ما لم يكونوا حكاما أو سادة - كما قلنا .

(والتقرير الصحفي) - وهو أكثر موضوعية من جميع الفنون الصحفية - كان هو الآخر تجربة من التجارب التي مر بها الآداب الحديث ، وفتحت أمامه آفاقا جديدة ، حلت فيها الموضوعات الاجتماعية محل الموضوعات الكلامية ، أو اللغوية ، أو الفلسفية أو البلاغية ، أو الدينية . والخلاصة أن الآداب الحديث بعد مروره بتلك التجارب الصحفية التي سبق ذكرها - اكتسب لنفسه شكلا جديدا ، وقوة جديدة ، ونزعة جديدة : اكتسب لنفسه أسلوبا مخالفا لأسلوب القدماء ، واكتسب لنفسه حيوية جمالته محببا لا كبر عدد ممكن من القراء ، واكتسب نزعة لها خطرها وفائدتها في العصر الحديث . وهذه النزعة هي الديموقراطية بدلا من الارستقراطية كما سنوضحه بأكثر من ذلك في بعض المحاضرات القادمة إن شاء الله .

٢

لغة الأدب ولغة الصحافة

اللغة التي يتكلمها البشر لغتان - لغة التخاطب اليومية ؛ وهي ما اصطلاحنا على تسميته (بالعامية) ، ولغة الكتب أو الصحف ، وهي ما اصطلاحنا على تسميته (بالفصحى) .

وإذا أنعمنا النظر في هذه الأخيرة وجدنا لها مستويات ثلاثة وهي : -
المستوى الأدبي ، والمستوى العلمي ، والمستوى العملي أو الاجتماعي :
في الأول من هذه المستويات يقف (الأديب) بطالعنا بإحساساته وتأملاته ، وموافقة الانسانية ، وتجاربه النفسية معبرا عن كل ذلك تعبيرا أساسه الجمال ، وتعبيرا فيه كثير من الذاتية أو الأمانية . والأمانية هنا معناها عناية الأديب بنفسه ، وبما يدور فيها من أحاسيس ، وما يحول فيها من خواطر ، بحيث يخرج لنا من كل ذلك بقصيدة رائعة ، أو قصة جميلة ، أو مقال أدبي ، أو رواية تمثيلية . ونجد نحن في ذلك كله صدى لنفوسنا ، ومرآة لانسانيتنا .
وفي (الثاني) من تلك المستويات الثلاثة نرى (العالم) ويده أجهزه مخالفة كل المخالفة . لأجهزة الأول ، بها يستطيع أن يقوم بالتجارب ، ويفرض الفروض ، وقيم الموازنات ؛ ويخرج لنا من كل هذا بنتيجة علمية ، أو بنظرية من النظريات التي يمكن أن تكون أساسا يبنى عليه العلم .

وفي (الثالث) من تلك المستويات يقف (الصحافي) لينظر الى الأحداث والوقائع نظرة غيرية لاذاتية . وهي في الوقت نفسه مخالفة لنظرة الأديب ونظرة العالم كل المخالفة . ذلك أن نظرة الصحافي إلى الأشياء قائمة على المنفعة التي تعود على المجتمع . وتعبيره عنها لا يشترط فيه جمال الأدب الخالص ، ولا دقة العلم الخالص . لأنه إنما يعبر بلغة الحياة اليومية بكل ما في هذه اللغة من ألفة ، وبساطة ، ووضوح ، وحيوية . ومن هنا كان الصحافي من أقدر الناس على إفهام الجماهير على أوسع نطاق مستطاع .

وفي ذلك يقول الكاتب الانجليزي (ديفو) - وهو من أشهر كتّاب المقال في القرن الثامن عشر :

« إذا سألتني سائل عن الأسلوب الذي أكتب به قلت إنه الذي إذا تحدثت به إلى خمسة آلاف شخص بمن يختلفون اختلافا عظيما في قواهم العقلية - عدا البله والمجانين - فإنهم جميعا يفهمون ما أقول ،

* * *

مهما يكن من شيء فالذي يعيننا في هذا الفصل إنما هو معرفة الفرق بين أسلوب الأديب ، وأسلوب الصحفي . أو بعبارة أخرى معرفة الوسائل التي يعتمد عليها الأول ، والوسائل التي يعتمد عليها الثاني (١)

فأما الوسائل التي يعتمد عليها الأديب فكثيرة يمكن ان يقع الكثير منها تحت عنوان واحد ؛ هو (الخيال والصورة) ، فالأديب هو وحده تقريبا صاحب الحق في ان يعتمد على التشبيه ، والاستعارة ، والمجاز ، والكناية ، وعلى ما يسمى عند النقاد المحدثين (بتجسيم المعاني) ، وما يسمى عندهم كذلك (بتشخيص الجماد) والأديب هو وحده تقريبا صاحب الحق في ان يعتمد على الخرافات ، وفي ان يتحدث على أسنة الحيوان والطير ، وفي أن يصل بخياله الى حد الوهم أحيانا . فينقلنا - إن أراد - إلى عوالم أخرى ، ويسبح بنا فيما شاء من أجواء ، ورسم لنا من عوالم .

أما الصحفي فوسيلته في التعبير اللغوي واحدة ، قلما يستطيع أن يعدوها الى غيرها من الوسائل الأخرى وهذه الوسيلة هي - كما قلنا - لغة الحياة الواقعية يتخذها أساسا للتعبير والابانة ، ويعتمد عليها في كتابة الأعمدة الكثيرة في الجريدة . والحياة الواقعية غنية دائما بالالفاظ الكثيرة التي تظهر فيها بين حين وآخر ، وتتخذ لها معاني خاصة ، وتصبح أقدر على التعبير عن هذه

(١) سبق أن عالجت هذا الموضوع في كتابي (أدب المقالة الصحفية في مصر) في أجزاء الستة . ولقارئ أن ترجع بنوع خاص إلى الصفحات ٢٤٢ - ٢٥٠ من (الجزء الأول) والصفحات ٢١٦ - ٢١٩ من (الجزء الثاني) والصفحة ٢١٠ من (الجزء الرابع) والصفحة ٢٣٣ من (الجزء الخامس) والصفحات ٢٨٢ - ٢٨٦ من (الجزء السادس)

المعاني من الألفاظ القديمة أو الموروثة . وهذه الألفاظ التي تظهر في الحياة الواقعة تكون عامية حيناً ، وأجنبية حيناً ، ومنحوتة نحتاً جديداً حيناً ثالثاً وهكذا .

فالألفاظ : - الديموقراطية ، والدكتاتورية ، والارستقراطية ، والاستراتيجية ، والدبلوماسية . والألفاظ : الحرب الباردة ، والتكتيك الحربي ، والتكتيك السياسي الخ كلها جائزة الاستعمال في الصحافة . بل أن كاتب الخبر أو المقال في الصحيفة لاغنى له مطلقاً عن هذه الألفاظ التي أصبح لها مدلول خاص في حياتنا اليومية ، كما أصبح لها كذلك وحى خاص توحى به إلينا ، بحيث إذا ذهبتم تحت هذه المعاني ألفاظاً عربية سليمة فإنكم تفقدوها مدلولها من جهة ، وتسلبها القدرة على الإيحاء المطلوب من جهة ثانية . على أنه من الجائز أن يصطنع الصحفي لغة الأدب الخالص أحياناً ، ولكن ليس له أن يسرف إسراف الأديب في ذلك . فإذا جاز لهذا الأخير أن يستخدم الأصباغ الفنية الكثيرة في الكتابة ؛ من سجع وجناس وتشبيه واستعاره وكناية ، فإنه لا يجوز للأول أن يفعل فعله إلا في القليل النادر . وإذا أردنا أن نحدد الفرق بين الأديب والصحفي في استخدام الأصباغ الفنية المعروفة ، فسنرى أنه كالفرق بين الصورة ذات الألوان الكثيرة ، من أحمر ، وأصفر ، وأزرق ، وبنفسجي الخ وتلك صورة الأدب - والصورة ذات اللونين الأبيض والأسود فقط - وهذه صورة الصحافة . وقد سبق لي أن ضربت لكم مثلاً يوضح الفرق بينهما في ذلك . ضربت لكم هذا المثل من أدبنا العربي القديم لا الحديث . لتعلموا إن هذه الفروق موجودة بين الناس منذ القدم ، وأن الكتاب انقسموا من أجلها - هذين القسمين الواضحين ، وهما كتاب الأدب الخالص ، وكتاب الصحف التي ليست من الأدب الخالص . الأولون يمثلهم ابن المقفع ، والآخرون يمثلهم الجاحظ .

* * *

الخبر والمقال

سبق لي أن ذكرت لكم أن من أهم فنون الصحافة فنيين وهما - فن الخبر وفن المقال . أما الخبر ، فيعتمد في كتابته على طريقة خاصة تبعد به عن طريقة المقال .

ذ الخبر عبارة عن حقيقة من الحقائق الواقعة، أو حادثة من الحوادث اليومية ينقلها الكاتب إلى القراء، ويتوخى فيها نوعاً من الجذب عند العرض. كأن يكتب العنوان على نحو خاص، ويكتب تحت هذا العنوان عنوانات أخرى توضحه وتكتسبه قدراً آخر من التشويق والاثارة، وهكذا.

ثم إنه عند كتابة الخبر ذاته، يتوخى الكاتب كذلك أن يكتبه على دفعتين، وبصورتين مختلفتين. أولاها أدنى إلى الإيجاز والاختصار. والثانية أدنى إلى الأسهاب والإطالة التي يراد بها شرح ما سبق أن أوجزه الكاتب في صورته الأولى.

والخبر الصحفي - بوجه عام - يجب أن يكون في صورته الأولى هذه جواباً عن أسئلة خاصة تقدر الجريدة أنها في ذهن القارئ عند القراءة. وهذه الأسئلة هي (متى)، و (أين)، و (من)، و (كيف)؛ فمتى حدث الحادث؟ وأين وقع؟ ومن الذي اشترك في إحداثه؟ وكيف كانت طريقة الحدوث؟ الخ. حتى إذا فرغت الجريدة من الإجابة عن هذه الأسئلة بطريقة سريعة وموجزة أصبح لها بعد ذلك أن تعتمد إلى تفصيل ما أوجزت، وشرح ما أجملت.

وعلى هذا فكتابة الخبر الصحفي بعيدة في طريقتها عن كتابة المقال. ولا غرابة في ذلك فالخبر - كما قلنا - حقيقة واقعة، وحادثة مشاهدة تتوخى الصحف أن تنقلها إلى القراء كما هي، وأن تختلفت هذه الصحف بعد ذلك في طرائق العرض من حيث هي.

و (أما المقال) فهو فن التعليق على هذه الأخبار، سياسية كانت أو اجتماعية، أو علمية، أو أدبية. ثم هو فن التوجيه والإرشاد توجيهها لا يكون بطريقة الوعظ والخطباء، ولا بطريقة المعلمين والآباء، ولكنه بطريقة الحديث الذي يكون عادة بين الأصدقاء والخلطاء، لا يستعلى أحدهم على الآخر، ولا يفهمه أنه يعظه أو يعلمه، أو يحجره جراً إلى رأى معين، أو فكرة معينة.

ذلك أن الفرق كبير بين الكتاب والجريدة . فأنت مع الاول أمام معلم يعلمك مالم تكن تعلم ، أو يثبت في ذهنك بعض ما كنت تعلم . ولكنك مع الثانية أمام صديق ينهى إليك أنباء المجتمع الذى نعيش فيه ، كما ينهى إليك أخبار المجتمعات الأخرى ، ولا يقف بك عند هذا الحد ، حتى يثير في ذهنك أسئلة كثيرة يساعدك على فهمها ، وعلى الإجابة عنها ، متوخيا في ذلك كله أن يكون معبرا بوضوح عما يسمى « بالرأى العام » ، أو محاولا - جهد المستطاع - التأثير في هذا الرأى العام .

ومع هذا وذلك فلا يزدهر المقال الا في عصور التقدم العقلى على أية صورة من صوره . فحيثما وجدت عناية تامة بالمقال فاحكم بأن هناك نشاطا فكريا في السياسة . أو العلم ، أو الادب ونحو ذلك . ومن أجل هذا لم تشهد انجلترا نشاطا في كتابة المقال كما شهدته في القرن الثامن عشر ، على أيدي كتاب من أمثال . - ستيل ، وأديسون ، وديفو ، ومن اليهم . كما شهدت مصر نشاطا في هذا الباب في النصف الثانى من القرن التاسع عشر ، على أيدي رجال من أمثال : الشيخ محمد عبده ، والسيد عبد الله النديم ، والسيد على يوسف ، ومن نهج منهجهم ، وسار على طريقتهم ، وشغل بأفكاره الناس والحكومات .

ثم إن المقال الصحفى كان يهدف من قبل الى مجرد التأثير في المجتمع الذى نعيش فيه الجريدة ، فأصبح يهدف في وقتنا هذا الى التأثير في دول العالم المتحضر كله متى أمكن ذلك . ومن ثم أصبح للمال أهمية البالغة في الدعاوة السياسية لرأى معين ، أو فكرة خاصة يقصد بها منفعة قطر بعينه ، أو منفعة العالم كله . في بعض الأحيان .

* * *

تعريف المقال :

ولكن ما هو المقال الصحفى ؟ وما السبيل الى كتابته ؟
سبق لى كذلك أن تعرضت لهذا الموضوع ، فقلت عن المقال الصحفى إنه ليس موضوعا انشائيا ، ولا مقامة من المقامات المعروفة في

الادب العربي ، ولا قصة ، ولا حكاية ، ولا فصلا من فصول كتاب أدبي أو علمي ، ولا محاضرة من المحاضرات العلمية أو الأدبية ، ولا ضربا من هذه الاضرب الادنيه المعروفة لها . انما المقالة الصحفية عبارة عن فكرة يتلففها الكاتب من البيئة المحيطة به ، ويتأثر بها . وفي هذا الجو الوجداني للتلفف ، يعبر الكاتب عن هذه الفكرة بطريقة ، حظها من النظام قليل ، وحاجتها الى الترتيب والتمحيص والتدقيق والبحث العلمي العميق أقل . فانما المقالة حديث يوشك أن يكون عاديا ، يعرضه الكاتب على قرائه كما يعرض لموضوع من الموضوعات التي يزجي بها وقت الفراغ مع بعض الجلساء . وحسب المحرر الصحفي أن يتحدث الى قرائه في الامور الخاصة والعامة حديثا فيه سخرية حيناً ، وفيه تفكير حيناً ، وفيه استطراد حيناً ، وفيه مراعاة لمزاج القارئ وحاجاته آخر الامر ، (١)

والانجليز يطلقون على المقال كلمة (Essay) . ومعناها (محاولة) أي أنها شيء غير مكتمل ، شيء يشبه المذكرات الخاصة والخواطر المتناثرة . وعلى القارئ دائما أن يكمل ما بالمقالة الصحفية من نقص ، كما يكون على سامع القصيدة الغنائية أن يفعل مثل ذلك عند سماعه بيتا من الأبيات التي تتألف منها (٢) ،

وانظر الى تعريف معجم (لاروس) للمقال :

« هو اسم يطلق على الكتابات التي لا يدعى أصحابها التعمق في بحثها ، أو الإحاطة التامة في معالجة موضوعاتها . وكلمة مقال تعني محاولة أو خبرة أو تطبيقا مبدئيا أو تجربة أولية ،

وانظر الى قاموس أوكسفورد كيف وصف المقال فقال : -

« هو انشاء كتابي معتدل الطول في أي موضوع من الموضوعات ، أفرع من فروع المعرفة . وهو دائما ينقصه الصقل . ولذلك يبدو غير مهضوم ولا منظم الخ ، ثم انظر الى دائرة المعارف البريطانية كيف تقول : -

(١) أدب المقالة الصحفية في مصر (للمؤلف) الجزء الثاني ص ٢١٦

(٢) نفس المصدر المتقدم — الجزء السادس ص ١٨٤

« المقال - كفن أدبي - هو الانشاء المتوسط الطول، يكتب بالثر عادة ، ويعالج موضوعا بعينه بطريقة مبسطة وموجزة ؛ على أن يلتزم الكاتب حدود هذا الموضوع، ويكتب عنه من وجهة نظره هو . والمقال - كفن صحفى - يهتم بالتفاصيل على حين يهتم المقال كفن أدبي بمجرد القيم »
ويقول الكاتب الانجليزى جونسون فى وصف المقال : -
« ولا ينبغي أن يكون له ضابط من نظام ، بل هو قطعة لا تجرى على نسق معين ، ولم يتم هضمها فى نفس كاتبها ، الخ

مما تقدم نستطيع أن نستخلص الخصائص الهامة للمقال الصحفى فى أغلب الاحيان . وهى خصائص يمكن أن نجعلها كلها صفة (العادية) فى التعبير و(العادية) فى التنظيم والتصميم ، و (العادية) فى التفكير . ومن هنا وصلت الصحيفة الى كل يد ، ودخلت كل بيت ، ووضعت على كل مائدة . وذلك بخلاف الكتاب الذى احتفظ لنفسه بصفة التميز والاختصاص فى جميع الظروف والاحوال . ومن ثم كانت الصحافة نعمة على الجماهير وسواد الناس ، ولكنها أوشكت أن تكون فى الوقت نفسه نقمة على الأدب الخالص ، والعلم الخالص ، والفن فى عليا مراتبه (١)

بم تقدم النشر القديم وبم تقدم النشر الحديث ؟

نحن نعرف من تاريخ الادب العربى أن النشر الفنى القديم إنما ولد ونما

(١) يعجبني فى هذا الباب كتاب ألفه الاستاذ موريس هيولت (Maurice Hewlett) تحدث فيه عن فن المقالة فى الادب الانجليزى فأتخذ لكتابه عنوانا فى غاية الدلالة وهو (The May pole and The Collumn) والترجمة الحرفية لهذا العنوان يصح أن تكون هكذا : « سارية الربيع والعمود » . وبهذا العنوان فرق الكاتب تفرقة واضحة بين المقالة الادبية والمقالة الصحفية . فشبّه الاولى بسارية الربيع ، وهى ذلك العمود الكبير الذى يتخذهُ الإنجليز رمزاً لعيد الربيع ، يزينونه بالزهور والديبحة من كل صنف ، والورود الجميلة من كل لون ، فتبدو السارية وكأنها العروس فى جلوتها . ثم شبه المقالة الصحفية بالعمود العارى من جميع هذه الزينة . وتأمل معنى أنها القارى لفظ « عمود » وقد استعاره الكاتب هنا للمقالة الصحفية على سبيل التورية . فلماذا اللفظ معنيان « أولها » العمود بالمعنى المادى المعروف « وثانيهما » العمود بمعنى النهر الذى يكتب فى صحيفة من الصحف .

في أحضان الخلفاء والامراء والوزراء ، وعنيت به الحكومات الاسلامية منذ بداية أمرها عناية تامة . فابتنت له دورا وقصورا عرفت باسم «الدواوين» وسمى واحدها حيناً باسم «ديوان الرسائل» وحيناً آخر باسم «ديوان الانشاء» وحيناً ثالثاً باسماء اخرى .

وكان يتولى الكتابة في تلك الدور أو القصور صفوة من الناس لا يرقون إلى مرتبة الكتابة الا بعد أن يؤخذوا أنفسهم بثقافة واسعة ، ورياضة بالغة يصبح بها رئيس طبقة الكتاب — وهو الوزير في العادة — عنوان أمته في العلم والثقافة ، كما هو عنوان امته في الادب والكتابة .

ومعنى ذلك باختصار أن النشر الفني العربي انما نشأ نشأة ارسقراطية لاربب فيها، وان الحكومات الاسلامية في تلك العصور كانت تتولى حماية هذا الفن الادبي منذ نشأته ، وتبذل كل ما تستطيع في سبيل حمايته . — ذلك كله في العصور الاولى للأدب العربي . أما في العصر الحديث — وهو العصر الذي قال فيه شوقي : —

لحل زمان مضى آية وآية هذا الزمان الصحف

— فقد ظهرت الصحافة . والصحافة في ذاتها أداة شعبية ديمقراطية أكثر منها أداة رسمية ديوانية . وإذا كان لديوان الانشاء أكبر الفضل في تقدم الكتابة العربية في العصور التي تشير إليها ، فقد أصبح للصحافة أكبر الفضل في تقدم النشر الفني الصحفي في العصر الذي نعيش فيه . وان كان الفرق عظيماً بين الحالتين : —

(الحالة الاولى) حين كان النشر الفني ارسقراطياً يرى نفسه وقفاً على خدمة الملوك والامراء والوزراء ، أو يوشك أن يرى نفسه وقفاً عليهم دون غيرهم من أفراد المجتمع .

(والحالة الثانية) وفيها أصبح النشر الصحفي ديمقراطياً يجد نفسه وقفاً على خدمة الشعب . ومن ثم أصبحت الصحافة في عصرنا هذا سجلاً لكل ما يدور بيننا ، ومראה تنعكس عليها آراؤنا وأفكارنا ، وحركاتنا وسكناتنا

وكتابا تقرأ فيه أخبارنا ، وتعرف به آثارنا .
 وفي اعتقادي أن هذه الحقيقة الأخيرة فوق أنها تصف لنا نشأة النشر
 الفنى ، وتفرق لنا تفرقة واضحة بينه وبين النشر الصحفى ، فإنها ستوضح لنا
 بجلاء صورة الادب الحديث بموضوعاته المختلفة ، وأنماطه المتباينة ، كما ستثبت
 لنا كذلك صدق هذه الدعوى التى سنحاول البرهنة عليها فى بحثنا هذا ؛
 من أوله إلى آخره ؛ وهى قولنا : (الصحافة المصرية صانعة الادب المصرى
 الحديث) .

.. ..

(وبعد) فإذا كانت ، العادية ، هى الصفة الغالبة على المقال الصحفى من
 حيث التفكير ومن حيث التعبير ، وإذا كان من أهم أغراض الجريدة -
 أيا كان منزعها - هو التوجيه السليم والارشاد القويم ، وإذا كانت
 الصحافة بهذا الاعتبار الاخير ، جامعة كبرى ، تهدى الشعوب والحكومات
 سواء السبيل . نقول إذا صح كل ذلك فإن أيسر ما ينجح عنده ان تلتفت
 الصحف الكبرى فى مصر وغير مصر إلى أن عليها دائما أن تستعين بالعلماء
 والخبراء فى كل علم من العلوم وفن من الفنون ، متى اتصل هذا الفن بحياة
 المجتمع ، وكان له أثر فى تقدمه وتطوره . فهؤلاء العلماء والخبراء هم
 الذين يجدون من أوقاتهم متسعاً للتفكير فى المشروعات العامة ، وهم الذين
 يجدون من أعمالهم وتجاربهم وخبراتهم ما يمكن أن يهتدى به فى تلك
 المشروعات العامة . أما الصحفيون فليس أمامهم من الوقت متسع لشيء
 من ذلك بحال ما .

ولكن - حين يكتب العلماء والخبراء لجريدة من الجرائد يتوخون طريقة
 التبسيط فى الكتابة . وبدون ذلك لا يظفرون بالقارئ الذى يستطيع أن
 يتابع أقوالهم وأبحاثهم ، أو ينتفع بتوجيههم وارشادهم . وذلك فى ذاته هو
 آخر دليل نقدمه على عظم الفرق بين المقال الصحفى من ناحية ، والمقال
 الأدبى أو العلمى من ناحية ثانية ؟

٣

بيئة الادب والصحافة

تطلق كلمة «الادب الحديث» على الآثار الأدبية التي اقترنت بظهور النهضة المصرية أو النهضة الشرقية . فمتى حدثت هذه النهضة ؟ وما الدافع إليها ؟ وما هي أهم الاتجاهات التي اتخذتها ؟ .

أما مصر فقد بدأت نهضتها في أوائل القرن التاسع عشر . وهو القرن الذي شهد أحداثا هامة . منها حادث الحملة الفرنسية التي قادها الجنرال بوناپرت إلى الديار المصرية . ومنها حادث ظهور محمد علي ومحاولة الاستقلال عن الدولة العثمانية وانشغاله باصلاح مصر على النظام الذي رآه في الاستانة قبل مجيئه إليها ، إلى غير ذلك من الاحداث السياسية والفكرية والاجتماعية التي ستشير هنا إلى بعضها . ومهما يكن من شيء . فان اليقظة المصرية بدأت فعلا برغبة مصر في الانفصال عن الدولة العثمانية ، وشعور المصريين يومئذ . بحاجتهم القصوى الى تأييد اللغة القومية ؛ وهي اللغة العربية . وفي سبيل هذه الأمانة جاهد المصريون نوابا ، وحكاما ، وأدباء وصحافيين ، وعلماء ومفكرين . وانتهت المعركة بانتصار العربية التي أصبحت لغة الحكومة ، والكتابه ، والعلم ، والصحافة . وهذا النصر العظيم هو الذي حقق للبلاذ قوميتها من جهة ، ودفع بها إلى الامام في طريق النهضة الصحيحه من جهة ثانية .

الحملة الفرنسية :

نعم — كانت « الحملة الفرنسية » نوعا من اللقاء ، بين الشرق والغرب ، وذلك عن طريق مصر ذات الموقع الجغرافي العظيم الشأن ، وهو الموقع الذي يعينها دائما على أن تقوم بدور الوسيط الثقافي بين الأمم . لكن من الحق هنا أن يقال إن هذا اللقاء بين الشرق والغرب كان يحدث دائما على صور عدة : منها صورة الجاليات الاجنبية التي اختارت المقام بالديار المصريه وغيرها من الاقطار العربية .

ومنها صورة البعثات التبشيرية التي استقر أكثرها في جبل لبنان خاصة .
ومنها صورة سياسية كالتى حدثت في تاريخ (على بك الكبير) . فقد استقل
هذا الأخير بمصر سنة ١٧٧٧ وفتح اليمن والحجاز ، وأصبح يلقب (بسلطان
مصر وخاقان البحرين) . « وأوفد مندوبين من قبله لمفاوضة البندقية وروسيا
بغية عقد محادثات تضمن مصالح الطرفين . وقد حدث كل ذلك قبل مجيء
الحملة الفرنسية إلى مصر بمدة تزيد على ربع قرن » (١) وهــ كذا .

والحملة الفرنسية هي التى أتت إلى مصر بالمطبعة العربية . والكثيرون من
المؤرخين ينظرون إلى هذا الحادث على أنه عظيم الأثر في حياة مصر الثقافية .
ولكن هذه الدعوى تفقد شيئاً من الأهمية حين نعرف أن الحملة الفرنسية
عندما بادت بالفشل عادت إلى بلادها ومعها كل عقادها . ومن بينه المطبعة .
على أن للحملة الفرنسية فضلاً لا سبيل إلى إنكاره مع ذلك . وهو هذا
الكتاب الضخم المشهور « بوصف مصر » . وهو كتاب يقع في تسع مجلدات ،
معها صور وخرائط ولوحات تقع في أربعة عشر مجلداً أخرى .
غير أن مصر لم تنتفع بهذا الأثر العظيم إلا بعد موت العلماء الفرنسيين
الذى قاموا بوضعه - لا خدمة للمصريين أنفسهم - ولكن خدمة للاستعمار
الفرنسي كما نعرف .

وإذن فبإلغ القول في الحملة الفرنسية - من الناحية الثقافية - أنها كانت بمثابة
هزة قوية شرع المصريون بعدها يعملون ويفكرون ، ويفركون أجفانهم
بعد نوم طويل . ومن هذه الناحية الأخيرة حق لبعض المؤرخين المحدثين
أن ينظروا إلى هذه الحملة على أنها سبب من أسباب انتشار الثقافة الفرنسية
بالديار المصرية .

ذلك أن الحملة وفدت على مصر بصورة فريدة من نوعها وحيدة في بابها -
صورة حرص فيها الجنرال بوناپرت على أن يكون العلماء الفرنسيون جزءاً
من الجيش الذى أتى لمحاربة المصريين . وذلك بصرف النظر هنا عن أعمال

الوحشية التى اقترفها أولئك الجند ، وهى أعمال أظهر الجبرتى اشمئزازه منها ،
وشدد النكير عليها (١)

ومع هذا وذاك فنحن مع القائلين بأن تأثير المصريين بالفر نسيين لم يكن سريعاً
كل السرعة، وبأن النهضة المصرية بدأت بشعور من جانب الأهلىين بهذه الهزة
التي صاحبت الحملة . كما نقول عن النهضة أيضاً إنها بدأت بداية صحيحة بانفصال الديار
المصرية عن الدولة العثمانية، وشعورها يومئذ بمعنى جديد هو معنى (القومية) .
وقد غذى الأدب والعلم والصحافة فيما بعد هذا الشعور الأخير حتى بلغ غايته،
وأتى ثمرته فيما بعد .

ظهور محمد على

حدثنا التاريخ أن العلماء والأعيان اجتمعوا بمصر فى هيئة مؤتمر وطنى ؛
وذلك فى الثالث عشر من شهر مايو سنة ١٨٠٥ وقرروا خلع الوالى
القديم « وخورشيد باشا » وتعيين محمد على باشا والياً عليهم . وذهب وفد منهم
إلى منزله ، وأبلغوه القرار ، وصاحوا جميعاً بصوت واحد :

« لا نرضى إلا بك ، وتكون والياً علينا بشروطنا » .

ثم ألبسه السيد عمر مكرم والشيخ الشرقاوى شارة الحكم ، ونودى به والياً
على مصر .

منذ ذلك الوقت فسكر محمد على فى أمر يهيمه أولاً ، وهو « اصلاح الجيش » .
وكان هذا الاصلاح نواة لجميع الاصلاحات الأخرى فيما بعد . ومنها اصلاح
التعليم ، واصلاح الزراعة ، واصلاح الصناعة ، واصلاح التجارة الخ .

والمهم أن محمد على أصبح يعتمد فى اصلاحاته كلها على الفلاح المصرى :
فخلق منه الجندى ، والضابط ، والطبيب ، والمهندس ، والحاكم ، والعالم ،
والصحفى ، والأديب الخ

ولا يعنينا نحن من هذه الاصلاحات غير ما يتصل بالتعليم : فقد أراد
محمد على أن يظفر لنفسه بجيش مصرى قوى . فسكر فى امداده بالضباط ،
والمهندسين ، والأطباء ، والمدرسين والاداريين والصناع الفنيين الخ .
وأدرك الرجل يومئذ أن العبث أن يفترق هؤلاء وهؤلاء فى أروقة الأزهر

فاتجه تفكيره إذذاك الى إنشاء (المدارس الحديثة) وتنظيم (البعثات العلمية إلى أوربا) ، والاعتماد على (حوكمة الترجمة)
وتلك هى الأسس الثلاثة للنهضة الثقافية التى شملت مصر منذ ذلك الوقت
على أن المدارس الحديثة إنما استمدت تلاميذها أول الأمر من
الازهر . فمنه أخذت مدرسة الطب معظم تلاميذ الدفعة الاولى . ومنه أوفد
محمد على ثلاثة رجال فى بعثة إلى أوربا سنة ١٨٢٦ . لم ينجح منهم غير فتى له
شأن أى شأن ؛ هو (رفاعه الطيطاوى) . ومن الازهر استمدت
المدارس الحديثة مدرسين للغة العربية . ومنه استمدت حركة الترجمة شيوخا
لتصحيح الكتب المترجمة الخ (١)

د من أجل ذلك نعمت مصر فى أيام محمد على بنهضة علمية مباركة التقى
فيها التياران الشرقى والغربى . ومن التقائهما معاً نشأ الأدب المصرى الحديث
والصحافة المصرية الحديثة فى القرن التاسع عشر . كان التيار الشرقى يتمثل
فى العلوم العقلية ، وفى تعليم اللغة العربية ، وفى بعض الكتب الأدبية القديمة ،
من نحو مقامات الحريرى ، وبديع الزمان ، ودواوين الشعراء الفحول كالفرزدق
وجرير والمتنبى وأبى تمام وأبى العلاء . ومن نحو ديوان الحماسة لأبى تمام الخ .
وكان التيار الأوروبى يتمثل فى ترجمة كثير من الكتب التى احتاج إليها
التعليم الحديث ، وقام بتصحيحها الازهريون . كما ظهر التيار الاوروبى كذلك
فى ترجمة بعض الكتب الأدبية الاوربية الى اللغة العربية . وكانت هذه
الترجمات ذات صبغة علمية فى أكثرها أيام محمد على ، لحاجة المدارس الحديثة
ذلك ، ثم أصبحت ذات صبغة أدبية فى أكثرها أيام اسماعيل . (٢)

السوريون فى مصر

وفى بيان حركة التنوير التى انتفع بها المصريون فى ذلك الحين لا ينبغي
للباحث المنصف أن يغفل الإشارة إلى (السوريين) الذين نزحوا إلى الديار

(١) راجع كتاب تاريخ التعليم فى عصر محمد على للدكتور أحمد عزت عبد الكريم ص ٥٧٨

(٢) آداب المقالة الصحفية فى مصر ج ١ ص ٦٦ — ٦٧

المصرية ليتمتعوا فيها بحرية نسبية كانوا محرومين منها في بلادهم الأصلية وفي مصر أعان السوريون على ظهور (الصحافة) واتخذوا منها ومن جهودهم الأدبية الأخرى أداة لنشر الثقافة الاوربية التي تعلموها في بلادهم . وكانت هذه الثقافة الاجنبية فرنسية الطابع في أكثرها .

وان تذب مصر لا تذب لأولئك السوريين اهتمامهم فوق هذا كله بالقصة وبالمسرح ، وذلك على النحو الذي ستشير اليه عند الكلام عن (الصحافة والقصة في مصر) .

ظهور السيرة جمال الدين الافغانى

بين مارس سنة ١٨٧١ وأغسطس سنة ١٨٧٩ ظهر في مصر فيلسوف الشرق جمال الدين الافغانى ، وقضى بها ثمان سنين ، كانت من خير السنين بركة على مصر وعلى العالم الشرقى . « لا بما أفاد من جمال مظهرها وحسن رونقها وسعادة أهلها . ولكن لأنه فيها كان يدفن في الأرض بذورا تنهيا في الحفاء للنماء ، وتستعد للظهور ثم الازدهار . فما أتى بعدها من تعشق للحرية . وجهاد في سبيلها فهذا أصلها . وإن وجدت بجانبها عوامل أخرى ساعدت عليها وزادت في نموها ، (١)

في هذه الفترة التي قضها جمال الدين في مصر أنشئ صندوق الدين سنة ١٨٧٦ ، وأنشئ نظام الرقابة الشائبة في نفس السنة . وأفضت الرقابة الشائبة إلى تأليف وزارة مختلطة برئاسة نوبار . وقد حفزت هذه الظروف وأشباهاها همة المصريين ، وعلمتهم الاشتغال بالسياسة منذ ذلك الحين . جاء السيد جمال الدين - وكان من طبعه الانغماس في السياسة - فزاد المصريين اهتماما بشؤون بلادهم ، وتفكيراً في التخلص من النفوذ الاجنبى .

وبقى الافغانى يلقى دروسه على طلبته في الأزهر وعلى أصدقائه في منزله ومنازل الكبراء والفضلاء في عصره ، حتى نبغ على يديه طائفة من شباب

مصر كانوا أعمدة نهضتها الفكرية والسياسية فيما بعد . ومن هؤلاء على سبيل المثال : محمد عبده ، وعبد الكريم سلمان ، وسعدن غول ، وإبراهيم الهلباوى وأديب اسحق ، ويعقوب بن صنوع ، وغيرهم .

قرأ السيد مع تلاميذه كتباً في المنطق والفلسفة والتصوف والهيئة الخ . ويظهر أن هذه الكتب لم تكن لها قيمة في ذاتها ... إنما قيمتها في أن كل فصل من فصولها ، أو جملة من جملها كانت تسكأة يستند عليها الشيخ في شرح أفكاره وآرائه ، ونظرته إلى العالم كوحدة . فهذه الكتب التي قرأها إنما قيمتها في نفس جمال الدين . والدنيا تتلون بلون منظار الرائي . والطبيعة كلها مفتوحة أمام أعين الناس كلهم . ولكن لا يفهمها إلا القليل . (١)

الحق أنه بالتقاء التيار الاوربي بالتيار الشرقي بالتيار السورى ، بالتيار الذى أتى به السيد جمال الدين الأفغانى نشأ العقل المصرى الحديث ، والأدب المصرى الحديث .

الصحافة المصرية

ونحن نعرف أن الصحافة نشأت في مصر على يد الحملة الفرنسية . ولكن ما يقال في المطبعة العربية التي أنت بها الحملة الى مصر ، ثم جلت عنها بجلاء هذه الحملة يقال مثله في الصحافة أيضا . فقد كانت هذه الصحافة فرنسية خالصة لا يقصد بها الا الفرنسيون المقيمون بمصر وحدهم . أما المصريون أنفسهم فلم يكن لهم علم بها ، ولا كانت لهم قدرة على فهمها . ولعله من أجل ذلك فكر القائد (مينو) في إصدار صحيفة باللغة العربية ، وعهد إلى الشيخ الخشاب في الأزهر أن يتولى تحريرها بنفسه . ولكن هذه الصحيفة بقيت جنينا في بطن الحملة الفرنسية لم يقدر له الخروج منها .

وما إن استقر محمد على الأمر في مصر حتى أخذ يفكر في انشاء (جورنال الخديو) على غرار الصحف الفرنسية التي صدرت من قبل ، ومن هذه الصحف (بريد مصر)

وصحيفة العشريات Les Decades . ثم ما لبث (جورنال الخديو) أن تحول على يد محمد علي إلى جريدة (الوقائع المصرية) وكان ذلك سنة ١٨٢٨ ميلاديه . وبقيت الصحافة المصرية رسمية على هذا النحو إلى أن ظهرت الصحافة الأهلية أو الشعبية . وكانت هذه - في أول الأمر - صورة من الصحافة الرسمية . ثم استقلت بعد شيئاً فشيئاً بشخصيتها . وكانت جريدة وادي النيل لعبد الله أنى السعود أولى الجرائد الشعبية ظهوراً في مصر سنة ١٨٦٦ ، وهي السنة التي شهدت (مجلس شورى النواب) الذي انشأه اسمعيل . وعلى هذا المجلس الأخير ، وعلى الصحافة الشعبية التي شجعها اسمعيل اعتمد الرجل في محاربة التدخل الاجنبي ومحاربة الدولة العثمانية وتوالت بعد ذلك الصحف الأهلية المصرية ، وتبع بعضها بعضاً في الظهور فكان منها على سبيل المثال :

جريدة نزهة الافكار لعثمان جلال و ابراهيم المويلحي سنة ١٨٦٩
وجريدة الوطن لميخائيل عبد السيد

✕ وجريدة الاهرام لبشاره تقلا سنة ١٨٧٥

وجريدة روضة الاخبار لمحمد انسى ابن عبد الله أنى السعود سنة ١٨٧٥
وجريدة مصر لأديب اسحق (بوحى من جمال الدين الافغانى)

سنة ١٨٧٧

وجريدة التجارة لأديب اسحق وسليم النقاش في سنة ١٨٧٨

وجريدة التنكييت والتبكييت للسيد عبد الله النديم سنة ١٨٨١

وجريدة الطائف للنديم كذلك سنة ١٨٨٢

وجريدة الاستاذ للنديم أيضاً سنة ١٨٩٢

ثم ظهرت جرائد مصباح الشرق ل ابراهيم المويلحي ، والمؤيد للسيد على يوسف ، واللواء لمصطفى كامل ، والجريدة لاحمد لطفى السيد ، والاخبار لأمين الرافعي والبلاغ لعبد القادر حمزه النخ .

وفي أحضان الصحافة الشعبية المصرية نشأ الادب المصرى الحديث على النحو الذى ستشرحه المحاضرات القادمة بمشيئة الله تعالى حقيقة كان هناك أدب مصرى لا يمت للصحافة بصلة . ومنه الرسائل

الاخوانية التي كانت تكتب بلغة أدبية فيها كثير من الزينة اللفظية والمعنوية .
ومنه بعض الكتب ، العلمية أو الادبية التي كتبها أمثال رفاعه الطهطاوى ،
وعلى مبارك ، وعبد الله فكرى ، وحفنى ناصف ومن اليهم .
غير أن هذه الكتب الاخيره — فضلا عن قلتها إلى درجة كبيرة —
كتبت بلغة قديمة ، وأساليب غريبة حتى على المثقفين أنفسهم . ومن ثم لم
يكن لها من الاثر فى عقول المصريين ما يستحق الذكر . تستثنى من ذلك
كتابا واحدا فقط ؛ هو (رحلة الطهطاوى الى باريس) . وستأتى الإشارة إليها .
تلك بعض سمات البيئة الفكرية التي نشأ فيها الادب الحديث والصحافة المصرية .
بقى أن نضرب المثل على هذه البيئة بشيخ الادب والصحافة ، ورائدهما
الحقيقى فى النصف الاول من القرن التاسع عشر ، ونعنى به رفاعه الطهطاوى .
ثم نضرب المثل بشيخ الادب والصحافة وزعيمها الحقيقى فى النصف الثانى
من ذلك القرن . ونعنى به السيد عبد الله النديم . ولا يتسع المجال لان
نضرب أمثلة أخرى .

رفاعة الطهطاوى ١٨٠١ — ١٨٧٣

ولد رفاعه بمدينة طهطا من مدن الصعيد . وذلك فى السنة الاولى من
سنى القرن التاسع عشر ، فكان ميلاده كان إيذانا بأن هذا القرن سيشهد
نهضة قوية ، هى تلك النهضة التي رفع الرجل لواءها ، وكان البطل الاول لها .
وكان من حسن حظ رفاعه أنه تلمذ فى الازهر للشيخ حسن العطار ، وكان العطار
شيخا طالعة ، رأى بعينى رأسه آثار الحملة الفرنسية ، ودهش لها ، وأحس
فى أعماق نفسه كأنها تنفخ يقول له : لابد أن تتغير بلادنا ، ويتجدد لها من
المعارف ما ليس لها . وكان الشيخ العطار كلفا بعلم الجغرافيا وعلم التاريخ .
فطبع ذلك فى نفس تلميذه رفاعه . وحين طلب الى هذا التلميذ أن يكون اماما
لاول بعثة علمية إلى باريس ، وذلك فى ١٤ ابريل سنة ١٨٢٦ أوصاه أستاذه
بتسجيل كل ما تقع عليه عينه فى تلك المدينة ، وأطاع التلميذ نصيحة أستاذه
وطفق يسجل كل مشاهداته ، حتى تألف له منها الكتاب المعروف باسم

تخليص الابريز في تلخيص باريز . أود رحلة رفاة ، التي أشرنا إليها .
وصف الطهاوى في كتابه هذا المجامع العلمية الخمسة وهي : أكاديمية
اللغة الفرنسية . وأكاديمية العلوم الادبية ، وأكاديمية العلوم الطبيعية والهندسية
وأكاديمية الصنائع الطريفه ، وأكاديمية الفلسفه . كما وصف في كتابه دور
الكتب والمتاحف العامه ، ومعاهد العلم ، والمعالم الهامه بالمدينة بوجه عام الخ .
وكان الطهاوى في أثناء وجوده بباريس حريصا على ملازمة العلماء .
وكان أدناهم إلى نفسه وأعلقهم بقلبه رجلين ، هما مسيو شومار ، ومسيو
شواليه . فعول عليهما ، والانتفاع الكامل بهما ، وقرأ مع الأخير منهما
أكثر من ثلاثة وثلاثين كتابا في التاريخ ، والجغرافيا ، والهندسة ، والرياضة
والمنطق ، والفلسفه ، والاجتماع ، والأدب ، والقانون ، والفنون الحربية الخ .
وأكثر من هذا وذاك أن رأينا رفاة الطهاوى - وهو في باريس -
يشهد ثورة من ثورات فرنسا الهامة ، هي الثورة المعروفة في التاريخ الفرنسي
(بالايام الثلاثة المجيدة) . وفيها ثار الشعب الفرنسي على الملك (شارل العاشر)
ووزيره (بولنيك) . وكان هذان الرجلان ينزعان في فرنسا - مهد الثورة -
إلى الملك الاستبدادى ، ويهدفان من وراء ذلك إلى قتل بذور الثورة الفرنسية .
ولكن الشعب الفرنسي لم يمكنهما من ذلك ، بل أطاح بعرش الملك شارل
وأقام مكانه الملك لويس فيليب .

ولم يفت الطهاوى أن يصف هذه الثورة في كتابه هذا فجاء كتابا مملوا
بالمشاهدات العجيبة ، والفوائد الجلية ، والآراء الخطيرة : حتى د لننظر
نحن إلى هذا الكتاب على أنه من خير الكتب التي كان لها أثر كبير في
تكوين العقل المصرى الحديث . بما اشتمل عليه من أفكار لاعهد للمصريين
بها ، ومبادئ سياسية واجتماعية لا يعرفونها ، (١)

وعاد الطهاوى إلى بلاده ليقود بنفسه (جيش الثقافة) . وكان هذا
الجيش يتألف يومئذ من المترجمين ، والعلماء ، والأدباء ، ورجال الصحافة ، واشترك

الطباطبائي اشتراكا فعليا ورئيسيا في جريدتين رسميتين ؛ هما جريدة (الوقائع المصرية) ومجلة تدعى (روضة المدارس) . والاخيرة أشبه ما تكون بمجلة جامعية تعنى بنشر الفصول الادبية والعلمية ، يكتبها الصفوة المهدية من رجال العلوم والآداب ، وتألف من كل مجموعة منسقة من هذه الفصول كتب يختص بعضها بالطب ، وبعضها بالهندسة ، وبعضها بالطبيعة ، وبعضها بالتاريخ وبعضها بالعقائد ، وبعضها بالآثار وهكذا . ويطول بنا القول لو أردنا أن نصف جهد الطباطبائي في النواحي الثلاث : بوصفه أول رائد للنهضة الحديثة ، أول رائد للترجمة ، وأول رائد للصحافة .

.....

السيد عبد الله الشريم ١٨٤٣ - ١٨٩٣

هو ابن نجار أو خباز اسمه (صباح) قيل أن نسبه ينتهي إلى أديس الأكبر من أسباط الحسن بن علي بن أبي طالب رضى الله عنه . ولد بالاسكندرية وأتم حفظ القرآن في التاسعة من عمره . ثم ذهب به أبوه إلى جامع ابراهيم باشا حيث درس الفقه والأصول والمنطق . ولكنه الفقى لم يصبر طويلا على هذه الدراسة حتى خرج من الجامع إلى الشارع — أو إلى الحياة الواقعة التي كانت له بمثابة الجامعة الكبرى . تعلم فيها ، كثيرا ولاحظ فيها كثيرا ، ودرس فيها كثيرا ، وعرف فيها الناس والأشياء معرفة هيأته لأن تنبأ المكانة التي ادخرها له القدر ؛ وهي مكانة الصدارة في الصحافة والأدب

وحياة هذا الرجل أوسع من أن تختصر في صفحات ، لأنها حياة بنيت على المغامرات والمجازفات والمفاجآت ، وما زال الرجل في تقلباته ومغامراته حتى أصبح يوما فإذ به الناس في الاسكندرية - مسقط رأسه - لا يشتغلون بالأسفار والعبث الذي كانوا يشتغلون به قبل ذلك . بل أصبحوا يتحدثون يومئذ في أمور كثيرة ، هي أدنى إلى الجدل منها إلى اللهو . فهم يتحدثون في الشورى ، وصندوق الدين ، والمراقبة الشائنة ، والوزارة المختلطة ، ثم في الظلم ، وفي الجهل وفي الذل والاستعباد والتدخل الاجنبى ، والسيطرة الأوروبية الخ .

رأى النديم ذلك فترك اللهو والدعابة، وانغمس فيما انغمس فيه القوم من شؤون الجد والسياسة . وكان أول ما فعله من ذلك أن اشترك — وهو بالاسكندرية — مع أديب اسحق وسليم النقاش في صحيفة « المحروسة » ، و « العصر الجديد » ، اللتين صرحت بهما نظارة الداخلية للآخر

وأكثر من هذا وذلك أننا وجدنا النديم يشترك في جماعة سرية ، هي جماعة « مصر الفتاة » ، كان من أعضائها أديب اسحق وسليم النقاش . وكانت لها صحيفة باسمها يقوم بتحريرها أديب اسحق ومعه النديم .

وأصدرت هذه الجماعة السرية بياناً باسم « اتحاد الشبيبة المصرية » ، شكت فيه من فساد نظام القضاء ، ومن قصور التعليم العام . وطالب البيان بسن قانون ينظم العلاقة بين الحاكم والمحكوم ، وبالععمل على إيجاد ما يسمى بالمستوايه الوزارية ، وبعدم التعدى على الحريات الخاصة والعامة ، ومنها حرية الصحافة . كما طالب البيان بإنشاء مجالس نواب يكون كل أعضائه بالانتخاب . والظاهر أن عدداً كبيراً من جماعة مصر الفتاة انضموا بعد ذلك إلى الحزب الوطنى . وكان أعضاء هذا الحزب فى الأصل يكونون جماعة سرية أخرى ، قوامها (الفلاحون الضباط) ممن لهم علاقة بالأمر حليم ، وذلك حول سنة ١٨٧٩ وكان من بينهم أحمد عرابى ، وعبد العال ، وعلى فهمى (١)

والمهم أن النديم استطاع فيما بعد أن يخرج (مصر الفتاة) من السر إلى العلانية وأن يطلق على هذه الجمعية السرية اسم « الجمعية الخيرية الإسلامية » . وهى غير الجمعية الخيرية المعروفة الآن فى مصر بهذا الاسم . وأعلن النديم يومئذ أن الغرض من إنشاء هذه الجمعية إنما هو إنشاء مدرسة لتعليم الفقراء بالمجان . وأن من أغراضها كذلك بث الروح الوطنية فى البلاد .

وما زال النديم يعمل فى ميدان التعليم حتى تركه إلى ميدان الصحافة مرة أخرى فصدر مجلته « التنكيك والتبكيك » ، وهى المجلة التى تحولت فى أثناء

الثورة العراقية إلى « مجلة الطائف » .

ومنتبت الثورة العراقية بالفشل ، وفر النديم من مصر ، وظل محتفيا عنها إلى أن أتى الخديو عباس وأصدر العفو عنه . فعاد النديم إلى بلاده وأصدر صحيفته الثالثة « الاستاذ » . فكانت صورة جديدة من صحيفته الأولى « التنكيت والتبكيك » ،

عنى النديم فى صحيفته الأولى بالاصلاح الخلقى والاجتماعى ، وفى الثانية بالثورة العراقية . وعاد فى الثالثة إلى الاصلاح الاجتماعى . واهتم إلى جانب ذلك بالسياسة ومقاومة الاحتلال .

وكان النديم قبل أن يزج بنفسه فى مضمار الصحافة يكتب باللغة القديمة المعروفة . وهى لغة جل اعتمادها على السجع والحناس والطباق والاستعارة ، والتضمين والاقibas ومرعاة النطير ونحو ذلك . ثم منذ اشتغل بالصحافة عدل عن هذا الاسلوب ، وكتب بأسلوب آخر ؛ هو أدنى الى الحديث أو الخطابة . ولم يكتبف بذلك حتى أخذ يكتب باللغة العامية التى يتكلمها الناس فى المدن والقرى .

ونحن حين نراجع العدد الأول من أعداد مجلة « التنكيت والتبكيك » ، على سبيل المثال نرى الالوان الصحفية الآتية :

نرى مقالا بعنوان « مجلس طى على مصاب بالافرنجى » ، (١)

دخل به النديم فى صميم المسألة المصرية ، وهى مسألة الديون التى تكبدها اسماعيل . وعبر بلفظ « الافرنجى » ، - وهو اسم لمرض الزهرى - عن الخراب الذى حل بالمصريين بسبب الديون .

وكان هذا المقال موجها الى الخاصة من القراء ، ومكتوبا باللغة العربية التى تفهمها هذه الطبقة الممتازة من الناس .

ثم يرى القارىء فى هذا العدد حكاية صغيرة مكتوبة باللغة العامية عنوانها « عربى تفرنج » ، وأخرى مثلها عنوانها « سهرة الانطاع » ، وثالثة بعنوان « تحريفة الجنون فنون » ، ورابعة بعنوان « محتاج جاهل فى يد محتال طامع » . وكل هذه الحكايات موجهة الى العامة . والقصد منها هو تنبيه الاذهان

إلى تلك العيوب التي تفشت في الريف المصرى بسبب انتشار الجهل بين أهله .

والمقال أو الحكاية في جريدة النديم هذه تنقسم قسمين: قسم « للتبكيك » بمعنى السخرية من هذه العيوب، وقسم « التبكيك » بمعنى التوبيخ الذى توجه به النديم إلى المصريين الذين يوصفون بهذه العيوب .

ولن نتسع هذه المحاضرة لا يرد النماذج الكاملة من صحافة النديم بنوعها الفصيح والعامى ، أو الجاء والهازل فليرجع إليها من أراد (١) .

ولا تستطيع أن تترك هذا المجال دون أن نشير هنا إلى فكرتين هامتين كان لهما تأثير هام في البيئة الأدبية والصحافية أما أولاهما فكرة :

الجامعة الإسلامية

وهى لفظ أطلقه الأوربيون فى صحنهم ومؤلفاتهم على نهضة المسلمين فى مشارق الارض ومغاربها قصد إعادة المجد القديم للدول الإسلامية من جهة ، والتخلص من الاستعمار الأوربى فى ذاته من جهة ثانية .

والحقيقة أن فكرة التكتل الإسلامى كانت بعيدة عن أذهان المسلمين عامة والمصريين منهم خاصة ، ولم يكونوا مؤمنين بتحقيقها ، ولا أنسوا من أنفسهم القدرة على تحقيقها . ومع هذا فقد وجدنا الانجليز من دون الأوربيين جميعاً يظهرون تخوفهم على لسان كرومر من هذا التكتل الذى صرحت الصحف المصرية مراراً - باستحالته ، وبأن الحروب الصليبية - كما قال السيد على يوسف فى المؤيد - قد انتهت الى الأبد .

و فالجامعة الإسلامية إذن ليست فى الواقع الا شعوراعاءا لدى المسلمين جميعاً بالظلم ، وشكايات متكررة من وقع هذا الظلم ، ورغبة عامه فى النهوض

(١) سلامة النديم بحزأيه . وأدب المقالة الصحفية فى مصر ج ٢ ص ١٤١ - ١٦١ و

بالامم الاسلاميه للتخلص من آثار الظلم إلى الأبد (١)

ولذا فكر المسلمون حقيقة في أن تكون لهم رابطة روحية تربط بينهم ، وأن يكون لهذه الرابطة الاسلاميه قيادة عامه تقودهم . ومن أولى يومئذ من الدولة العلية بهذه القيادة العليا ؟

ولكن الدولة العلية في ذاتها علة العلل في نظر الأوروبيين ، وحائل كبير دون الاغراض الاستعمارية التي لهم في الأمم الشرقية . ومن هنا جاءت عداوة الدول القوية للدولة العلية . وكان من سوء الحظ أن هذه الدولة أصبحت من الضعف بحيث أطمعت فيها جميع الدول الأوروبية . ومن هنا ظهر في الافق السيامي ما يسمى « بالمسألة الشرقية » ، وأصبحت هذه المسألة جزءا من فكرة الجامعة الاسلامية .

وكتب الزعيم الشاب مصطفى كامل كتابا في هذه المسألة ، وشرحها من وجهة نظره شرحا وافيا ثم قال .

« فواجب المسلمين أن يلتفتوا جميعاً حول راية الخلافة الاسلاميه المقدسة ، وأن يعززوها بالأموال والأرواح . ففي حفظها حفظ كرامتهم وشرعهم . وفي بقاء مجدها رفعتهم ورفعة العقيدة الاسلامية ذاتها ، (٢)

ذلك أذن هو السر في أن مصر بقيت طيلة القرن التاسع عشر عثمانية النزعة بهذا المعنى . وبهذه النزعة تأثر الأدب المصري والصحافة المصرية . فقد آمن بها الشعراء المصريون من لدن أبي النصر ، وعبدالله فكري ، إلى اسماعيل صبري وخافظ ابراهيم واحمد نسيم واحمد شوقي . كما آمن بها الكتاب من لدن أديب اسحق وعبد الله النديم ومحمد عبده ، إلى السيد توفيق البكري والسيد علي يوسف ومصطفى كامل وجورجي زيدان . وفي هذا المعنى نفسه كتبت صحف مصر والتجارة والمحروسة والعصر الجديد والاستاذ ومصباح الشرق والمؤيد واللواء والاهرام .

أما في غير مصر من الاقطار العربية فقد آمن بهذه الفكرة كثيرون ومنهم

(١) أدب المقالة الصحفية في مصر ج ٥ ص ٣٠

(٢) كتاب (المسألة الشرقية) لمصطفى كامل ص ٣٠

فرح أنطون في مجلة الجـامعة العثمانية ، وفارس الشدياق والشيخ ناصيف اليازجي وعبد الحميد الرافعي في جرائد أخرى .

القومية المصرية

بقيت الفكرة السابقة مهيمنة على العالم الاسلامي عامه ، ومصر خاصة حتى ظهرت في الميدان فكرة اخرى دعت اليها ضرورات سياسية قصوى . وهذه الفكرة الاخيرة هي فكرة (القومية المصرية) . وكان من اعظم القائمين بها ، وأخطر الداعين لها « احمد لطفي السيد » محرر « الجريدة » ، « فكر الاستاذ لطفي السيد طويلا في أوضاع مصر السياسية وخرج من تفكيره هذا بعقيدة جديدة تخالف عقيدة الزعيم الشاب مصطفى كامل . وخلاصتها : أن علينا نحن المصريين أن نترك فرنسا وانجلترا والدولة العلية ، وعلينا أن نعتمد على أنفسنا فقط في الحصول على حقنا في الدستور ، وحقنا في الحرية ... لا بد لنا من ذلك ومن عزه تراباً بنا أن نطلب من غيرنا أن يأتي ليحرر نفوسنا من الرق ، وقلوبنا من عبادة القوى . كأننا كما ظنوا خطأ بنا — نبتغي أن يأتينا الاستقلال ونحن نيام ،

وسرت هذه الفكرة في نفوس المصريين ، واقتنع بها الكثيرون منهم . وتجاوز تأثيرها الميدان السياسي الى الميدان الفكري والادبي والاجتماعي . فندد ذلك الحين طفق كثيرون من المصريين يعتزون « بمصريتهم » . وغالى بعضهم في ذلك إلى درجة الفخر « بفروعيتهم » الى جانب الفخر « بعروبتهم » . وشجعهم على ذلك ما كشف عنه التاريخ المصري القديم من حضارة قدماء المصريين في وقت كانت فيه مصر القديمة محط انظار العالم المتقدم .

وفي الأدب بنوع خاص سئى كيف كان الشعراء والكتاب يدعون إلى هذه الفكرة ، ويكتبون أحياناً بلغة ، مصريتها أكثر من عربيها . كما كان الحال عند لطفي السيد و محمد حسين هيكل وغيرهما .

٤

القصة المصرية في ظل الصحافة

لعلكم تعرفون أن اتصال المصريين والشرقيين بالقصة — معناها — الصحيح — كان عن طريق الصحافة . و الثابت في تاريخ الصحافة أن القصة التي اتصل بها الشرق العربي كانت في أول أمرها مترجمة لا مؤلفة . وأما القصة المؤلفة فقد تأخرت عن أختها في الظهور . وحين ظهرت هذه إلى الوجود لم تأخذ مكان القصة المترجمة في الصحف . فبقيتا معا تشغلان حيزا لا يستهان به في أكثرها .

فهذا هو (عبد الله أبو السعود) صاحب جريدة (وادي النيل) يقوم بترجمة المسرحية المشهورة باسم (عايدة) وذلك في عام ١٨٦١ وهو يومئذ أستاذ للتاريخ بدار العلوم . والأصل في هذه المسرحية أنها إيطالية . ثم ترجمت إلى الفرنسية . وعلى يد أبي السعود نقلت إلى اللغة العربية (١) ثم هذا هو ابنه (محمد أنسي) صاحب (روضة الأخبار) يعنى عناية خاصة بالقصة المترجمة عن الفرنسية . ولعل أول قصة قدمها إلى قرائه يومئذ هي القصة التي كتبها الأديب الفرنسي المعروف باسم (لوساج) Le Sage . وعنوانها (جول بلاز) Jules Bläs ^{الزلي} وهو اسم لبطل من أبطال هذه القصة (٢) ثم هذا هو (محمد عثمان جلال) صاحب (نزهة الأفكار) يقوم بترجمة القصة المشهورة في الأدب الفرنسي باسم (بول وفرجينى) . غير أنه عبث عبثا كبيرا بهذا العنوان ، وجهله هكذا (الأمانى والمنه في حديث قبول ووردجنة) .

ثم هذا هو أديب اسحق صاحب جريدة (مصر) وجريدة (التجاره) يترجم إلى العربية رواية (أندروماك) ورواية (شارلمان) وروايات أخرى .

(١) المسرحية في شعر لحامد شوكت ص ٢٠

(٢) أدب المغالاة الصحفية في مصر ج ١ ص ٢٠١

ومنذ ذلك الحين أصبح للقصص المترجمة جزء معلوم في كل جريدة من الجرائد المصرية . وما زالت هذه السلسلة متبعة في بعض الصحف الى عهد قريب ، واثن كان هذا صحيحا بالقياس إلى الصحافة المصرية ، فإنه اكبر صحة وأصدق قبلا بالقياس الى الصحافة اللبنانية (ولا غرابة في هذا فان لبنان لم يحدث بها من الحوادث التي شغلت العقول والاذهان مثلما حدث في مصر) . وصدق من قال أن الرواية نشأت في انجلترا على هذا المقعد المريح إلى جانب اليوم حيث يقضى الرجل والمرأة وأولادهما ومن يتصل بهما جزءا طويلا من يومهم لا يجد كل منهم ما يتسلى به غير قراءة القصة القصيرة أو الطويلة .

وإن الباحث ليعجب لهذا السيل الجارف من المجلات والصحف اللبنانية التي عنيت بالقصص المترجمة من اللغات الأوروبية الى العربية وتستطيع ان تحصى من هذه المجلات عددا لا يقل من اثنتي عشرة مجلة . منها على سبيل المثال : —

(حديقة الأخبار) لخليل الخوري (بيروت ١٨٥٨)

و (البشير) للآباء اليسوعيين (بيروت ١٨٧٠)

و (النخلة) للويس صابونجي (بيروت ١٨٧٠)

و (لسان الحال) لخليل سركيس (بيروت ١٨٧٧)

و (جريدة لبنان) لابراهيم الأسود (بيروت ١٨٩١)

وهذا كله عدا الأهرام . مصر ١٨٧٦ وغيرها كثير (١)

و ثم مجلات ودوريات زادت عنايتها بالقصة الى أبعد من هذا الحد الذي بلغته الصحف السابقة . ومنها على سبيل المثال :

(مجلة الجنان لبطرس البستاني و (المقتطف) ليعقوب صروف ،

و (اللطائف) لشاهين مكاريوس ، و (الهلال) لجورجي زيدان (والمشرق)

للآباء اليسوعيين الخ

ثم لم يقف الأمر بالصحف اللبنانية عند هذا الحد ، حتى ظهرت مجلات

وقفت نفسها على القصة وحدها من دون الفنون الأدبية أو الصحفية الأخرى . ولم تشغل نفسها بشيء غير ذلك . وعدد هذا النوع الأخير من المجلات يربو على خمس عشرة مجلة . منها على سبيل المثال :

- (ديوان الفكاهة) لسليم شحاذه وسليم طراد (بيروت ١٨٨٥)
 - (والنفائس) لأنيس عيد الخورى (بيروت ١٩١٠)
 - (ومنتخبات الروايات) لاسكندر كركور (القاهرة ١٨٩٤)
 - (وسلسلة الروايات) لمحمد خضر وبشير الحلبي (القاهرة ١٨٩٩)
 - (والروايات الشهرية) ليعقوب الجمال (القاهرة ١٩٠٢)
 - (ومسامرات النديم) لابراهيم رمزي وعزت حلمي (القاهرة ١٩٠٣)
 - (ومسامرات الشعب) لخليل صادق (القاهرة ١٩٠٥)
 - (والفكاهات المصرية) لعبد الله غزالة الحلبي (القاهرة ١٩٠٨)
 - (والراوى) لطانيوس عبده (بيروت ١٩٠٩)
 - (والروايات الجديدة) لنقولا رزق الله (القاهرة ١٩١٠)
 - (والسمر) لقيصر الشميل (الاسكندرية ١٩١١)
 - (والروايات الكبرى) لمراد الحسيني (القاهرة ١٩١٤) الخ
- هكذا ساعدت الصحافة اللبنانية على نشر القصة بين قراء العربية . (١)
- وهذا كله بالقياس الى القصص المترجمة

* * *

أما القصص غير المترجمة فان نظرة واحدة ترينا أنها قد اتجهت منذ أول الأول اتجاها اجتماعيا خالصا . فما الذى وجه القصص المصريين واللبنانيين هذا الاتجاه ؟ وما الدور الذى لعبته الصحافة المصرية — بنوع خاص — فى توجيه الكتاب الشرقيين نحو هذا الاتجاه ؟ .

(١) المصدر المتقدم ص ٦٩ — ومن أراد أن يعرف القصص التى نشرت ترجماتها بالصحف المذكورة فيرجع إلى المصدر المذكور ص ٧٠ — ٨٨

وبعبارة أخرى - هل كانت القصة الاجتماعية في مصر - على وجه
أخص - حدثا أدبيا أو صحفيا مفاجئا ؟ أو كانت هذه القصة الاجتماعية
امرا له مقدمات حتمت على القصة المصرية أن تكون ذات صبغة
اجتماعية في أول الأمر .

هذه أسئلة نريد الاجابة عنها في هذا الفصل . ولعلنا أن نصل من هذه
الاجابة الى القول بهذه النتيجة الهامة ، وهي أن القصة العربية في أدبنا الحديث
إنما نشأت أولا في أحضان الصحافة . ثم مضى عليها وقت غير قصير حتى
شبت هذه القصة نفسها عن الطوق ، وظهرت مستقلة عن الصحافة

* * *

منذ ظهرت الجرائد الشجبية في مصر وهي منبر عام لرجال الإصلاح
من أمثال محمد عبده وعبد الله النديم والمويلحي الكبير والمويلحي الصغير ،
والسيد علي يوسف ولطف السيد ، ومصطفى كامل ومن إليهم . وقد سعى كل
واحد من هؤلاء أن يضع يده على الداء ، أو على طائفة الأدواء التي كان يشكو
منها المجتمع المصري إذذاك ، حتى أصبح « الإصلاح » حديث العام والخاص .
بل أصبح « الإصلاح » ، مادة من أهم مواد الصحيفة التي ترقو لنفسها البقاء .
عاب المصلحون على مواطنيهم في الصحف المصرية أمورا شتى : منها
تهاافتهم على محاكاة الاوروبيين فيما لا يتفق والعادات الشرقية والتقاليد
الدينية . ومنها ميلهم الى تصديق البدع والخرافات بما أتلف دينهم ، وران
على قلوبهم ، وجعل على أبصارهم غشاوة .

ومنها سكوت بعضهم عن التدخل الأجنبي الذي استفحل شره في
بلادهم ، وكاد يفقدهم قزميتهم وشخصيتهم ، كما أفقدهم حريتهم واستقلالهم ،
ومنها البؤس الاقتصادي الذي قسم البلاد قسمين أو طبقتين متباعدتين :
طبقة الفقراء الذين لا حظ لهم من مال أو ثروة ، وطبقة الأغنياء الذين لهم
كل المال والثروة . ومنها الجهل الذي حرم سواد الامة العلم ، وكان من أيسر
مظاهره أن بقيت المرأة المصرية حبيسة دارها ، مقهورة على أمرها ،

لا تعرف من شأن الحياة الاجتماعية خارج الدار أكثر مما يعرفه الصبي
عاب المصلحون على المصريين كل ذلك . وعابوا عليهم أكثر من ذلك .
وصوروا لهم الحكومه المصريه عاجزة كل العجز عن إصلاح القضاء ،
والتعليم ، والأمن ، والصحة . كما صوروا لهم حالة الموظف المصرى وقد
استبد بقلبه اليأس ، وغلب عليه الشعور بالذل ، ومد يده الى الرشوة لصغر
راتبه الشهري ، وبني حياته على (المحسوبية) لأنها الطريق الوحيد الى الترقى !
وجاءت كتابات النديم ، ومحمد عبده ، وبشارة تقلا ، وعلى يوسف ،
ومصطفى كامل ، ولطفى السيد وغيرهم مشخصة هذا الداء القاتل ، منادية بطلب
الإصلاح العاجل ، مرغبة جميع المصريين فى الأخذ بأسباب التقدم الصحيح
حتى لا تبقى مصر متخلفه عن الدول الأخرى !

ثم إن الكتاب الكبار ممن أشرنا إليهم أفادوا من نقداً الأجانب للمصريين
فى كتبهم التى كتبوها عن مصر ، كما أفادوا من تقارير الوكالة البريطانية التى
اعتادت أن تكتبها عن المصريين كل سنة . ونظر الصحفيون إلى هذه الأقوال
والتقارير نظرة عاقل حكيم على أنها مرآة لأخلاقنا ، وجمتمعنا ، وعقولنا .
وكثيرا ما تعرف الشعوب نقائصها على يد أعدائها ، كما قال ذلك صاحب
الأهرام فى مقال له . (١)

وعلى هذا فإذا كنا نبحث عن المقدمات الأدبية والتاريخية لظهور القصة
المصرية بهذه الصبغة الاجتماعية فلا مفر لنا من القول بأن :

(أولى المقدمات) هى ظهور الصحافة المصرية . فقد كانت هذه الصحافة فى ذاتها
نشطا فكريا سبق القصة المصرية . وهذا هو السبب فى أن القصص المصرى
اتجه فى أول أمره اتجاها اجتماعيا - كما قلنا . ولعل أول دليل يمكن أن نسوقه
على ذلك هو ظهور القصة المعروفة فى الأدب المصرى . بحديث عيسى بن
هشام ، للهويلى . وهى قصة بالمعنى الصحيح الذى انفق عليه النقاد
ومن أجل هذا سنتحدث طويلا عنها - ولكن بعد الفراغ من الحديث عن

المقدمات التي سبقتها .

(والثانية من هذه المقدمات) هي جهود الكتاب الأدباء من غير المنقطعين للصحافة ، رغبة منهم في أشعار المصريين بتلك العيوب ، وبثا لروح الاستياء والكراهية لها ، وخلقاً الرغبة الصادقة في التخاص منها في أقرب وقت مستطاع .

ومن هؤلاء الكتاب الأدباء على سبيل المثال : محمد فريد وجدى . وذلك في كتابه « تطبيق الديانة الإسلامية على النوااميس المدنية » . وهو الكتاب الذى أعيد طبعه فيما بعد بعنوان « المدنية الإسلامية » . وفيه يتحدث الكتاب عن فكرة الاوربيين عن الاسلام ، وقيم الدليل على خطأ هذه الفكرة ، لأنهم بنوها على علمهم بالبدع والخرافات التي حمات حملاً على الاسلام ، وجهلهم بالاسلام نفسه على حقيقته .

وهكذا جاء هذا الجهد من جانب الأدباء غير الصحفيين في سبيل الدفاع عن الدين مؤيداً للجهد الذى بذله الصحفيون في سبيل هذه الغاية أيضاً . ثم ومن الكتاب الأدباء « قاسم أمين » وقد لفت اليه انظار المصريين بكتاب له عنوانه (المصريون) رد فيه على (دوق داركور) الذى تعرض لذم الدين الاسلامى .

ثم عاد قاسم أمين فلفت اليه انظار المصريين بكتابه العظيم الذى دافع فيه عن المرأة المصرية ، وعنوانه « تحرير المرأة » . وأحدث الكتاب ضجة كبيرة في مصر ، وانتقم المصريون بسببه شيعاً في ذلك الوقت .

(وأما ثالثة المقدمات) التي مهدت لظهور القصة الاجتماعية فهي ظهور طبقة المترجمين إلى جانب الأدباء والصحفيين ومن هؤلاء على سبيل التمثيل (أحمد فتحي زغلول) - وقد ترجم كتاباً مشهوراً للكاتب الفرنسى (ادمون ديمولاند) بعنوان : « بهم تقوم أفضلية الانجليز السكسونيين » ، ترجمه فتحي زغلول عام ١٨٩٩ أعنى في نفس السنة التي نشر فيها كتاب قاسم أمين ونشر فتحي زغلول ترجمته فصولاً وعلى هيئة مقالات جاءت تبعاً في صحيفة المؤيد ، وذلك على نحو ما نشر

قاسم أمين كتابه (تحرير المرأة) .

ونظر المصريون إلى الكتاب الذى ترجمه فتحى زغلول على أنه يمسههم ، ويصور حالهم ، ويصف دأهم . وقد جعل المترجم عنوان الكتاب الذى ترجمه هكذا « سر تقدم الانجليز السكسونيين » . وكتب فتحى زغلول لهذه الترجمة مقدمة كانت أشهر من الكتاب نفسه ، واعظم منه تأثيرا فى نفوس المصريين خاصة . جاء فيها قوله :

« نحن ضعاف أمام الغرب : ضعاف فى الزراعة ، ضعاف فى الصناعة ، ضعاف فى التجاره ، ضعاف فى العلم ، ضعاف فى العزيمة ، ضعاف فى الآله والمودة ، ضعاف فى النخوة والشعور الملى (يريد الدينى) ، ضعاف فى الجامعة القومية ، ضعاف فى الخيرات ، ضعاف فى طلب الحقوق وأداء الواجبات ، ضعاف فى حفظ ما نرك الآباء ، ضعاف فى التحصيل ، ضعاف حتى أصبحنا نرجو كل شىء من الحكومة ، الخ
ثم ختم كلامه بقوله :

ودواؤنا فى التربية ، وسلامتنا فى نشر العلوم والمعارف .
وهكذا كانت الترجمة طريقا من الطرق المؤدية إلى ظهور القصة التى تعنى عناية خاصة بالمجتمع .

(ورابعة المقدمات) التى أدت الى ظهور القصة الاجتماعية هى التقارير التى صدرت عن الوكالة البريطانية . ونخص بالذكر منها تقارير اللورد كرومر - ذلك الرجل الذى عاش فى مصر وحكمها حكما فعليا زهاء خمس وعشرين سنة استطاع فى أثناءها أن يدرس المجتمع المصرى من جميع الوجوه ، وإن يضع يده على الدمل الذى يشكو منه المصريون على اختلافهم - وهذا الدمل هو الجهل . وعلى الرغم مما اشتملت عليه هذه التقارير من التهم البعيدة عن العدل ، والمنافية للحق ، وعلى الرغم من التعصب السياسى والتعصب الدينى الذى بدا من جانب اللورد فى كل وقت ، فإن هذه التقارير حركت همم المصريين ، وحفزتهم الى العمل

على دحض هذه التهم بطريق الكتب حيناً — كما يفعل الأدباء المؤلفون ، أو طريق المقالات الصحفية أحياناً — كما فعل كتاب الصحف .

* * *

تلك إذن هي المقدمات الأربع التي سبقت ظهور القصة المصرية ، ورسمت لها الطريق الذي سارت فيه ، والصبغة التي اصطبغت بها ، وهي الصبغة الاجتماعية .

وتريد قبل أن تعرض (لحديث عيسى بن هشام) للمويلحي — وهي أولى القصص المصرية الاجتماعية — أن نسوق دليلاً على اتجاه التأليف في مصر في ذلك الوقت ناحية العناية بالمجتمع . وهذا الدليل الجديد هو كتاب لفت انظارنا اليه المستشرق الفرنسي (هنري بيريس)^(١) وعنوان الكتاب هو « حاضر المصريين وسر تأخرهم » . ألفه أديب مصري يقال له « محمد عمر » . وظاهر من عنوان كتابه هذا أنه مطابق كل المطابقة لعنوان الكتاب الذي أشرنا اليه من قبل ، وهو « سر تقدم الانجليز السكسونيين » وذلك الكتاب الذي ترجمه احمد فتحي زغلول — كما قلنا . والذي لاشك فيه أن (محمد عمر) قرأ الكتاب الأخير قراءة جيدة ، وأنه كان يفكر فيه تفكيراً جيداً ، وذلك عندما شرع يؤلف كتابه هذا .

وقد ظهر كتاب « حاضر المصريين وسر تأخرهم » عام ١٩٠٢ في نحو ثلاثمائة صفحة ، صور فيها الكاتب وجوه الضعف الذي يشكو منه المجتمع المصري . والعجيب أن الذي كتب مقدمة الكتاب هو ذلك الأديب المشهور والعالم القانوني الكبير احمد فتحي زغلول .

والقارئ للكتاب الذي ألفه محمد عمر يرى أنه عمد فيه إلى تقسيم المجتمع المصري إلى طبقات ثلاث : الطبقة الغنية ، والطبقة المتوسطة ، والطبقة الفقيرة وذهب إلى أن لكل واحدة منها عيوباً تختص بها . ووفق يذكر ما يراه علاجاً حاسماً لكل عيب منها على حدة .

(١) مقال كتبه المستشرق هنري بيريس بالمجلد الحادى عشر من مجلة المكشوف العدد

ولقد جاء الجهد الذى بذله أمثال الأديب المصرى (محمد عمر) فى سبيل
الاصلاح الاجتماعى مؤيدا للجهد الذى بذلته الصحف فى هذا المضمار .
وانضرب على هذا مثلا واحدا ، هو موضوع (القمار) الذى فشا فى المصريين
إلى درجة أذرتهم بالخطر الحقيقى .

أما محمد عمر وأمثاله من المؤلفين الأدباء فقد ألفوا فى ذلك الكتب
وزودوها باحصاءات دقيقة لدور اللعب والقمار بالمدن الكبيرة ، حتى إنه
فى القاهرة وحدها زاد عدد هذه الدور فى ثمان سنوات فقط إلى ٧٤٧٥ داراً
للعب ، وكانت قبل ذلك ٣١٦ داراً فقط . أى أن الزيادة بلغت ٥١٦٩
داراً بالقاهرة ، (١)

وأما جريدة المؤيد فقد أزعمتها هذه الظاهرة فانبرت لمحاربة هذه العادة
السيئة ، ونظم السيد على يوسف ضدها حملة موفقة أشرك فيها أكبر عدد
ممكن من الشعب المصرى بطريقة صحفية ناجحة (٢)

إحصاءات

(١) نفس المصدر المتقدم

(٢) وتفصيل ذلك أن جريدة المؤيد عمدت الى طبع خطاب خاص بالجريدة يمكن للقارى أن
يترعه منها ويلاء البيانات المكتوبة بهذا الخطاب وتوقع عليه باسمه ، ويبحث به الى جريدة المؤيد
أو الى نظارة الداخلية . ومضت المؤيد تنشر هذا الخطاب أياما عدة . وتوات الردود عليها
وعلى نظارة الداخلية ، وكثرت الأصوات المطالبة بإغلاق دور القمار فاضطرت الحكومة
الى السعي حثيثا فى ذلك .

٥

طلائع القمص المصري الحديث وصلته بالصحافة

تحدثنا اليكم فيما مضى عن المقدمات الادبية لظهور القصة المصرية .
وانتهينا من هذا الحديث الى أن القصة المصرية بتأثير الصحافة الوطنية لم
يكن بد لها من أن تصطبغ بالصبغة الاجتماعية . واليكم أمثلة ثلاثة على ذلك .

الاول (حديث عيسى بن هشام) لمحمد المويلحي : والثاني قصة (زينب)
لمحمد حسين هيكل . والثالث كتاب (ليالي سطوح) للشاعر الاجتماعي
الكبير حافظ ابراهيم .

حديث عيسى بن هشام

في ذلك الجو المشبع بروح الاصلاح ، وفي تلك الغمرة التي عمت الكتاب
والادباء ، والصحفيين من دعاة هذا الاصلاح ظهر في الميدان أديب متميز
هو « ابراهيم المويلحي » . وطلع على الناس بجريده المعروفة (مصباح الشرق)
ومعه ابنه (محمد) المعروف (بالمويلحي الصغير) يعاونونه في التحرير ، ويكتب
بين آن وآخر فصولا من روايته المشهورة (حديث عيسى بن هشام) ، أو
(فترة من الزمن) .

وسننظر في هذه القصة التي كتبها محمد المويلحي لنعرف كيف عاجلت
هذه القصة مشكلات المجتمع المصري الحديث ، ونفهم الطريقة التي سلكها
المؤلف في سبيل غايته هذه . وإلى أي حد وفق فيها ؟

في حديث عيسى بن هشام بطلان رئيسيان هما الباشا وعيسى بن
هشام الذي هو الكاتب نفسه . وتعتبر الصفحات الاربع الأولى من
الكتاب مدخلا لهذه القصة : وأما اللغة التي كتبت بها هذه الصفحات
فهي صدى للذوق الأدبي الامم لتلك الفترة التي ظهرت فيها القصة . ومن

ثم كتبها الموياجي بأسلوب عال. زانتة الأشعار والاستعارات ، والاسجاع والمقابلات ، وغير ذلك من ألوان الزينة اللفظية والمعنوية . ولكن اندع الاسلوب الذى كتبت به القصه جانبا لنوجز على عجل أهم حوادثها : رأى عيسى بن هشام فى المنام كأنه يتنزه فى ليلة مقمرة عند مقبرة الامام الشافعى . وفيما هو يتنقل بين القبور ، ويتأمل فى هذا المصير ، ويسبح بخياله فى تلك الآفاق التى سبج فيها الشعراء والفلاسفة السابقون من مخروا من الانسان . وضحكوا من اغتراره بالحياة الدنيا اذا بقبر من تلك القبور ينفث أمامه فجأة ويخرج منه ميت فى أكفانه .

وتدور محاوره بين الحى والميت ، ويعرف عيسى بن هشام إذاك أن الميت الذى يحدثه إنما هو أحد الباشوات ، الذين عاشوا فى أيام محمد على ، وأن وفاته كانت حوالى سنة ١٨٥٠ ميلادية وما هو الا قليل حتى يصبح الرجالان وكأنهما صديقان منذ أمد بعيد . ويخرجان معا من مقبرة الامام الشافعى ، ويسيران فى طريقهما الى مدينة القاهرة ، وقد استبدل الباشا بأكفانه معطف عيسى بن هشام نفسه .

ولكن الباشا لا يكاد يمشى بضع خطوات فى هذه الدنيا الجديدة حتى يصطدم بأحد المكارين . ويكبر على نفس الباشا أن يرد عليه المكارى ، فينهال عليه ضربا ولما . ويصرخ المكارى ، ويخف اليه رجل من رجال الشرطة كان على مقربة من مكان الحادث ، يشتغل بملء ساعته بأنواع الفاكهة والمأكولات ، يأخذها من الباعة بدون مقابل . ثم يقبض الجمدى على الباشا وصاحبه وعلى المكارى ويقودهم جميعا الى (نقطة البوليس) .

وهنا يغتنم الكاتب هذه الفرصة ليصف لنا هذا المكان من أمكنة الحكومة ، ويشير الى قذارته ، والى الموظفين الذين فيه بملابسهم الرسمية المعروفة ، وطريقتهم فى تسجيل المحاضر ، وضرب المجرمين الذين ينكرون آلتهم المنسوبة اليهم . ثم يصف لنا المفتشين الذين يلزمون بهذا المكان بين حين وحين ، لا لشيء الا ليتصفحوا السجلات على عجل ، ويكتبوا التقارير الشكلية

على عجل ، ثم ينصرفون وكأنهم مدعون الى عمل آخر غير هذا العمل الذي ترزقهم عليه الحكومة .

أما الباشا فانه في حيرة شديدة من أمره لهذا الالهانة التي لحقت شرفه ، أو لهذا القدر الذي سخر منه وجعله يقف ومكاريبا ساقطا كهذا المكاري أمام رجل من رجال الشرطه ، وأخذ يقول في نفسه لابد أن يكون الداوري الأعظم - يريد محمد علي - قد غضب على غضبا شديدا ، وأمر باهاتى على هذه الصورة الشنيعة ،

وتتحول القضية الى النيابة ويقف الباشا بين يدي المدعى العام . ولشد ما يملكه العجب كمذاك إذ يرى هذا المدعى العام شابا من أبناء الفلاحين درس الحقوق ، ونال شهادة تخول له مزاولة وظيفته . وهذه الشهادة لم تكلف هذا الشاب أكثر من ألف وخمسمائة فرنك . فيسأل الباشا : وما الفرق ؟ فانه لا يعرف غير القرش التركي . وفي هذه الأثناء يدخل لمقابلة المدعى العام رجلان من أصدقائه ، فيعلم الباشا من الحديث الذي جرى بينهما - وكان قد سمع أكثره من وراء الباب - أن الأصدقاء الثلاثة قضوا ليلتهم في بيت من بيوت اللهو والمقامرة ، وأنهم خسروا فيه مبالغ طائلة ، وأن مرتباتهم في آخر الشهر لن تكفي لسداد الديون . وبالرغم من هذا كله لا يستعجى المدعى العام أن يقول لصاحبيه وقتئذ إنه دعا في هذا المساء الآنسة فلانة الممثلة بدار الاوبرا ، وفلاما وفلاما من الممثلين بها لتناول طعام العشاء في أحد المطاعم بميدان الازبكية . وقال انه ينوى بعد العشاء أن يدعو ضيوفه إلى غشيان هذا الملهى الذي سهر فيه الليلة الماضية . وادهى من كل ذلك أن المدعى العام يعترف بأن المال اللازم للانفاق على العشاء وعلى السهرة سيأخذه من رفقين له : أما أحدهما فيشتغل بالحماماه . وأما الثانى فعمدة من أولئك العمدة الذين تهافتون على رجل مرموق المكانة على المنزلة كالمدعى العام !

ثم يشير الكاتب الى الطريقة التي تجرى عليها المحاكمات ، والاسلوب الذي يجرى عليه الدفاع . ويصل من ذلك الى الحكم على الباشا بالسجن ثمانية عشر شهرا ، ثم الى استئناف الباشا لهذا الحكم . ثم الى الحكم له بالبراءة في نهاية الأمر .

وتتلاحق فصول الرواية ، وكلها تصف اعمال محمد على الذى يضم له الباشا كل اعجاب وولاء ثم تصف المحامين العامين ، والامور المحزنة التى تتردى فيها العدالة فى المحاكم .

ثم يحدث بعد هذا كله أن يقع الباشا مريضا ، فيغتنم المؤلف هذه الفرصة أيضا ليصف لنا الأطباء ، ودور الاستشفاء . وإذ ذاك تروج شائعة فى البلد بوقوع اصابات بداء الطاعون ، فيتحدث عيسى بن هشام عن هذا الوباء حديث الواثق بطرق التغلب عليه ، والتخاض منه قبل أن تكون له ضحايا من أبناء الوطن . وليكن الباشا — وقد شهد بنفسه الطاعون الذى أصاب المصريين بين سنتى ١٧٩٠ و ١٧٩١ يتحدث عن الطاعون كأنه مرض من تلك الأمراض التى يأتى بها الجن والشياطين ، وأنه لا قبل للأهالى ولا للحكومة بمكافحته ! وهنا ينتهز عيسى بن هشام الفرصة لشرح لصديقه النظريات الحديثة فى الطب والاجهزة الحديثة فى العلم ، ومنها (المجهر) . ويظل الباشا على شك من ذلك حتى يرى بعينه دنيا الجراثيم من خلال المجهر ، فيتعجب العجب كله ! .

ويشفى الباشا من المرض ، ويعود الى القاهرة ، وليكن لا يكاد يدخلها حتى بفاجأ فى هذه المرة بانتشار مرض الكوليرا . فيعزل الناس فى دار قريبة من العاصمة حتى يزول خطر الكوليرا . ثم يخرج من داره ويختلف الى كثير ممن عرف من المصريين على اختلاف طبقاتهم ووظائفهم : ويشترك فى كثير من أحاديثهم المارغة ، ومشاغفهم الهينة . ثم يسوقه الحظ الى حضور ليلة عرس . وهنا يقف المؤلف ليصف هذا العرس فى أكثر من عشرين صفحة . ومن أهم ما حدث فى تلك الليلة أن جماعة من الاوروبيين دعوا الى حضور هذه الحفلة ، فدخلوا الدار ، وبأيدى نساءهم فى تلك اللحظة آلات التصوير الشمسى التى ظنها الباشا هدايا يحملها الى العروس . ووقف المؤلف كثيرا عند وصف الوليمة ، وعند ذكر الشراب والغناء وتقليد المصريين : للاجانب فى كثير من العادات التى تنافى التقاليد الشرقية والديانة الاسلامية . ومن تلك العادات معاقرة النساء للخمر ، وشربهن أوراق التبغ

وظهورهن في تلك الليلة سافرات يرشقن الرجال بنظراتهن الحادة ، ويأسرنهم بضحكتهن العالية . واذ ذاك تقع المصادمات الكثيرة بين الرجال من أثر الفتنة . وينتهي الأمر بتدخل الشرطة !

قال المؤلف ، وتمكن من الباشا حب الاستكشاف والاستطلاع لدرس الأخلاق وسير الطباع ، فساقه عيسى بن هشام إلى حديقة الأزبكية فوجدها تغيرت من حال إلى حال . وذلك منذ أمرت الحكومة بالألا بدخلها غير الرجال ، واسترق الباشا السمع إلى بعضهم ، وكان أحدهم عمدة أخذ يشرح لجلسائه كيف اتصل به أحد الموظفين الكبار ، وأخذ يحرقه من مكان إلى مكان ، ومن حان إلى حان يشرب هو وأصحابه على حسابه ، مادام هو — أي العمدة — في حاجة إلى استرضائهم لقضاء حاجته .

وأخيرا يستمع العمدة إلى بعض جلسائه في الحديقة — وكان خليعا — وهو يمينه بسهرة جميلة مع غانية من بنات الباشوات . وإذ ذاك يغتنم الكاتب هذه الفرصة ليصف على لسان العمدة كثيرا من مواطن الشبه في المجتمع المصري ، ويندد بكثير من مفاسد هذا المجتمع أيضا

ثم ينتهي الكتاب بفصل عن الأسباب التي من أجلها تغيرت الأخلاق في مصر ، وانتهت إلى هذه الصورة التي لا يرضى عنها الباشا بوجه . وقد ذهب المويلى إلى أن هذا الفساد الذي أصاب الأخلاق والعادات إنما هو نتيجة لأمراض واحد فقط ، هو (الحضارة الأوروبية) وتقليد الشرقيين لها تقليدا أعمى .

* * *

وإلى هنا تقف الطبعات الثلاث الأولى من كتاب (حديث عيسى بن هشام) . غير أننا نجد في الطبعة الرابعة التي نشرها المويلى سنة ١٩٢٧ أن المويلى أضاف إلى كتابه إضافة جديدة سماها « الرحلة الثانية » . وهي رحلة الباشا إلى باريس لحضور المعرض العالمي سنة ١٩٠٠ . وهناك في هذا المعرض تعرف الباشا إلى (الحضارة الأوروبية) بعد إذ بصره بها وبأسرارها صديقه الفيلسوف الشرقي الذي صاحبه في رحلته الأخيرة . ثم عاد معا إلى القاهرة ،

وقد تفتحت عيناهما على أشياء كثيرة لم تدر لهما على بال ، ولا ارتقى إليها خيال . وإذا ذلك أدرك «الباشا» أن الحضارة الأوروبية ليست خير أخالصا ، ولا شرا خالصا ، ولكنها مزاج من العنصرين معاً . ومنذ يومئذ طفق يدعو قومه الى الأخذ من هذه الحضارة بالنصيب الذى يتفق وحاجتهم ويلائم امزجتهم وطباعهم ، ويكون كفيلاً بتقدمهم فى مضمار الحياة .

* * *

أرأيت اذن الى هذه القصة كيف كانت صدى لحركة الإصلاح ؟ أرأيت إليها كيف كانت صدى لكتاتى (حاضرمصريين) لمحمد عمر ، (و سر تقدم الإنجليز) لفتحى زغلول بنوع خاص ؟

أرأيت إلى الغرض الذى رعى اليه الكاتب من عقدته القصصية التى بنيت على بعث «الباشا» من قبره ؟ وهذا الغرض هو الموازنة بين فترتين من حياة مصر : إحداهما فترة محمد على ، والأخرى أواخر القرن التاسع عشر وأوائل القرن العشرين ؟

الحق أن الكاتب لم يدع شكوى ، ولا دعوة بما دعا اليه المصلحون السابقون من الكتاب والأدباء والصحفيين حتى ذكرها فى كتابه ، ولفت إليها أنظار القراء فى قصته . فنظام الشرطة ، ونظام القضاء ، ونظام الوقف ، وانباء الأسر الراقية ، والأسر الفقيرة ، وعادات هؤلاء وهؤلاء ، ونظام المحاكم الشرعية ، والدين ، وعلماء الدين ، وأخلاق الأعيان والتجار والحكام والرؤساء ، ومفاتيح الحضارة الأوروبية ، والأمراض والأوبئة — كل هذه الأمور كانت مما يشكو منه الناس فى أواخر القرن الماضى ، وكل هذه الأمور كانت مما يتناقش فيه النواب فى المجالس شبه النيابية (١)

(١) من ذلك أن الجمعية العمومية بعد أن برئت من النكسة التى أصابها بالاتفاق الودى سنة ١٩٠٤ ، بحثت فى جلسة واحدة استمرت أربعة أيام متوالية ، ثمانين اقتراحاً وشكاً منها شكوى تختص بدشواى ، وأخرى تطالب بحكومة دستورية صحيحة فى البلاد ، وثالثه تطالب بتعيين المصريين فى الوظائف الرئيسية . ورابعة تشكو من ارتفاع اجور التعليم . وخامسة تطالب أن يكون التعليم باللغة العربية وسادسة تطالب بإصلاح المحاكم الشرعية ؛ وسابعة تطالب بإصلاح نظام الوقف الخ

وكل هذه الأمور كانت تتناولها تقارير الوكالة البريطانية ، . وكلها كانت موضوع الكتب الأدبية المؤلفة والمترجمة ، وموضوع الصحف كما رأينا . وقد أقام المستشرق الفرنسي (هنري بيريس) موازنة بين (حديث عيسى بن هشام) وكتاب (حاضري المصريين) فذكر وجوها عديدة من وجوه الشبه بينهما :

منها أن الكتابين اشتركا في وصف الأغنياء وسوء تصرف أبناءهم بعد موتهم . كما اشتركا في وصف رفقاتهم ، ووصف لهوهم ، وعيشهم ، ومجونهم ، ونفاد ثروتهم ، والدعاوى التي تقام عليهم بسبب ذلك ، والعلاقات التي بينهم وبين الأعمام ، وبينهم وبين أبناء الأشقاء ، والبحث عن الذهب باستخدام الكيمايا الخ .

كما اشتركا في وصف الأعراس ونفقاتها الباهظة ، وموقف المدعوين والزائرين من هذه الأعراس ، ووصف المغنيات والراقصات ، والفوضى التي تشيع بسببهن في هذه الحفلات . كما اشترك الكتابان في وصف الأوبئة والأمراض والطريق إلى مكافحتها إذ ذاك . واشتركا كذلك في وصف الصحافة في مصر بما لها من عيوب وحسنات .

وكثيرا ما تشابه الكتابان في بعض تفاصيل الرواية ، وفي بعض الكلمات المستعملة فيها . ومن ذلك على سبيل المثال : اتفاقهما في ظهور الأجناب في حفلات الأعراس ، ومهم آلات التصوير الشمسي التي يحسبها الحاضرون حقائب ، ويسميها المويلحي في كتابه « أسفاطا » .

بل أن المستشرق بيريس أخذ يحصى وجود الشبه بين (حديث عيسى بن هشام) وبعض الكتب الأخرى — فيما خلا كتاب محمد عمر — . وذلك مثل كتاب (تحرير المرأة) لقاسم أمين ، وكتاب (تربية المرأة) لطالعت حرب ، وكتاب (علم الدين) لعلي مبارك . والكتاب الأخير يقع في أربعة أجزاء ظهرت بمدينة الاسكندرية عام ١٨٨٢ . وهو عبارة عن رحلة قام بها « علم الدين » وهو شيخ مصري كبير — ومعه ابنه « برهان الدين » ، وبصحبتهم كذلك مستشرق انجليزي . ويتألف هذا الكتاب من مائة وخمسة وعشرين مسامرة في مختلف مظاهر

الحياة العائلية والتجارية والصناعية والزراعية والعلمية والفنية في مصر من جهة ، وباريس من جهة ثانية .

ويقول المستشرق المذكور :

« أن نظرة سريعة تلتقي على فهرست ككتاب علم الدين تدل على أن باريس كانت محط أنظار المصريين — بله الشرقيين — وذلك حتى مطلع القرن العشرين ، » (١)

* * *

وقبل أن نترك الكلام عن « حديث عيسى بن هشام » يجدر بنا أن نذكر أن العقدة الفنية لهذه القصة قريبة الشبه بالعقدة الفنية في القصة المعروفة في القرآن الكريم باسم « أهل الكهف » . ولا يبعد أن يكون المويلحي قد أخذ عقده منها مع فارق واحد، بينهما وهو أن المويلحي في حديث عيسى بن هشام نسي أن يعيد « الباشا » إلى قبره كما فعلت قصة أهل الكهف . ذلك أن المويلحي في الحقيقة لم يكن يشغله شيء في قصته هذه أكثر من مجرد الموازنة بين فترتين من حياة مصر ؛ هما الفترة القريبة من سنة ١٨٥٠ ، والفترة القريبة من سنة ١٩٠٠ . ولا شك أنه قد وفق في هذه الموازنة توفيقاً يستحق الإعجاب والتقدير .

* * *

قصة زينب

في الفترة التي ظهرت فيها قصة المويلحي الصغير على شكل فصول نشرت تباعاً في صحيفة « مصباح الشرق » أو بعد هذه الفترة بقليل ظهرت إلى الوجود قصة مصرية اجتماعية، هي قصة زينب . كتبها « محمد حسين هيكل » سنة ١٩١٠ وهو طالب يتلقى العلم في فرنسا . ولما عاد إلى مصر نشرها فصولاً « بالجريدة » عام ١٩١٤ .

وكان وهو في فرنسا كثير الشوق لبلده مصر ، فجاءت

هذه القصة — كما يقول — « ثمرة حنين للوطن وما فيه . صورها قلم مقيم في باريس مملوء مع حنينه لمصر إعجاباً بباريس وبالآداب الفرنسية » .

ويبدو أن هذا الجهد الأدبي وأمثاله من الجهود الأدبية أو الصحفية الأخرى كان سبباً من أسباب ظهور فكرة « المصرية » التي وضحت في الأذهان وضوحاً تاماً عقب الحرب الكبرى . وهذا الشهور هو الذي جعل الكاتب الشاب ينشر « قصة زينب » في الجريدة بامضاء « مصرى فلاح » . ذلك أنه كان يخشى كما كان يخشى غيره من المصريين الفلاحين إذ ذاك « من أن أبناء الذوات وغيرهم ممن يزعمون لأنفسهم حق حكم مصر ينظرون إلينا — جماعة المصريين وجماعة الفلاحين — بغير ما يجب من الاحترام ، الخ (١) »

على أن « زينب » لم تكن ثمرة الحنين إلى الوطن فقط ، ولا ثمرة الإعجاب بالآداب الفرنسية فقط ، ولا ثمرة التبشير بفكرة « المصرية » فقط ، وإنما كانت في الحقيقة ثمرة لهذا كله ولتلك المقدمات الأدبية التي أشرنا إليها عند الكلام عن قصة المويلحي . ومن أهم هذه المقدمات فيما يتصل بقصة زينب تلك الضجة التي أثارها ظهور كتاب قاسم أمين « تحرير المرأة » ، منذ نشر على صفحات « المؤيد » ، عام ١٨٨٩ . . وقد تأثر الشباب المصري المثقف إلى حد كبير بهذا الكتاب الجديد . وجاء هيكل الشاب فصور لنا شخصية من شخصيات قصته ، هي عزيزة بصورة الفتاة التي نالت قسطاً ضئيلاً جداً من التعليم ، ثم حبسها أهلها في منزل قبعته فيه . وانقطعت لقراءة القصص السخيفة التي كانت تصل إليها مع ذلك بصعوبة كبيرة . وكانت النتيجة أن انحرف عقلها ، ودبل جسمها ، وأخذت تزداد مع الأيام ضعفاً على ضعف . « ولا يمر عام حتى تحس بحاجة شديدة لتجديد الهواء ، واستعادة صحتها التي نذهب مدة الشتاء فريسة رطوبة بيتهم الواسع الذي يعيشون فيه » ، (٢)

(١) قصة زينب ، الطبعة الثانية ص ٧

(٢) المصدر المتقدم ص ٢٢٥

من أجل هذا كتبت عزيزه إلى ابن عمها حامد تقول :
أخي حامد : هل بعد ليلة الأمل لا تزال تحبني ؟ إن قلبي يوحى إلى
بمقدار ما بعث به لنفسك سكوتي إلى حد الألم ساعة انفرادنا . وأحس
الساعة أنني لا أستحق حبك .

ومالنا جماعة الدفينات وللحب ؟ إنما نحن في ظلام تتلذذ منه بخيالات
لا وجود لها ، وإنها لخطيئة أن تحب من ذهب بها أهلها إلى الدير ! . ولستنا
أقل تبتلا من هانيك الراهبات ، وإن كنا أقل عبادة ...
لكم جمال الوجود ، ولكم السماء والزرع ، والماء ، والليل ، والقمر .
فأحيوا ممتعين بها . وذرونا في صوامعنا وسجوننا ! (١)
وانظر الى هيكل يقول في قصته كذلك عن « حامد » وهو اهم شخصية
من اشخاص القصة :

« والواقع أن احلام حامد وآماله في المستقبل كانت كبيرة جدا . ومهما
يكن مخلصا في قوله أحيانا إن خير عملنا أن نضم الحاضر ، فإن قضية المستقبل
كانت تشغل باله ، وتعاوده في أوقات مختلفه ، وكأنه كان يدين بمذهب
استاذة قاسم أمين : اللذة التي تجعل للحياة قيمة هي أن يكون الانسان قوه
عاملة ذات أثر خالد في العالم » (٢)

تلك إحدى المقدمات الأدبية لقصة زينب . وثم مقدمة أخرى هي :
(الحضارة الأوروبية) أو الثقافة الغربية التي تسربت إلى المصريين عن طرق شتى .
وقد حملت هذه الحضارة الأوروبية كثيرا من الشباب المصريين من
(أولاد المدارس) على أن يتساهلوا نوعاً ما في تقاليد بلادهم ، ويتحرروا
نوعاً ما من قيود الماضي ، ويتهاونوا بعض الشيء في أمور الدين ، ويتبرموا
أحيانا من الفضيلة !

وقد شاء مؤلف زينب أن يجعل من (حامد) شابا من هذا الطراز ؛
يسخر من التقاليد ، ويقبل على الحياة اقبالا ، وبلح في طلبها إلخاها .

قائلاً : أن أيام الشباب أيام الحرية وعدم المسؤولية ، فإن أضعافها صاحبها صربعا بخرافات العجائز ، قاعداً عن أن ينال منها كل ما فيها ضاع عليه عمره ، وقضى على الأرض حياة مكشّبة فاسدة - حياة محملة بالهموم من أولها إلى آخرها ، حياة خير منها موت عاجل ، (١)

غير أن القصة تعود فتصور لنا حامداً وقد ندم في النهاية على مسلكه هذا ، وأفضى به الندم إلى محاولة الفرار من الحياة ، أو يظفر بأمنيته منها ، وهي الحصول على فتاة تملأ فراغ قلبه.

(وزينب) قصة بسيطة في ذاتها كل البساطة . هي قصة حامد من أولاد المدارس ، وأحد أولاد السيد محمود من كبار الملاك المزارعين في إحدى القرى المصرية . وكان من دأب حامد أن يأتي كل صيف لقضاء إجازته في الريف حيث الماء والهواء والضياء والمزارع الخ . وحيث الجلوس إلى فتيان القرية وفتياتها ممن يعلمان أجيرات في مزرعة أبيه ، ويكسبن القوت من وراء ذلك . واسمع إلى حامد يقص قصته هذه على شيخ من مشايخ الطرق الصوفية زار القرية ، وكان حامد في حالة نفسية أليمة حاول في اثباتها أن يتخفف منها بعض الشيء بهذه الطريقة : فجاء إلى الشيخ وقال له :

«لى ابنة عم قيل لى وأنا لا أزال فى السادسة من عمرى إنى سأزوجها متى كبرت . وعلى هذا كنت أحس فى نفسى لها بعاطفة غير التى أحس بها نحو بنات عمى الأخريات ، فأقسمها ما بيدي ، وأحنو عليها ، وأدافع عنها . ولما بلغت السادسة عشره من عمرها ومن عمرى ابتدأت أحس بغير هذا الاحساس القديم نحوها ، وازداد شوقى لها ، وقضيت الليالى الطوال يصحبنى خيالها . وفى تلك الأيام قابلتني فتاة ريفية اظن سيدى الشيخ يعفني من ذكر اسمها ، أو أى شيء عن شخصها .

قابلتني فأخذ بعينى جمالها ، وبهرنى منها عيون نجل ، وخدود متوردة فى لون جذاب وجسم خصب ، وقوام غض ، وخصر دقيق ، وبنان رخص

ومنطق عذب ، ونظرات تسيل لها النفس . ولكن هيهات لفتاة - أيا كانت - أن تصل لفؤاد مقفل كـفؤادى يومئذ ؛ حين كنت لا أعرف غير الفضيلة المجردة . غير أنى كنت اشعر بقلق كلما طالت غيبتى عنها ، وأحس بدافع لا قبل لى على دفعه يجعلنى أذهب إلى المزرعة التى تكون فيها ، وأن أساعدها فى عملها . ثم أن أرجع معهاجنباً إلى جنب نتحدث فى كل شى موافى لاشى . . وجاء اليوم الذى تزوجت فيه هذه الفتاة ، والذى عاهدت نفسى فيه أن أنساها إلى الأبد . إذ ما دامت لغيرى فمن الغدر الذى لا يلىق بى أن أفكر فيها مجرد تفكير . ورجعت بذلك لأبنة عمى التى وعدت بها . وجعلت أتخيل لها كل شىء حسن ، وتبادلت معها كلمات قليلة . ولكنها انتهت - هى الأخرى - بأن تزوجت . فمرانى لذلك حزن عظيم . ولكن ما أسرع ما سقطت عن كسفى أحماله ، حتى لقد عرتنى الغربة كيف يمكن أن يكون ذلك شأنى . ورحلت يعدها فى شىء . من عدم الاهتمام بكل ما حولى ؛ أو الأسف على شىء حصل ، أو التفكير فيها سىكون . ولكن ذلك على ما كان من لذته لم يستمر طويلاً ، بل غادرنى وأسلمننى بعده الى نوبة فظيعة ، هى التى دفعتنى اليك ، نوبة أحسست معها بالحاجة المطابقة إلى أن أملك الفتاة الريفية رغباً عن أنها متزوجة ، ورغباً من كل ما سيقوله أو يتقوله الناس عنا . ولكن الله سليم واستطعت أن أملك نفسى فى الساعة التى كنت سأضيع فيها . .

تلك (خلاصة) القصة كما قصها (حامد) على الشيخ . ولكنى تزداد وضوحاً فى أذهانكم أمضى قليلاً فى وصف الملاح العامه لبعض الشخصيات الهامة : فعزيزة فتاة بسيطة نالت - كما قلنا - قسطاً بسيطاً كذلك من التعليم لم يكن يزيد على « فك الخط » .

وزينب هى الفلاحه التى كانت أجيرة عند السيد محمود والدحامد . وقد أتاح لها ذلك فرصة الاختلاط المستمر بهذا الشاب الذى شعر بحب لها ، وشعرت هى بمثل ذلك . وان كانت تعلم أن الفرق بينهما لا يمكن أن يسمح لهما بالزواج . ولذلك منحت قلبها فى الحقيقة شاباً آخر كان يعمل معها فى المزرعة ، وكان صديقاً لحامد . وهذا الشاب

هو ابراهيم . ثم شاء القدر القاسى الا تظفر زينب بهذا الذى تحبه ، لان تقاليد الاسرة الريفية كانت لا تسمح للفتاة بأن يكون لها رأى فى زواجها من رجل بعينه . وتزوجت زينب على كره منها من شاب آخر من شباب القرية طيب الاخلاق سليم الطوبى ، هو حسن . وبدأت زينب حياة الزوجية ولكنها لم تنس ابراهيم ، ولم تفlech قط فى اقضاءه عن نفسها أو قلبها ، بل ظل عالقا بهما الى أن دعى ابراهيم للخدمة العسكرية ، فصدع بالامر ، وترك زينب تعاني آلام الفارقة . وما زالت هذه الآلام النفسية الكثيرة تهد من كيائها ، وتنال منها حتى أصابها السل ، وأفضى بها السل إلى الموت .

ومنذ حرم حامد من (زينب) أولا ، ومن ابنة عمه (عزيزة) ثانيا أحس بفراغ هائل فى حياته ، ولم يجد علاجه مع هذا على يد هذا الشيخ الذى سعى اليه ، وقص قصته عليه . فانتظر حتى انتهت الاجازة ، وعاد إلى العاصمة . وهناك فكر فى أمره طويلا فلم يجد أمامه الا طريقا واحدا ، هو الاختفاء عن العالم ، فاختفى بعد أن ترك لوالده خطابا شرح فيه آلامه كلها ، وذكر جميع الاسباب التى أفضت به الى هذه النهاية :

تلك هى قصة « زينب » لمحمد حسين هيكل ، وإن أهميتها تظهر لنا من ذكر الخصائص العامة التى تمتاز بها . ومنها - على سبيل المثال مايلي :

أولا - أن المؤلف كتبها بلغة عربية على المتأديين فى عصره بعض الغرابه : كتبها بلغة عربية تغلبت عليها « الصبغة المصرية » إلى حد كبير . وكأنه بهذا الصنيع يدافع عن « المصرية » نفسها من جهة ، ويعارض قصة المويلحى التى كانت فى كثير من مواضعها مكتوبة بلغة تشبه لغة المقامات العربية من جهة ثانية . ونحن نعرف عن لغة المقامات انها تقوم على السجع والجناس والطباق والاستعارة والاستشهاد بالقرآن وبالحديث وبالشعار الخ .

أما لغة هيكل فى قصة زينب فجاءت عارية من كل ذلك . ويطول بنا القول لو أردنا أن نحصى التراكيب المصرية التى وردت فى هذه القصة الاجتماعية . فأنكم واجدون هذه التراكيب فى كل فصل من فصولها

بل في كل صفحة من صفحاتها . ومنها على سبيل المثال :

« بقيت في مكانها ساكنة لا تبدى حراكا . ثم فردت ذراعيها من جديد ، الخ (١) . ولم يقل بسطت .

« جلست العائلة جميعا حول المشنة ، وأكل كل منهم رغيفه بحسوة ملح . ثم قام الرجل وابنه الى عملهما ، (٢)

« ولم ينس ابراهيم أن ينبههم إلى أن هذه الحالة أغلقت من سابقتها ، (٣) ولم يقل أقسى أو أشد ونحو ذلك .

« وقام بمصباح ضئيل النور — لمضة خمس شمعات — يزيد نوره ضعفا ما على زجاجته من التراب ، (٤)

« تقصت أيام ، وزينب تذهب لنقاوة القطن تحت رياسة ابراهيم ، حتى إذا جاء وقت الحصيد انتقلت هي وأختها ، وأخذ الرياسة عليهم حسين أبو سعيد ، (٥)

« بقى حامد حتى آذن الظهر أن يزول ، ولم يبق للعمال الا أن يطلعوا بلوش ، (٥)

« وطلعت الشمس في ذلك اليوم تزيد الوجود جمالا وفرحا ، وينطرح ضوؤها على هدموم الفلاحين البيضاء الخ ، (٦)

« وقد رأى صاحبها - أى صاحب دكان العطاره والقماش - من أجل أن يقدم خدمته للناس الذوق الخ ، (٧)

« ذلك أمر يحتاج التبصر والاحتراس ، وأن يأخذ الانسان باله عند كل خطوة ، (٨)

(١) قصة زينب ص ٩

(٢) نفس المصدر ص ١٠

(٣) نفس المصدر ص ١١

(٤) نفس المصدر ص ١٣

(٥) نفس المصدر ص ١٤

(٦) نفس المصدر ص ٤١

(٧) نفس المصدر ص ٥٦

(٨) نفس المصدر ص ٦٤

« فلما كان في أصيل اليوم التالي ليوم حضورها أخذ بعضه وسار حتى وصل باب منزلها » (١)

« فأخذ حصاة وحذف بها الثور » الخ (٢)

« والكل جاءت عليهم ساعة كانوا فيها أشد صمتا » الخ (٣)

« وهل من مقام حامد أن ينزل الى مثل ما نزل اليه » الخ (٤)

« فلم تجب زينب بحلوة ولا بمرّة » الخ (٥)

على أن كاتب القصة لم يكفه ذلك حتى ملأ قصته كذلك بالأمثال العامية والتراكيب المصرية المعروفة ، فأضفى بذلك على قصته (اللون المحلي) الذي احتاجت اليه .

ثم لم يقف الكاتب أيضا عند هذا الحد ، حتى شجن قصته كذلك بطائفة من التراكيب الأجنبية التي ليست بعربية وليست بمصرية .

« أما الوجود فقانع ، راض . أشيب ، علامه تعاقب الدهور أن

الاسترسال في تحديد الغاية بخطوط الخيال جرى ، إلى حيرة اللانهاية » (٦)

« فلما صار وسط الدار ، ووسط الضجة والتعفيق ، ووسط السرور

المجنون » الخ (٧)

« وقد بهت الشرق مبشرا بآلهة النار والنور » (٨) الخ

« وحامد محرق لذلك الشرق البديع تسيل سماؤه دهباً ، ويعانق بكله

النباتات » (٩)

على أن تأثر الكاتب هنا بالأدب الفرنسي تجاوز التراكيب إلى نوع الأدب

ذاته : فيبكل في قصة (زينب) متأثراً بالأدب العاطفي أو الرومانسي الذي

ظهر في فرنسا ، مفتون باحتذائه في الفكرة والأسلوب ، وفي العناية التامة

بالتصوير النفساني ونحو ذلك .

(١) قصة زينب ص ٨٧ (٢) ص ١٥٣ (٣) ص ١٦٠ (٧) ص ١٦١

(٥) ص ٣٩٢ (٦) ص ١٦ (٧) ص ٣٥ (٨) ص ١٤٧ (٩) ص ١٥٦

ثانيا - من أهم خصائص القصة التي كتبها هيكل عنايته بأوصاف الطبيعة. وكأن مؤلف قصة زينب - وقد كان طالبا يتلقى العلم في باريس - لم يجد للتعبير عن حنينه إلى وطنه خيرا من أن يقضى الساعات الطوال في رسم اللوحات الفنية التي ينقل بها مناظر الريف المصري . ومن أجل هذا كثرت هذه الأوصاف في كتابه كثرة تلفت نظر القارئ . ولو ذهب هذا القارئ . يحصى أوصاف الطبيعة في قصة زينب لرأى أن هذه الأوصاف تبلغ منها مقدار الثلث تقريبا .

ومن العبث أن نحاول هنا الإتيان بمثال من هذه الأوصاف . فكما جيدة وكلها متشابهة ، وكلها تدل على شغف هذا الشاب بالطبيعة وما فيها من جمال وفتنة .

وأكبر الظن كذلك أنه تأثر في هذا بالأدب الفرنسي الذي كان من أغراضه الدعوة إلى تقديس الطبيعة ، واجتلاء جمالها والاستمتاع بما أودع الخالق المصور فيها من أسرارها ، والدلائل الكثيرة على وجوده .
ثالثا - العناية بالتفاصيل . والأمثلة عليها كثيرة في قصة زينب . منها وصفه (لعملية التشويق) عند الشيوخ^(١) من أهل الريف ، ومنها وصفه (لصلاة الجماعة في المساجد)^(٢) وما إلى ذلك . وكلها جميلة ودقيقة ، وفيها عناية بالتفاصيل تسترعى نظر الناقد حقا .

رابعا - صفته الواقعية . والحق أن قصة زينب صورة صحيحة من الريف المصري بمحاسنه ومساوئه في وقت معا : فاما محاسنه فأتية من جمال مناظره وبساطة أهله في معيشتهم ، ومن قناعتهم حتى إن أحدهم لتكفيه الكسرة من الخبز إدامها المملح .

وأما مساوئه فكثيرة . أهمها في نظر الكاتب ما يتصل بالعائلة ، أو الاسرة وفهم الريفيين لها ، وطريقتهم في تكوينها ، وإغفالهم حق المرأة التي هي الطرف الثاني في قضية الزوجية حيال الرجل .

فهذا شاب يتزوج من فتاه لا يعرفها ولا تعرفه. ومع ذلك يطلب منهما أن يعيشا معا طول الحياة. وهذا مجتمع يرى أن كل صلة بين الرجل والمرأة - فيما عدا الزواج - صلة حسيه دنيئه تستحق كل احتقار. (١) وهؤلاء قوم لا يفهمون معنى الأسرة. ومع ذلك ينشدون السعادة لأنفسهم عن طريق زواج أعمى تحكم فيه تقاليد الآباء. إن هذا كله مما يؤخذ على الحياة في الريف المصري، ويدعو إلى التبرم بها، والوقوع في أخطار كبيره بسببها.

وهكذا نجد أن كاتب القصة التي نحن بصدددها لم يغفل في كتاباته العناية التامة بنقد الريف المصري في كثير من عاداته الضارة، وأوهامه السخيفه ومعتقداته الرائفة.

فمن ذلك أنهم يعتقدون أن الامراض آتية من الجن والشياطين أحيانا، أو من الحسد أحيانا. ولا مصدر لها في نظرهم غير هذين. ثم لم يكن الا بعد جهد جهيد أن آمن هؤلاء الريفيون بالطب

ثم من ذلك اعتمادهم في (مشايخ الطارق) على صورة من الصور البعيدة عن الدين. بحيث لا نرى في الريف المصري إلا شيئا يعتمد على الشعوذة في جمع الناس للطعام والشراب، والرقص في حلقات الذكر ونحو ذلك.

أما العطف على الفقراء، والعمل على راحة الناس من الديون، ومن الامراض فشيء لا يخطر لاحد من الريفيين على بال.

على أن هذا الريف المصري لم يخل من عادات اجتماعية طيبة أشارت الى بعضها قصة زينب. ومن أهمها عادة التعاون في أوقات الشدة من مرض أو وفاة ونحو ذلك. وفي مثل هذه الظروف تبادر الاسر كلها في الريف إلى تقديم المعونة اللازمة لاهل المريض أو الميت

ولكن يؤخذ على مؤلف زيب عدم عنايته بالمحافظة التامة على خصائص كل شخصيه من شخصيات القصة على حدة . ولهذا رأيناه يحمل هذه الشخصيات على أن تقف من نفسها ومن حوادث القصة ذاتها موقفا غير طبيعى أحيانا : من ذلك موقف عزيزه - تلك الفتاة الريفية ذات القسط البسيط من التعليم - موقف الكاتبة البارعة التى تنقد المجتمع نقدا يذكر بأراء قاسم أمين . ثم من ذلك موقف (حامد) - ذلك الفتى البسيط الحظ من الثقافة أيضا - موقف الشاب الذى يلوم نفسه على الشكوى الى شيخ جاهل من مشايخ الطرق وهكذا .

* * *

ليالى سطيح

منذ ظهرت رواية حديث عيسى بن هشام للموياحى وهى حديث الخاصة والعامه من أهل مصر ، يقرأونها بلذته لا تعد لها لذة ، ويشنون على مؤلفها - بعبارات مختلفة . ويظهر أن ذلك أحدث الفيرة فى قلب شاعر شاب ، هو حافظ ابراهيم . ففكر فى أن ينشئ - هو الآخر - قصة من هذا الطراز . وبالفعل كتب قصة صغيرة الحجم باسم (ليالى سطيح) .

والحقيقة أن (ليالى سطيح) ليست الا سيرة لحافظ ابراهيم . ولا يستطيع الناقد أن ينظر اليها على أنها قصة بالمعنى الصحيح لهذه الكلمة . ان هى فى الواقع إلا مذكرات خاصة لهذا الشاعر ، كتبها بلغة كلفة المقامه المعروفة فى الأدب العربى ، وحشر فيها طائفة كبيرة من الأشعار ، بعضها من نظمه . وبعضها من نظم شعراء آخرين ، من أهمهم أبو العلاء المعرى .

وفى هذه القصة - أو المذكرات - طفق حافظ ابراهيم يشرح الحوادث المزعجة التى وقعت فى السودان حوالى عام ١٩٠٥ - حين كان حافظ ضابطا فى الجيش المصرى ، ثم أحيل إلى التقاعد بسبب هذه الحوادث . وتصادف إذذاك أن مات الشيخ محمد عبده وكانت الصداقة على أتمها واكملها

بينه وبين حافظ ابرهيم ، منذ كان هذا الشاعر المعذب يبحث بقصائده إلى الإمام بمدينة القاهرة ، يشكو فيها حاله ، ويرجو النصر على يديه . ومنذ ذلك الوقت والشاعر الشاب يتخذ من الأستاذ الإمام أباً روحياً ، وصديقاً وفياً ، ومعيناً له على حوادث الزمن .

ولكن آمال حافظ ابراهيم باءت كلها بالفشل والخيبة ، وجاء موت الامام كارثته قضت على البقية الباقية له من هذا الآمال . فعاد الشاعر المسكين إلى قلبه يجد فيه العزاء عن ألمه ، كما يجد الموسيقى في آلته الموسيقية بعض العزاء في مثل هذه الاوقات . وكان من نتيجة ذلك كله تلك القصة التي كتبها يومئذ ، وهي « ليالى سطيح » . . وهي قصة لا يمكن للناقد أن ينظر اليها الا على أنها مذكرات أو خاطرات - أو ما يشبه هذه أو تلك - لا أكثر ولا أقل .

وعلى هذا فليس من الانصاف - بوجه ما - أن نضع « ليالى سطيح » على قدم المساواة . مع قصة المويلحي . أو قصة هيكل . وإن كانت وجوه الشبه كثيرة بالفعل بين (ليالى سطيح) و (حديث عيسى بن هشام) . فهما شبيهتان من حيث الأسلوب . ومن حيث الموضوعات الكثيرة التي كانت مشتركة بينهما . ومن أمثلة ذلك . مشهد الخمار ، ووصف أما كن اللهو والمجون في حديقة الأزبكية ، ووصف المراقص العامة .

وثم وجه من وجوه الشبه بينهما ؛ هو أهم من كل ما تقدمه من وجوه الشبه الأخرى ، هو البطل في كليهما .

فالبطل في قصة المويلحي هو (الباشا) وقد بعثه المؤاف من قبره . - كما رأينا . والبطل في قصة حافظ ابرهيم هو « سطيح » وهو شخص بعثه المؤاف من قبره أيضاً . وسطيح كاهن معروف في الأساطير الدينية على أنه كان رجل عاش في زمن النبي محمد صلى الله عليه وسلم .

ومع ذلك فقد أتى به حافظ في قصته ، وأتاح له توجيه النقد للمجتمع المصري عن طريق العرافة والتكهن .

والقصه كلها في مائة وخمس وخمسين صفحة كتب المؤلف على غلافها « الجزء الأول » ، وإن كان من المحقق أن الجزء الثاني لم يخرج إلى عالم الوجود ، ولا فكر المؤلف في أخراجه .

وأما موضوعات (ليالى سطیح) فكثيرة لم يسردها المؤلف بطريقة فنية صحيحة . ومن هذه الموضوعات : موضوع الحجاب والسفور (١٠ - ١٢) وشكوى السوريين من الجفوة التي وقعت بينهم وبين المصريين (١٦ - ١٩) وموضوع الصحافة السورية وما لها من فضل على النهضة المصرية (١٢) والشكوى من الإمتيازات الأجنبية (٢٤ - ٢٦) وانتشار الخرافات والأوهام بين طبقات المجتمع المصرى (٢٩) ومزايا الصحافة وعيوبها ، والتعرض لذكر آثارها السيئة في المجتمع المصرى الحديث (٣٥ - ٤٥) (١) ثم من موضوعات ليالى سطیح أولاد الذوات ، وحياتهم في حـديقة الازبكيةه (٤٧)

وينتقل الكاتب الشاعر من هذه الموضوعات الاجتماعية إلى أخرى أدبية وفكرية ، فيوازن بينه وبين شوقى (٥٤ - ٦١) ويشيد بذكر السيد جمال الدين الأفغانى ومدرسته (٦٢ - ٧٠) ويخص بالذكر الأستاذ الامام محمد عبده ، ويدافع عن اتصاله بالوكالة البريطانية بحجة أنه يريد أن يدفع عن المصريين أذى القوم (١٤٥) . وقد شبه المؤلف جمال الدين الأفغانى بسقراط ، ومحمد عبده بأفلاطون . ثم تحدث المؤلف عن ثورة السودان عقب حرب الترnsفال . واستغرق الحديث عن هذه الثورة ثلاثين صفحه (٨٠ - ١١٠) . وتحدث فى أثناء ذلك عن معاملة الإنجليز للمصريين فى السودان . وكيف كان الويل كل الويل للمصرى حين يشكوه زنجى . ويحكم الإنجليز بينهما (١٠٣) . ثم تكلم المؤلف عن قضية دنشواى (١١١ - ١١٣) . وهما يستشهد فى قصته بمقالات طويلة من « المؤيد » مبتدئاً إياها بقوله : ولقد أبرد غليلي ما كتبته صاحب المؤيد اليوم عن تلك الحادثة النكيرة بعنوان « السياسة الضعيفة العنيفة » . ثم يأتى بالمقال كله فمشغل

(١) فن مساوئها أنها حائل لصيد الأموال ، وأنها سبب فساد الأخلاق ؛ وأنها لا تتوخى فضلاء الناس فى التحرير . بل تدخل الأسافل فى زمرة المحررين الخ :

به من صفحات الكتاب تسع صفحات كامله (١٢٢ - ١٢١) جاء فيها قول صاحب المؤيد : والقارى لما نشرناه اليوم - نقلا عن جريدة التيمس - يرى كيف كان مركز ناظر الخارجه البريطانيه حرجا في البرلمان ، وهو يسأل عن كيفية تنفيذ الحكم (١٠٨)

أما أسلوب القصه فقد قلنا أنه يشبه أسلوب المقاله العربيه . ونضيف الى ذلك أن الشاعر تأثر فيه كذلك بالقرآن الكريم ، وأشاع فيه الصور البيانيه التي تروق أصحاب الذوق القديم ، وتبلغ من نفوسهم مبلغا عظيما في حلاوة اللفظ وجمال التعبير .

* * *

القصه الاجتماعيه في لبنان

هذا كله في مصر . أما في لبنان - بنوع خاص - فإن أول محاولة للقصه الاجتماعيه كانت على يد سليم البستاني (١٨٤٨ - ١٨٨٤) وذلك في مجله ، الجنان ، حيث يرى القارى عددا من القصص وهى :

الهيام في جنان الشام (سنة ١٨٧٠)

اسماء (١٨٧٣)

ساميه (١٨٨٣)

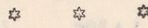
وقد استوحى البستاني حوادث هذه القصص ، ورسم اشخاصها من البيئه اللبنانيه التي ولد بها ، وعاش فيها ، ولانها طيلة حياته .

ثم توالى بعده الكتاب اللبنانيون ينشئون مثله قصصا اجتماعيه من هذا النوع ، وينشرونها في الصحف التي صدر بعضها في لبنان ، وبعضها في مصر ، وبعضها في بلاد أخرى . ومن هؤلاء :-

سعيد البستاني ، وجورجى زيدان ، وفرج أنطون ، ونقولا الحداد ، وسليم سركتيس ، ويعقوب صروف ، ولبيبه هاشم ، ونجيب غرغور ، وزينب فواز ، وجبران خليل جبران .

وإن نظرة عجيلى الى هذا النتاج الضخم من القصص اللبنانى لثريتنا كيف أن الهدف الاجتماعى كان يغلب كل هدف آخر فى كل قصة من تلك القصص . وإن اشترك كتابها جميعا فى بعض صفات خاصة ، منها الحشو ، والاستطراد وذكر النصائح الاجتماعيه والمواعظ الخلقية ، كما اشتركوا فى الاعتماد على الخيل والمفاجآت والمبالغات البعيدة الاحتمال ، وفى تفكك البناء القصصى ، والاتكاء على حوادث الحب والغرام التى ينتهى غالبا بالزواج . وفى غلبة الخير على الشر فى جميع هذه القصص على اختلافها ، ونحو ذلك . واشتركت هذه القصص أيضا فى أمر آخر ، هو نقد المجتمع الشرقى والموازنة بينه وبين المجتمع الأوروبى .

كما اشتركت كلها كذلك فى الأسلوب ؛ فالت الى السجع ، والاستشهاد بالشعر . وهى فى هذه الصفات الأخيرة شبيهة « بحديث عيسى بن هشام » . وإن كان من الحق أن يقال إن قصة المويلحى تفوقت من حيث الأسلوب على جميع القصص اللبنانية السابقة تفوقا يعلو عن الموازنة .



(وبعد) أفليس فى هذا كله ما يدل على أن القصة الفنية فى مصر وغيرها من الاقطار العربيه نشأت أول ما نشأت فى أحضان الصحافة ، وبأقلام الرجال المشتغلين بالصحافه ، وأنه من أجل هذه الصحافه وجدنا القصة العربيه تظهر أولا فى الميدان الاجتماعى ؛ وهو الميدان الذى يلائم الصحف ، فقد وجدت الصحف من أجله ، وعاشت من أجله . وتكلمت بلغته ، ووقفت حياتها على خدمته ؟

٦

القصيدة الشعرية والصحافة المصرية

رأيت كيف كانت البيئة المصرية مشغولة بحوادثها الكثيرة إلى أواخر القرن الماضي عن القصه . ولكن هذه الأحداث الكثيرة في تلاحقها ، وخطورتها ، وحرارتها كانت في الوقت نفسه باعثاً قوياً على إيجاد فنيين آخرين من فنون الأدب وهما : —

✧ فن المقالة أولاً ، وفن القصيدة بعد ذلك . ✧

وكما كانت الصحافة ذات أثر بالغ في (القصه) من حيث اتجاهها ، ومن حيث أسلوبها . فكذلك كانت الصحافة ذات أثر بالغ في (القصيدة) ، من حيث غرضها ، ومن حيث اغتها ، ومن حيث الدور الذي أدته للبيئة المصرية في ميدان السياسة ، والأدب ، والمجتمع .

✧ ونحن نعلم أن كلا من المقالة والقصيدة أثر أدبي قصير الطول ، لا يحتاج في قراءته إلى الوقت الذي تحتاج إليه القصه .

ومن ثم كان الأثران الأولان : وهما القصيدة والمقال ملائمين للبيئة المصرية في تلك الفترة أكثر من أية فترة سبقتها .

ولكي تفهموا معنى الدور الذي لعبته الصحافة في ميدان الشعر لابد أن انتقل بأذهانكم مرة أخرى إلى شيء من الأجواء الفكرية والسياسية التي أحاطت بجميع الفنون الأدبية . وإن نظرة واحدة إلى الحركة الشعرية التي بدأت في النصف الثاني من القرن الماضي ، واستمرت إلى أوائل القرن الحالي لتدلنا دلالة لا تقبل الشك على أن الشعراء كالسكتاب شاركوا في جوانب النهضة المصرية : سياسية كانت أم فكرية أم أدبية أم اجتماعية .

ولكن أيهما سبق الآخر في الدعوة إلى هذه النهضة في كل ميدان من

المبادئ التي تشير إليها؟ الصحفي أم الشاعر؟

لقد قلنا عن القصص المصربة أنها لم تكن حدثاً مفاجئاً في عالم الأدب ، بل كانت لها مقدماتها التي مهدت لها، ومنها الصحافة ، وكذلك نقول عن القصيدة الشعرية إنها انتقلت من طور الى طور ، ومن حال الى أخرى بسبب الصحافة . وهل كان هناك طريق أضمن ، أو أسرع ، أو أيسر من طريق الصحيفة اليومية التي تنقل الشعب - أو للطبقة المستنيرة منه على الأقل - آراء قادته وأفكار الصفوة المهيمنة من مفكريه ؟

ان الصحيفة ما زالت الى اليوم هي الطريق السريع الى شهرة الأديب ، سواء كان كاتباً أم شاعراً أم فيلسوفاً أم عالماً . والفرق عظيم جداً بين الشاعر الذي وجد قبل ظهور الصحافة والشاعر الذي وجد بعد ظهور هذه الأداة الجديدة من أدوات التفاهم بين الناس ، وهي الصحافة .

أما الشاعر القديم فكان لا يخاطب بشعره الطبقة بعينها ، هي طبقة المثقفين بالشائقة الأدبية واللغوية العالية التي تعين على فهم الشعر وتذوقه . وهذه الطبقة المعنية قليلة جداً بطبيعتها في أية أمة من الأمم .

وأما الشاعر الحديث - وهو الشاعر الذي اتخذ من الصحيفة مسر حال شعره وبوقاً لنظمه - فإنه أصبح يخاطب بهذا الشعر ملايين البشر في وطنه الذي يعيش فيه ، وفي غيره من الأوطان التي تتكلم لغته ، وتستطيع أن تحصل على صحيفته . واذن فقد أصبح على الشاعر الحديث أن يحسب في شعره الذي ينظمه حساباً لهذه الملايين من القراء الذين يراد لهم أن يقرأوا هذا الشعر . فإن فهموه ربح الشاعر وشعره معه ، وإن لم يفهموه خسر الشاعر وشعره معه . فكان شهرة الشاعر رهن بقرائه في الصحيفة دائماً . ومن ثم وجب عليه أن يقدم لهم في هذه الصحيفة ما يلائم عقولهم ، ويتفق وأمزجتهم وبعبارة أخرى آرائهم وأفكارهم في ميدان السياسة أو المجتمع .

وأي فرق يكون في هذه الحالة بين القصيدة والمقالة ؟

ان المقالة لا تهدف الا الى مثل هذه الغاية . أليست المقالة عبارة عن حديث من الأحاديث في مشكلة من المشكلات يسوقه الكاتب - لا فائدته هو - ولكن لفائدة المجموع ، ولا للتعبير عن ذاته هو ، ولكن للتعبير عن ذات المجموع ؟

وعلى هذا فالقصيدة الشعرية في أدبنا الحديث إنما هي مقال منظوم . لا منشور ، به يخاطب الشاعر الجماهير ، ويحرص على أن يكون صدى لعواطفهم ومشاعرهم ، وصورة من رأيهم وفكرتهم . وبهذا وحده يضمن الشاعر لقصيدته السيور والذئوع . وتلك هي الغاية التي من أجلها ننشر قصيدته في الصحيفة ليقرأها أكبر عدد من الناس .

ولقد كان لهذه الظاهرة في حياة الشعر المصري الحديث نتائج خطيرة من حيث الأسلوب ونتائج خطيرة من حيث الموضوع . وذلك منذ أصبح الشاعر الحديث لا ينشر شعره في حضرة الأمير وحاشية الأمير ، ويعمل حساباً لهذه الحاشية وحدها غالباً . ولكن أصبح هذا الشاعر الحديث يعني بالجماهير ، ويتقدم في نفسه دائماً أن شعره هذا سيجوب بلاداً كثيرة ، ويصل إلى آفاق بعيدة . فعليه إذن أن يراعي العواطف العامة ، وعليه إذن أن ينسى نفسه في شعره بعض الشيء . ومعنى ذلك أن الشعر الحديث لم يعد قيثارة الشاعر الغنائى يتسلى بها ، ويتخذ منها أداة للتعبير عن مشاعره هو بصرف النظر عن مشاعر الجمهور .

وهكذا فقد الشعر الغنائى الحديث - أو كاد يفقد في الحقيقة - أول شرط من شروطه في الزمن القديم ، وهو (الذاتية) . ومعناها عناية الشاعر بذاته أولاً بدون نظر إلى ذوات الغير .

نعم - كان لهذه الظواهر كلها في حياة الشعر الحديث نتائج خطيرة من حيث الأسلوب ، ونتائج خطيرة من حيث الموضوع :

أما من حيث الأسلوب ، فإن لغة القصيدة ، قربت قرباً ظاهراً من لغة

المقالة . فأوجب الشاعر على نفسه أن تكون ألفاظه سهلة قدر المستطاع ،
والأشتمل قصيدته على ألفاظ غريبة كل الغرابه ، أو معان مستغلة كل
الاستغلاق .

وفي هذا المجال الأخير — مجال الغرابه في اللفظ والمعنى — كان الشعراء
القدامى يتنافسون ، أيهم يأتي بذلك ، فهو الشاعر الذي يروع السامعين .
ثم ان القصيدة الشعرية الحديثة أصبحت توجه الى الجماهير ، وكأنها
خطبة من الخطب . وبدأت عليها خصائص الخطابة : من إيراد أضيأ الخطاب
وأحرف النداء ، الى اكثار من أفعال الأمر وأسماء الإشارة ونحو ذلك .
وسنرى أمثلة كثيرة من كل ذلك في شعر حافظ ، وشوقي ، وغيرهما من
شعراء الحلبة التي سنشير إليها .

وأما من حيث (الموضوع) فقد أصبح كل شاعر حديث يصور عواطف
الأمة المصرية قبل أن يصور عواطفه الخاصة ، ويعبر عن آماله وعن آلامها
أكثر مما يعبر عن آماله وآلامه . ولذلك أصبحنا لا نفهم الشاعر الحديث
الا اذا كانت لنا ثقافة سياسية وتاريخية لا تقل عن ثقافتنا اللغوية والتقليدية .
وبغير هذا وذاك يبخس الشاعر حقه ، ولا تتجاوب معه في كثير أو قليل .

وكذلك الشأن حين نريد أن نحل لما نسميه في أدبنا الحديث (شعر
المناسبات . فان هذه المناسبات ليست غير الحوادث الجارية التي تحدث
للأمة ، وتحرك أفلام الصحفيين فيها يوما بعد يوم ، وتحثهم على الكتابة حثاً ،
ولا تمهلهم عنها حتى يفكروا طويلاً ، أو يستمرموا مع عواطفهم ، خراطهم
ومشاعرهم ، كما يفعل الشاعر أو الأديب المنقطع للأدب وحده .

وكما تثير الحوادث والمناسبات في نفس كاتب الصحف نشاطاً من نوع
خاص ، وتدفعهم الى الكتابة على نحو خاص ، فكذلك تفعل الحوادث
والمناسبات بنفوس الشعراء ، فتضطرم دأماً الى نظم القصائد في كل حادثه
أو مناسبة . ويحس الشاعر في هذه الحالة أن الجمهور ينتظر منه القصيدة ، كما
ينتظر المقال من صاحب الجريدة .

وهكذا اشتركت القصيدة مع المقال في التعبير عما يسمى « بالرأى العام » وكفى بهذا تطورا في عالم الشعر ، وانقلابا في دنيا القصيد ، وكفى به داعيا إلى المساجلات الشعرية التي كثيرا ما تشبه المساجلات الصحفية ، وقد لا تستغنى الصحف ذاتها عن هذين النوعين من المساجلة .

لهذه الاسباب المتقدمة كلها وجدنا القصيدة الشعرية في ادبنا الحديث تسبح في نفس المحيطات التي سبحت فيها المقالة الصحفية .

ومن اهم هذه المحيطات اثنان وهما :

أولا - محيط الإصلاح الاجتماعي .

ثانيا - محيط الحركة الوطنية .

وسنقف عند الموضوع الأول منهما أولا لنرى كيف كان الشعراء تابعين فيه لرجال الصحف . وكيف كان الشعراء يعتبرون أنفسهم افرادا من اسرة الصحفيه دائما ، عليهم ما على الاسرة من واجبات ، ولهم ما لها من أهداف وغايات .

الشعر والإصلاح الاجتماعي

في كلامنا عن القصة الاجتماعية في مصر مهدنا لذلك بذكر مفاسد المجتمع المصري التي لحقتها منذ اتصاله بالحضارة الأوروبية . وكان من ذنوب هذه الحضارة هجومها العنيف على الاسلام ، وإذاعة بعض الاخلاق والعادات التي تنافي أحكامه ، ولا تتفق وروحه . وقد أفضى ذلك بالمصلحين في مصر إلى أمرين :

أولهما - الدعوة إلى الاستمسك بالدين الصحيح ، وتنقية هذا الدين من البدع والخرافات والالوهام التي علقت به .

ثانيهما - محاولة النظر فيما جلبته الحضارة الأوروبية على الشرق من أفكار

وعادات . فما كان منها مفيدا أخذ به ، وما كان منها ضارا مشينا بسمعة مصر والشرق نبذه القوم ، واقبلعوا عنه .

وقد نشر المصالحون دعوتهم هذه في الصحف . وانسع صدر الصحافة يومئذ لألوان كثيرة من الإصلاح . وسنرى في الفصل الذى نتحدث فيه عن المقال كيف احتلت الدعوة الى الإصلاح مكان الصدارة من جميع الجرائد على اختلافها ، وتعدد نزعاتها .

وجاء الشعراء فألقوا من أنفسهم الصف الثانى من صفوف الإصلاح الاجتماعى فى مصر . فكان كلما ارتفع صوت من اصوات المصلحين بمعنى من المعانى أو فكرة من الأفكار ، سمع الناس بعد ذلك صوت الشاعر الذى يردد هذه النغمة نفسها ويستحذ على عقول الجماهير بهذا الصدى بعينه . وآية ذلك أنك لا ترى ديوانا من دواوين الشعر الحديث الا وفيه باب خاص باسم « الاجتماعيات » ، وإذا ذهبت تؤرخ لما اشتمل عليه هذا الباب من القصائد وجدت أن كل واحدة منها نشرت على اثر مقال أو مقالات فى معنى هذه القصيدة بالذات فيدل ذلك على ما سبق ان اشرنا اليه من أن الشاعر كان يعتبر نفسه إذ ذاك فردا من أفراد الاسرة الصحفية ، له ماله ، وعليه ما عليهم من الواجبات الجسام .

والآن لنستمع إلى شاعر من الشعراء ، وهو (محرم) يدعو إلى الاستمسك بالدين فى عصر غلب عليه المروق من الدين ، وصفت القلوب لى داع من الغرب يدعو إلى نبذ الديانة الاسلامية التى أصابت - فى زعمه - الشرق الاسلامى كله بالهزيمة والتأخر . يقول محرم فى هذا المعنى :

تذكر ماضى دينه فتوجعا وأحزنه ما نابه فتوجعا

وأهلكه من قومه أن قومه بعمياء يأتي غيمها أن يقشعا

همو ضيعوا ما استودعوا من نفائس

أراها بأيدى القوم نهبا موزعا

وهم خذلوا الدين القويم وزعزعوا جوانبه حتى وهى وتضعضعا
هو الدين إن يذهب فلا عز بعده وإن جد ساعينا على أثر من سعى
وما زال هذا الاتجاه في الشعر يقوى مع الأيام حتى بلغ أشده عند
شوقي في « نهج البردة » ، وفي الهمزية ، التي مدح بها رسول الله - صلى
الله عليه وسلم ، وفي غيرهما من القصائد التي أصبحت في أيامنا هذه محفوظاً ،
من جميع الناس .

أما تنقية الدين من الخرافات فقد وقع العبء الأكبر في هذه الناحية من
نواحي الإصلاح - كما سنرى بعد - على كتيف الشيخ محمد عبده . ثم تبعه في
ذلك الكتاب والشعراء :

وانظروا إلى (حافظ إبراهيم) وهو يسخر من « أضرحة الأولياء » ،
أحيائنا لا يرزقون بدرهم وبألف الف ترزق الأموات
من لي يحظ النائمون بمحفرة قامت على أحجارها الصلوات
يسعى الانام لها ويجرى حولها بحر النذور وتقرأ الآيات
ويقال هذا القطب باب المصطفى ووسيلة تقضى بها الحاجات (١)
واستمعوا إلى « الكاشف » ، يصور لنا كذلك جهل الناس واتباعهم
لمشايع الطرق :

كل يوم نرى وتسمع مهدياً ينادى في قومه اتبعوني
موهما أنه رسول من الله أتى يستعيد مجد الدين
وهو خال من التجارب والقوة والعلم والهدى واليقين
فإذا التف حولہ الناس أغرا هم بإيقاد كل شركمين
وادعى أنه بذلك مأمور ر من الوحي كالنبي الأمين (٢)

(١) ديوان حافظ ط دار الكتب المصرية من ٣١٨ .

(٢) ديوان الكاشف ج ١ ص ٨٠

أما المفاصد الخلقية التي أتت بها الحضارة الأوروبية فقد نديها شعراء كثيرون، كان من أشهرهم كذلك حافظ إبراهيم . وقد كانت «الازبكية» في نظر ذلك الجيل بؤرة الفساد الذي غرق فيه الشباب المصري إلى أذنيه ، وانفق في سبيله كل ماله . حتى لقد قيل إن بالقطر المصري كذا مليوناً من الأفدنة ، ولكن قطعة صغيرة من الأرض - هي أرض الازبكية - تبذل ربع كل هذه الملايين من الأفدنة . واستمعوا إلى حافظ إبراهيم يخاطب الازبكية بقوله لها :

كم وارت غض الشباب رميته بغرام راقصة وحب هلوك
ألبسته الثوبين في حالهما تيه الغنى وذلة المفلوك (١)

ويقول من قصيدة أخرى في المعنى المتقدم وفي حض الشباب على العمل وترك الكسل (٢)

أنا بته العصر ان الغر يب مجسد بمصر فلا تلعب
يقولون في النشء خير انا وللنشء شر من الاجنبى
أفى الازبكية مشوى البه ين وبين المساجد مشوى الادب؟
وكم ذا بمصر من المضحكا ت كما قال فيها أبو الطيب
فشعب يفتر من الصالحا ت فرار السليم من الاجرب
وصحف تطن طنين الذبا ب واخرى تشن على الاقرب
وقالوا : دخیل عليه العفا ونعم الدخیل على مذهبي
رأنا نياما ولما نفق فشمير للسعى والمكسب
ألفنا الخول وياليتنا ألفنا الخول ولم نكذب الخ

(١) ديوان حافظ إبراهيم ط دار الكتب ص ٣١٤

(٢) نفس المصدر ص ٢٥٧

وفي هذا المعنى الأخير، وهو الحز على العمل وترك الكسل يقول صبرى قصيدته التي أولها :

لا القوم قومي ولا الأعوان أعواني إذا وفي يوم تحصيل العلاواني ومنها :

لا تقربوا النيل إن لم تعملوا عملا فئاؤه العذب لم يخلق لكسلان
وابنوا كما بنت الأجيال قبلكمو لا تتركوا بعدكم غرا لأنسان
وكان من أسوأ آثار الحضارة الأوروبية تعلق الشبيبة المصرية باللغة
الفرنسية، وإيثارهم لها على اللغة العربية، ورميهم هذه اللغة بالقصور عن
مسايرة الحضارة في ركبها، والعلم في تقدمه، فبرز من الأصوف حافظ إبراهيم
يدافع عن العربية - لغة القرآن والسنة - وذلك في قصيدته المشهورة التي
جعل فيها اللغة العربية تمنى حظها بين أهلها وتقول : (١)

رجعت لنفسي واتهمت حصاتي وناديت قومي واحتسبت حياتي
رموني بعقم في الشباب وليتني عقمتم فلم أجزع لقول عدااتي
ولدت ولما لم أجد لعراسي رجلا وأكفاء وأدت بناتي
وسعت كتاب الله لقطا وغاية وما ضقت عن آي به وعظات
فكيف أضيق اليوم عن وصف آلة وتنسيق أسماء لمخترعات ؟
ومن العادات القبيحة التي سرت من الأوروبيين إلى الشرقيين عادة
« القمار » و « المضاربات المالية » ونحوهما من العادات الأجنبية . وقد رأيتهم
في الكلام عن « القصة الاجتماعية » كيف أخذت الصحف الشعبية تحارب
هذه الادواء محاربة لا هوادة فيها : وقد كان لزاما على الشعراء أن يفعلوا مثل
ذلك . وهذا أحدهم - وهو الشيخ نجيب الخداد يقول في ذم القمار (٢) :
هو الداء الذي لا برء منه وليس لذنب صاحبه اعتقار
تشاد لهم المنازل شاهقات وفي تشييد سناحتها الدمار

(١) المصدر المتقدم ص ٢٥٣

(٢) عادل الغضبان : الشيخ نجيب الخداد ص ٥٧

يصيب النازلين بها سهاد
قد اختصروا التجارة من قريب
فبئس المال لا تحظى يمين
به حتى تسلمه اليسار
ويصف الشاعر (عائلات) المقامرين فيقول :

فكم تركوا النساء تبیت تشكو
تبیت على الطوى ترجو وتحشى
فبئست عيشة الزوجات حزن
وتسعدھا الاصبیبة الصغار
یورقها السهاد والانتظار
وتسید وهجر وافتقار الخ

* * *

وظهر كتاب قائم أمين (تحرير المرأة) ، ونشره الكاتب فصولاً متتابعة بصحيفة المؤيد ، وكان له تأثير كبير في الأدب كما رأينا . ومنذ ذلك الوقت والشعراء يتبعون قائم أمين في الدعوة إلى تعليم الفتاة ، وكلما أنشئت مدرسة للبنات انتهنها الشعراء فرصة لاطراء هذا الاتجاه . من ذلك ما قاله حافظ احتفالاً بإنشاء مدرسة البنات ببونـ سعيد عام ١٩١٠ . (١)

كم ذا يكابد عاشق ويلاقى
إلى لأحمل في هواك صباية
من لى بتربية النساء فانها
الأم مدرسة اذا أعددتها
الأم روض إن تعده الحيا
الأم استاذ الأساتذة الآلى
في حب مصر كثيرة العشاق
يامصر قد خرجت عن الأطواق
في الشرق علة ذلك الاخفاق
أعددت شعباً طيب الاعراق
بالرى أورك أيما إراق
شغلت مآثرهم مدى الآفاق
ومنها :

لبست نسأؤكمو حل وجواهرها
ليست نسأؤكمو أناثا يقتنى
تشكل الأزمان فى أدوارها
ألا — وما أشبه هذه الانفاظ والمعانى بمشيلاتها فى مقالات قائم أمين ولطفى السيد وطلعت حرب ومن اليهم .

* * *

وشم دعوة من دعوات الاصلاح ترمى الى العطف على الطبقات الفقيرة

والانسانية المعذبة على حد تعبير الصحف في وقتنا الحاضر . كالعطف على
الفلاح والعامل ، والشفقة على اليتيم والمسكين ، والاعمى ، والاصم ،
والمطالبة لهؤلاء جميعا بحقوقهم على الحكومة وعلى الشعب ، من نحو انشاء
الملاجيء والمستشفيات والمعاهد التي تعنى بالشواذ من الناس ونحو ذلك .

وساكتفى بأن أضرب هنا مثالا واحدا فقط ، من شعر حافظ ، وهو
قوله في حفل اقامته (جمعية رعاية الاطفال) . بدار الاوبرا . وذلك في ١٨ ابريل

سنة ١٩١٠ (١)

شبهنا أرى أم ذاك طيف خيال	لا بل فتاة بالعرام حياى
أمتت بمدرجة الخطوب فما لها	راع هناك وما لها من والى
حسرى تكاد تعيد فحمة ليها	نارا بأنات ذكين طوال
ما خطبها ؟ عجبنا - وما خطبى بها	مالى أشاطرهما الوجيعة مالى ؟
دانيتها ولصوتها فى مسمعى	وقع النبيل عطفن إثر نبال
وسألتهما من أنت ؟ وهى كأنها	رسم على طلل من الاطلال
فتململت جزعا وقالت : حامل	لم تدر طعم الغمض منذ ليالى
قدات والدها وماتت أمها	ومضى الحمام بعمها والخال الخ

وسرت دعوة العطف على الطبقات الفقيرة فى الصحف والمجلات ، وأقبل
الشعراء يحتذون الكتاب فى ذلك : ، وطفقوا يأخذون معانى الكتاب فى
كل ذاك . وانظر هنا إلى شعر شوقي فى همنيته التى مدح بها رسول الله صلى
الله عليه وسلم إذ يقول :

الاشترأكون أنت إمامهم	لولا دعاوى القوم والغلواء
أنصفت أهل الفقر من أهل الغنى	فالكمل فى حق الحياة سواء
فلو أن إنسانا نخير ملة	ما اختار إلا دينك الفقراء الخ

فأين هذا كله من معانى الشعراء القدماء ؟ أن هذا لمن وحي الصحافة وحدها

وأنه لمن بعض ألفاظها وأساليبها ، وأنه لأبعد ما يكون من قول شاعر كجبر :
 وإني لعف الفقر مشترك الغنى

سريع إذا لم أرض دارى انتقاليا

أما مشروع (الجامعة المصرية) - وهو أثر من آثار (دشواي) - فقد نادى به مصطفى كامل بعد هذا الحادث إذ ما كاد يهزم الانجليز هزيمة نكراء في هذه القضية حتى تحمس الزعيم الشاب للإصلاح الاجتماعى وأعلن فى مطالبه الوطنية التى كان من أهمها يومئذ مشروع الجامعة .

قال حافظ فى قصيدة له ألقاها فى المحفل الماسونى لمشروع الجامعة المصرية . وذلك فى ١٩ مارس سنة ١٩٠٧ وفى هذه القصيدة يتدد حافظ بسباسة الاحتلال التى قامت على العناية فقط بالإكثار من الكتاتيب العامة (١) ان كنتموا تبدلون المال عن رهب ذر الكتاتيب منشيها بلا عدد فأنشأوا ألف كتاب وقد علموا هبوا الاجير أو الحراث قد بانها من المداوى اذا ما علة عرضت ومن بروض مياه النيل ان جمحت ومن يوكل بالقسطاس بينكمو ومن يميظ ستار الجهل ان طمست فما لكم أيها الاقوام جامعة

ذر الرماد بعين الحاذق الأدب أن المصاييح لا تغنى عن اللهب حد القراءة فى صحف وفى كتب من المدافع عن عرض وعن نشب؟ وأنذرت مصر بالويلات والحرب؟ حتى يرى الحق ذا حول وذا غاب؟ معالم القصد بين الشك والريب؟ الا بجامعة موصولة النسب النخ

وقد شغل المجتمع المصرى زمانا بضائقة من القضايا السياسية والاجتماعية كتبت عنها الصحف الشعبية ، وشغلت بكتاباتهما الرأى العام ، واصبحت حديث الخاصة والعامة فى تلك الايام .

ومن هذه القضايا على سبيل المثال : قضية الزوجية للسيد على يوسف (٣)

(١) المصدر السابق ص ٢٦٥

(٢) فى هذا البيت سخريه من سياسة اللورد كرومر التى قضت بتسخير العمدة والمشايخ والأعيان لجمع المال بالقوة بحجة إنشاء الكتاتيب .

(٣) اقرأ عنها فضلا مسهبيا فى كتاب أدب المقالة الصحفية فى مصر للمؤلف ج ٤ ص ١١٠-١٢١

وقضية التفرقات للمؤيد ، وقضية المنشاوي ، وقضية النديم الخ
ونحن نقول دائما ان الشعر كان لا يسهه السكوت عن المشاركة في كل
ما يتصل بالمجتمع . شأنه في ذلك شأن الصحافة سواء بسواء . ومنضرب
هنا مثلا واحدا فقط من شعر حافظ في قضية الزوجية التي أشرنا اليها
و خلاصة هذه القضية أن السيد علي يوسف صاحب - المؤيد أراد
أن يصهر إلى بنت من أعرق البيوتات المصرية ، هو بيت السادات . وتم
عقد الزواج في ١٤ يوايه سنة ١٩٠٤ . فلما علم والد الزوجه - هو السيد
عبد الخالق السادات - بهذا العقد الذي تم بمنزل السيد توفيق البكري رفع
دعوة التفرقة بين الزوجين ، مدعيا عدم أهلية السيد علي يوسف لابنته .
ومنذ ذلك التاريخ اتخذت هذه القضية موعا من الأهمية . وذلك لأسباب
أربعة نجملها فيما يلي :

أولا - أن القضية مست من قريب أعز شيء على نفوس المصريين
وهو التقاليد .

ثانيا - أن الوكالة البريطة فيه - لأمر ما - أقحمت نفسها في الموضوع
ومالت إلى جانب السيد علي يوسف ، ظنا منها أنها تكسب المؤيد إلى صفها ،
كما كسبت من قبل جريدة المقطم .

ثالثا - أن موقف القضاء الشرعي من هذه القضية كان أميل إلى النزاهة
والعدل مما أثار حمية المسلمين من المصريين ، وحرك إعجابهم ، واستولى على
مشاعرهم .

رابعا - أن التحقيق في هذه القضية تعرض لموضوع هام يتصل
بالصحافة أقوى اتصال ، وهو قيمة الرجل الذي يحترف الصحافة في مصر ،
وهل مهنة الصحافة من المهن التي تستحق الاحترام من حيث هي ؟
من أجل هذه الاعتبار المتقدمة نظر الناس إلى هذه القضية على أنها
سياسية ، واجتماعية ، وصحفية في وقت معاً .

وأشار إليها حافظ - كما قلنا - في بعض قصائده فقال (١)
وقالوا (المؤيد) في غمرة رماه بها الطمع الأشعبي
دعاة الغرام بسن الكهـ ل فجن جنونا ببنت النبي

ه وضج لها القبر في يثرب
وقالوا : تلون في المشرب
ت ألوا تدور مع الأحقـب
ل أغار على النسب الأنـجب
بحكم أحد من المضرب (١)
تساقط كالمطر الصيب
تزف البشائر في موكب
وساما يليق بصدر الأبى الخ

فضج لها العرش والحاملو
ونادى رجال باسقاطه
وعدوا عليه من السيـنا
وقلوا لصيق بنت الرسـو
وزكى (أبوخطوة) قولهم
فما للتهاني على داره (٢)
وما للوقود على بابـه
ومـا للخليفة أسدى إليه

وخفت الصحف للكتابة في هذه القضية الشرعية لأنها مست
العواطف المصرية ، ولأن صاحب المؤيد تخطى فيها بعض التقاليد القومية . ثم
أتى الشعراء فعز عليهم إلا تكون لهم مشاركة قوية في هذه المسألة ، فاكثروا
من القول فيها : منهم من كان في صف صاحب المؤيد ومنهم من وقف ضده
وناصبه العداء ، وأظهر فيه الشبهة .

ومن هؤلاء الذين شتموا فيه إبراهيم الأنويلحي صاحب جريدة (مصبح
الشرق) وغيره (٣)

* * *

إيه — ربة الشعر — لقد كنت في الأزمان السابقة تعيشين في قصر من
ذهب ، وذلك في كنف أمير أو وزير ، أو قائد خطر ، وكنت لا تنزل إلى
الدهماء في بيوتهم وأسوافهم إلا نادرا . وإذا نزلت إليهم عدوا ذلك عيبا
عليك ، وخطأ منك !

أما اليوم فقد خرجت — ربة الشعر — من هذا القفص ، ومشيت مع
العامة في النوادي والطرق ، وأحسست لذة لا تعد لها لذة في هذه الحياة
الجديدة التي جاريت فيها الصحف .

إيه — ربة الشعر — لقد كنت في الأزمان السابقة تكافين بالمدح ،
وبالثناء الذي هو نوع من المدح أيضا ، وكنت تمدحين الأمير وحاشية الأمير
وكنت كثير ما تقفين موقف الزلنى والخضوع والملق والرياء لهؤلاء جميعا .

(١) الشيخ أبوخطوة هو القاضي الذي حكم في قضية الزوجية

(٢) الضمير عامد على السيد علي يوسف

(٣) ومن هؤلاء كذلك اسمعيل صبرى ، وولي الدين يكن ، وأحمد نسيم .

أما اليوم فقد أصبح للمدح أو الرثاء عندك معنى جديد ، وصورة جديدة أصبحت تمدحين الفرد على أنه جزء من المجتمع ، وأصبحت ترثين الفرد لأنه كذلك جزء من هذا المجتمع .

ومن ثم غدت قصيدة المدح في العصر الحديث وكأنها أشبه شيء بالخطبة التي تلقى في المحافل العامة على عدد كبير من الجمهور . وبعد أن كان المدح في العصور التي سبقت هذا العصر الحديث يراد به الحصول على المال ، والزلفى إلى ذوى الجاه والسلطان أصبح المدح في العصر الحديث لا يراد به إلا إرضاء الجماهير التي تشارك الشاعر والصحافي في تقديره الزعيم ، أو العظيم ، أو الرجل الخطير ، من أجل أنه كان يؤدي لأمته خدمة عجز عنها غيره من المواطنين القادرين ٢٩

لقد بدأنا نرى في هذه القصيدة المدح في العصر الحديث كأنها أشبه شيء بالخطبة التي تلقى في المحافل العامة على عدد كبير من الجمهور . وبعد أن كان المدح في العصور التي سبقت هذا العصر الحديث يراد به الحصول على المال ، والزلفى إلى ذوى الجاه والسلطان أصبح المدح في العصر الحديث لا يراد به إلا إرضاء الجماهير التي تشارك الشاعر والصحافي في تقديره الزعيم ، أو العظيم ، أو الرجل الخطير ، من أجل أنه كان يؤدي لأمته خدمة عجز عنها غيره من المواطنين القادرين ٢٩

تأثر بها الشعراء في ذلك الحين (١) في قوله ما ريت : فقال ابن عباس (٢)
٧٢ في بستان (٣)
٢٢١ في بستان (٤)
١٢ في بستان (٥)

V

شعر الحركة الوطنية وعلمته بالصحافة

تعلون أن الزعيم الشاب - مصطفى كامل - هو بحق باعث الحركة الوطنية في مصر . وما كانت الحركات التي حدثت قبل ذلك - في واقع الأمر - إلا حركة دستورية من جانب وحركة قومية من جانب آخر . وليس أحد هذين المعنيين هو المقصود بكلمة الحركة الوطنية في محاضرة اليوم .

من أجل ذلك صحب الحركة الوطنية طائفة من الشعراء . من أهمهم اسمعيل صبرى ، وحافظ إبراهيم ، وأحمد شوقي والغاياتي ، ومحرم ، والكاشف . أما الشعر الذي ظهر قبل ذلك فلم يكن الا هتافا بحب الوطن حيناً - كما كان الشأن مع رفاعه رافع الطهطاوى (١) وحنينا الى الوطن وشوقا اليه حيناً آخر ، كما كان الشأن مع البارودى (٢) وإشادة بعظمة الوطن ، وإثارة لهمم أبنائه حيناً ثالثاً . - كما كان الشأن مع عبد الله النديم (٣) ونفدا لسياسة اسمعيل حيناً رابعاً - كما كان الشأن مع صالح مجدى (٤) وهو أحد تلاميذ رفاعه الطهطاوى . وليس هذا كله من الشعر المتصل بالحركة الوطنية التي بعثها مصطفى كامل .

ومع هذا وذاك فلا بأس من ايراد أبيات لصالح مجدى ، على سبيل المثال :
قال في اسمعيل وهو في سطوته وجبروته قبل عزله عن حكم مصر :
رمى بلادكمو في قعر هاوية من الديون على مرغوب جو سيار (٥)
والمرء يقنع في الدنيا بواحدة من النساء ولم يقنع بمليار
ويكتفى ببناء واحد وله تسعون قصرأ بأخشاب وأحجار
فاستيقظوا لا قال الله عثرتم من غفلة ألبستكم ذلة العار الخ

(١) عبد الرحمن الرافعى : شعراء الوطنية ص ٩

(٢) نفس المصدر ص ٢٧

(٣) نفس المصدر ص ٢٧

(٤) الاتجاهات الوطنية : لمحمد حسن ص ١٣٦

(٥) لعل جو سيار اسم لأحد مستشارى اسماعيل من الأجانب

وصالح مجدى كذلك هو القائل في استهزاء الهمم ضد التدخل الاجنبى
في مصر في عهد اسماعيل :

فلو كان فينا نخوة عربية
فيآل مصر لا تناموا ودافعوا
أمن بعد ما كنتم شמוש معارف
وعشتم بذل بعد جاه وعزة
لما كنا على أعدائنا بالصوارم
عن الدين والأوطان أهل المحارم
كسفتهم وأصبحتهم شبيهه البهائم
ودارت عليكم دوائر المظالم (١)
والحق أن الحركة الوطنية في مصر بدأت عقب تولية الخديوى عباس
حلى الثانى سنة ١٨٩٢ ، أو عقب نشوب الخلاف بين السلطة الشرعية ممثلة
فى هذا الأمير ، والسلطة الفعلية ممثلة فى اللورد كرومر . وكان طبيعيا أن
ياخذ الشعب المصرى بمختلف طبقاته جانب الخديو ضد المعتمد البريطانى .
وتقوى الخديو بهذا العطف الذى نقيه من الشعب ، وأخذ يعارض اللورد
كرومر فى كثير من آرائه وقراراته أول الأمر . وشهر الأخير منذ اللحظة
الأولى بذلك ، فكتب إلى اللورد سالسبورى - وزير الخارجية الإنجليزىة
يومئذ - يقول :

« إنى أرى أن الخديو الشاب سيكون مصر بآجتها » (٢) ومعنى ذلك أن عباس
سيكون من طراز آخر غير طراز والده توفيق الذى كان العوبة فى أيدي الإنجليز !

الاتفاق الودى

وبقى عباس مخلصا للحركة الوطنية الى أن حدثت الكارثة العظمى بالاتفاق
الودى بين انجلترا وفرنسا سنة ١٩٠٤ وفى هذا الاتفاق يقول حافظ إبراهيم
معبرا عن يأسه ويأس المصريين الذين أخذوا يتذبذبون بين الأمير والسفير :
حطمت اليراع فلا تعجى
فما أنت يا مصر دار الأديب
وكم فيك يا مصر من كاتب
(وفى هذا إشارة إلى أن الكتاتيب الصحفيين أصابتهم نكسة صحفية
تأثر بها الشعراء فى ذلك الحين)
فلا تعذلىنى لهذا السكو
ت فقد ضاق بى منك ما ضاق بى

أيعجبني منك يوم الوفا
وكم غضب الناس من قبلنا
أمور تـر وعيش يمر
وهذا يلوذ بقصر الامير
وهذا يلوذ بقصر السيف
وهذا يصيح مع الصائح

ق سكوت الجاد ولعب الصبي
لساب الحقوق ولم تنضي
ونحن من اللهو في ملعب
ر ويدعو إلى ظله الأرحب
ير ويطلب في ورده الأعذب
ير على غير قصد ولا مأرب (١)

ومنذ ذلك الوقت تنكب الأمير الشاب عن الطريق ، وشهر بقوة
الانجليز ، وأخذته رهبة منهم ، فأثر السلامة والعافية . ولم يكتف بذلك حتى
وعز إلى شاعره يومئذ (أحمد شوقي) فنشر حديثنا (بالمؤيد) سنة ١٩٠٨
يعتذر فيه بلسان الامير عن إصدار الدستور لأن الأمة لم تبلغ بعد من النضج
الصحيح ما يؤهلها للدستور . ولأن الامير أصبح لا يستطيع أن يصدر الدستور
بغير رضا الانجليز ، . وإذ ذاك انبرى للامير وشاعره معاً شاعر
الوطنية المصرية يومئذ ، وهو الغياقي فقال (٢)

أعباس هذا آخر العهد بيننا
أبرضيك فينا أن نكون أذلة
وأرضيت أعداء البلاد وخصمها
رويدك يا عباس لا تبلغ المدى

فلا تخش منا بعد ذاك عتابا
ننال إذا رمنا الحياة عقابا
وأصليتنا بعد الوفاق عذاباً
ولا تستمع للظالمين خطابا الخ

مطبوعة بمصر

والحق أن محنة عباس جاءتته كذلك من ناحية نظاره ، وكان يتولى
سفينة الحكم في هذا البحر الهائج المتلاطم طائفة من النظار الذين وزروا له .
وكان بعضهم يخضعه الخوف ، وبعضهم يخضعه المال ، وبعضهم يكتف في نفسه
حسن الرأي . وكان من اولئك النظار مصطفى فهمي ، ومصطفى رياض ،
ونوبار ، ويطرس غالي ، (٣)

(١) ديوان حافظ ابراهيم ص ٢٥٦

(٢) ديوان الغياقي (وطني) ص ٦٨

(٣) أدب المقالة الصحفية في مصر ج ٤ ص ١٥

خطب أحدهم - وهو رياض - في حفل أقيم بمناسبة إنشاء مدرسة محمد علي الصناعية (١) خطبة طويلة أثني فيها على اللورد كرومر ، وأمسد إليه وحده الفضل فيما أصاب مصر من تقدم . وعلق السيد علي يوسف في (المؤيد) على هذه الخطبة الغريبة فقال : إن العادة جرت أنه إذا شرف الاحتفال الجناح العالي أمير البلاد المعظم اقتصر الخطباء - رسميين أو غير رسميين - على ذكر العناية الإلهية التي شملت هذا المشروع من سموه . ولا تذكر يد سواها معها بالشكر والثناء .. الخ ، (١)

ومنذ قرأ الناس هذا المقال بجريدة المؤيد وأصبح له صدى ما في الرأي العام انبرى الشعراء ، وخاصة منهم شاعر القصر - يعبرون بقصائدهم عن هذا المعنى . وشاعر القصر إذذاك هو « شوقي » الذي قال بعنوان « خاتمة رياض » (٢)

برغمي أن أنالك بالملام
خرجت من الوقار والاحتشام
وقالوا : رمية من غير رام
وهم غمروك بالنعيم الحسام
فكيف اليوم أصبح في الرغام
أضيف إلى مصائبنا العظام
وجرحك منه لو أحسست دام
وما أغناك عن هذا الترامى
يليق بحافل الماضي الهمام
ويدعو الرابضين إلى القيام
سراهمو عوامل الانقسام
أتى الكبراء أفعال الطغام الخ

كبير السابقين من الكرام
لقد وجدوك مفتونا فقلوا
وقال البعض : كيدك غير خاف
غمرت القوم أطرام وحدا
رأوا بالأمس أنفك في الثريا
خطبت فكنت خطبا لا خطيبا
لهجت بالاحتلال وما أناه
وما أغناه عن قال فيه
فهلأ قلت للشبان قولا
يبث تجارب الأيام فيهم
وكيف ينال عون الله قوم
إذا الاحلام في قوم تولت

* * *

حادثة دنشواى

تم فى حادثة دنشواى سنة ١٩٠٦ بلغت الحركة الوطنية أشدها واتخذ مصطفى كامل من محاكمة الأبرياء فى هذه القضية فضيحة كبرى لانجاسته وكان اليأس من الاحتلال قد ملاً صدور المصريين جميعاً منذ الاتفاق الودى . ومن ثم سكنت بعض الصحف الوطنية عن هذا الحادث نوعاً ما . لا تستنى منها غير جريدة اللواء وجريدة المريد . وكانت الأخيرة منهما تتحدث فى شيء من التعقل والرزانة كعادتها . وكانت الأولى جريئة كل الجراءة . ومع هذا وذاك فقد كان للمقالات التى نشرت هنا وهناك تأثير بالغ فى الشعور المصرى لتلك الفترة . فكان من الشراء من يتحدث فى شعره عن دنشواى بشيء من الاجتياط أو الرجاء أو الخوف من قوة الاحتلال . ومنهم من كان يتحدث بجرأة أكثر من هذا القدر ، ولكن هذه الجرأة لم تظهر إلا بعد خروج اللورد كرومر من مصر . على أن أحداً من الكتاب أو الخطباء أو الشعراء أو الأدباء لم يتحدث عن دنشواى بحماسة وطنية بالغة كما اتى تحدث بها مصطفى كامل (١) . ومن ثم سلمت له زعامة الحركة الوطنية فى مصر . فما قاله اسمعيل صبرى يصف حادثة دنشواى ، ويشكر الخديو على العفو الذى أصدره عن مسجونى هذه القضية (٢)

وأقلت عشرة قرية حكم الهوى	فى أهلها وقضى قضاء أخرق
وارحمنا لجناهم ماذا جنو	وقضاتهم ما عاقهم أن يتقوا
ما زال يقذى كل عين مارأو	فيها ويؤذى كل سمع مالقوا
حتى حكمت فجاء حكمك آية	للناس طى صحيفة نتألق
شكرتك مصر على سلامة بعضها	شكرا يغرب فى الورى ويشرق
ذكرت لك الصفح الجليل ولم تزل	ترمى إلى أمر أجل وترمق الخ

(١) لمن أراد أن يعرف كيف كتب مصطفى كامل فى هذا المعنى أن يقرأ مقالاته المشهورة بعنوان: (إلى الأمة الانجليزية والعالم المتمدن) وقد كتبها باللغات الأوروبية. ثم نشرها بالعربية فى صحيفة اللواء بتاريخ ٢٨ يوليو سنة ١٩٠٦ — راجع أدب المقالة الصحفية فى مصر ج ٥ ص ١٨٢-١٩١

(٢) عبد الرحمن الرافعى : شعراء الوطنية ص ٣٢

وبما قاله حافظ ابراهيم في هذه الحادثة أيضا وفيه سخرية :

ايها القائمون بالامر فينا
هل نسيتم ولا منا والودادا
خففصوا جيشكم وناموا هنيئا
واذا اعوزتكمو ذات طوق
انما نحن والحمام سواء
لا تظنوا بنا العقوق ولكن
جاء جهالنا بأمر وجئتم
احسنوا القتل إن ضمنتكم بعفو
بيت شعري أنلك محكمة التفتة
كيف يحلو من القوى التشفي
أكرمونا بأرضنا حيث كنتم
إن عشرين حجة بعد خمس
امة النيل أكبرت أن تعادي
ليس فيها الا كلام والا

وفي اكتوبر سنة ١٩٠٦ عاد اللورد كرومر إلى مصر من اجازته التي قضاه في انجلترا . فاستقبله حافظ ابراهيم بقصيدة ذكر فيها حوادث دنشواي قائلا (١)

قصر الدوباره هل أناك حديثنا
أهلا بسا كنك الكريم ومرحبا
ان صاق صدر اليل عما هاله
أو كلما باح الحزين بأنة
رفقا عميد الدولتين بأمة
رفقا عميد الدولتين بأمة

فالشرق ربع له وضج المغرب
بعد التحية إننى أفتب
يوم الحمام فان صدر أرحب
أمسيت إلى معنى التعصب تنسب
ضاق الرجاء وضاق المذهب
ليست بخير ولائها تعذب

للقوت لا للمسلمين تعصبوا
وسخا بمهجته على من يفضب
لعب القضاء بنا وعز المهرب
فتسابقوا في صيدهن وصوبوا
لو كنت حاضرأمرهم لينكبوا الخ

إن أرهقوا صيادكم فلعهم
ولربما ضن الفقير بقوته
في دنشواى وأنت عنا غائب
حسبوا النفوس من الحمام بديلة
نسكبوا وأفقرت المنازل بعدهم

ومر عام على حادثة دنش-وادى فنظم شوقي قصيدة في ذكرها

منها قوله: (١)

ذهبت بانس ربوعك الأيام
هيات للشمل الشتيت نظام
ومضى عليهم في القيود العام
وبأى حال أصبح الأيتام
أم في البروج منية وحمام ؟
لعرفت كيف تنفذ الأحكام
شعبا بوادى النيل ليس ينام
سحرا وبين فراشه الاحلام
ضجت لشدة هوله الاقوام
متوحدات والجنود قيام
وعلى وجوه الشاكلات رغام الخ

يادنشواى على رباك سلام
شهداء حكمك في البلاد تفرقوا
مرت عليهم في اللحد أهلة
كيف الأرامل فيك بعد رجائها
ياليت شعرى في البروج حمام
فيرون لو أدركت عهد كرومر
نوحى حمام دنشواى وروعى
إن نامت الأحياء حالت بينه
متوجع يتمثل اليوم الذى
السوط يعمل والمشاق أربع
وعلى وجوه الشاكلات كتابة

عزل كرومر من مصر

واستقال اللورد كرومر - أو أقبل - من منصبه عام ١٩٠٧ ، فكان هذا
نصراً كبيراً لمصطفى كامل والحركة الوطنية .، وكان ذلك يوماً عظيماً قالت فيه
الصحافة كلامها ، وقال الشعراء فيه كلامهم كذلك .

أما الصحافة فكانت من أظهر كلماتها يومئذ مقالات السيد على يوسف
المشهورة باسم « قصر الدوبارة بعد يوم الأربعاء » . ومن جملة تآردي صاحب

المؤيد على خطبة الوداع التي ألقاها اللورد كرومر في دار الأوبرا المصرية .
ولعل هذه المقالات والرد على الخطبة تعتبر من أقوى المقالات النزالية في
تاريخ الصحافة المصرية إلى اليوم .

وأما الشعراء فكان أجراًهم على اللورد ، وأعظمهم شمتاً به يومئذ شاعر
مصر أو القصر أحمد شوقي . وهو صاحب هذه القصيدة التي فيها يقول :

أيامكم أم عهد اسماعيل	أم أنت فرعون يسوس النيل
أما حاكم في أرض مصر بأمره	لا سائلاً أبداً ولا مسؤولاً
يا مالـكـار ق الرقاب ببأسه	هلا اتخذت إلى القلوب سبيلاً
لما رحلت عن البلاد تنهدت	فكأنك الداء العيـاء وببـيـلا
أذنتنا رقا بدوم وذلة	تبقى وحالا لا ترى تحويلاً
أحسبت أن الله دونك قدرة	لا يملك التغيير والتبديلاً ؟
قالوا جلبت لنا الرفاهة والغنى	جحدوا الإله وصنعه والنيل
وحياة مصر على زمان محمد	ونروضها من عهد اسماعيل
في كل تقرير تقول : خلقتكم	أفهل نرى تقريرك التنزيلاً
فارحل باذن الله جل صنيعه	مستعنياً إن شئت أو معزولاً
إنا تمنينا على الله المني	والله كان بنيان كفيلاً

والمهم هنا أن نقول ان تلك المعاني التي عبر عنها الشعراء في ذلك الحين
كانت مأخوذة أخذاً دقيقاً من المقالات التي كان يكتبها الزعماء الوطنيون
والصحفيون . فجميع ما قيل من المعاني في حادثة دنشواي كان صدى لكلمات
مصطفى كامل في اللواء . وجميع ما ورد من الأفكار في وداع اللورد كرومر
أو الشمتاء فيه لم يكن غير صدى للسيد علي يوسف في مقالاته المشهورة باسم :
« قصر الدوبارة بعد يوم الأربعاء » .

وسأضرب لكم مثلاً واحداً . يقول شوقي مخاطباً كرومر :
يامالـكـا ر ق الرقاب ببأسه هلا اتخذت الى القلوب سبيلا
فان هذا البيت ليس الا صدى لاحدى مقالات السيد علي يوسف التي
اشرت اليها . وعنوان المقالة « الطوب أم القلوب »

وسياتى ذكرها - إن شاء الله - عند الكلام عن (الصحافة وتطور فن المقال) (١)

وفاة مصطفى كامل

توفي الزعيم الشاب مصطفى كامل سنة ١٩٠٨ فكان موته حادثاً وطنياً كبيراً حرك مشاعر الكتاب والشعراء والخطباء ، وألهب حماسهم . وتنافس الشعراء منهم بوجه خاص في رثاء هذه الشخصية التي خلقت في مصر ما يسمى بالحركة الوطنية ، والرثاء بطبيعته أقرب إلى الشعر منه إلى النثر . ومن ثم أجاد الشعراء في رثاء مصطفى كامل بأكثر من أجاد الكتاب . ومن أولئك الشعراء صبرى وشوقي وحافظ وخليل مطران وغيرهم .

ويطول بنا القول لو أردنا أن نأتى بجميع المراثى التي قيلت في مصطفى كامل . فحسبنا إذن أبيات قليلة من تلك المراثى على سبيل المثال :

وصل جثمان الفقيد إلى مقره الأخير ، فوقف الشاعر اسمعيل صبرى وحاول أن يلقي قصيدة في رثائه . ولكنه لم يكدهم يلقي البيت الأول :

أدعى الاسبى في مصر ويحك داعياً هددت القوى إذقت بالاسم داعياً
حتى غلبه البكاء وعجز عن المضى في القاء القصيدة . وكان من أبياتها قوله :

ألا علماني بالتعازى وأقنعا فؤادى أن يرضى بهن تعازيا
وإلا أعيناني على النوح والبكا فشانك شأنى وما بكما بيا
وما نافعى أن تبكيا غير أنى أحب دموع البر والمرء وافيالرخ

ونشر شوقي رثاءه للفقيد بعد ثلاثة عشر يوماً من وفاته . ومن قوله يومئذ (٢)

المشرقان عليك ينتجبان يا خادم الاسلام أجز مجاهد
لما نعت إلى الحجاز مشى الاسبى إن كان للأخلاق ركن قائم
قاصيهما في مأتم والدانى ! فى الله من خلد ومن رضوان
فى الزائرين وروع الحرمان فى هذه الدنيا فانت البانى

(١) انظر أدب المقالة الصحفية في مصر ج ٤ ص ١٥٠

(٢) شعراء الوطنية : عبد الرحمن الراعى : ص ١٤٨

جملت لها الاخلاق كالعنوان
قصر يريك تقاصر الاقران
إن الحياة دقائق وثوان
فالذكر للانسان عمر ثانى الخ

المجد والشرف الرفيع صحيفة
وأحب من طول الحياة بذلة
دقات قلب المرء قائمة له
فارفع لنفسك بعدموتك ذكرها

ورثي الشاعر حافظ ابرهيم فقيد الوطنية المصرية بقصيدة منها :

فكبر وهلل وألق ضيفك جائيا
شهيد العلا في زهرة العمر ثاويا
لكان الناسي من جوى الحزن شافيا
وهيات أن يأتي به الدهر ثانيا
واين الحجا والرأى ويحك هاهيا
فقد أسكت الصوت الذي كان عاليا
يرن كما قد كان بالإمس داويا
فلا تهدموا بالله ما كنت بانيا
على العهد ما دمتا فم أنت هانيا الخ

أيا قبر هذا الضيف أمال أمة
عزيز علينا أن نرى فيك مصطفى
أيا قبر لو أنا فقدناه وحده
ولكننا فقدنا كل شيء بفقده
فيا سائلي أين المروءة والوفا
هنيئا لهم فليأمنوا كل صائح
شهيد العلا لا زال صوتك بيننا
يهيب بنا : هذا بناء أقمته
أجل أيها الدعي الى الخير إننا

وألقي الشاعر خليل مطران في رثاء الفقيد قصيدة طويلة اربت على

مائة بيت ومنها .

وأرى ترابك من حنين قد هفا
وكأنني بك موشك أن تهتفا
بلغ الفداء نزاهة وتعففا
من شملها مالم يكن ليؤلها
لا مفترى فيه ولا متكلفا (١)
بك ذنب مصر كما رجوت وقد عفا

مصر العزيزة قد ذكرت لك اسمها
وكأنني بالقبر أصبح منبرا
مصر التي أحبتها الحب الذي
حتى مضيت كما ابتغيت مؤلها
كهواك للاوطان فليكن الهوى
فارقد رقادك ان ربك قد محا

على أن الشعراء لم يكتف كل منهم بقصيدة واحدة في هذا المعنى ،
بل ان منهم من نظم قصائد كثيرة في رثاء مصطفى . وذلك فضلا عن
القصائد التي كانت تظهر في يوم ذكرى وفاته من كل عام ، ويتهز الشعراء

هذه الفرصة ليستعرضوا أحداث الوطن ، وليبحثوا قاداته وزعماءه على الإخلاص له والجهاد في سبيله كما جاهد ذلك الرجل .

وصف المرحوم قاسم أمين جنازة الزعيم الشاب مصطفى كامل فقال :

« هذه هي المرة الثانية التي رأيت فيها قلب مصر يخفق :

المرة الأولى كانت يوم تنفيذ حكم دنشواي . والمرة الثانية يوم

الاحتفال بجنازة صاحب اللواء ، (١)

كان الشاعر في العصور السابقة يكتفى بأن يرثي فقيد العشيرة أو القبيلة أو المدينة أو الأمة مرة أو مرتين يفرغ فيهما كل ما في جعبته - على حد تعبير القدماء - من معاني الرثاء . أما الشاعر في العصور الحديثة فقد سن لنفسه سنة جديدة ، هي رثاء الفقيد في يوم ذكراه من كل عام ، وإنما جاءته هذه السنة من محاكاته للصحف ، وتقليده للكتاب الصحفيين .

على أن مرأى العظماء شغلت حيزاً كبيراً من دواوين الشعراء . وكانت هذه الحركة في ذاتها مسابقة من الشعر للصحافة ، ومجارة لها في الميدان الوطني أو السياسي . فقد كانت الحركة الوطنية بحاجة دائماً إلى من يلقي في أنونها الوقود بين الحين والحين ، ليزداد الآتون لها ، فتزداد المشاعر قوة . وكان موت عظيم أو زعيم يقع من النفوس موقعا أليماً ، ويزيدها بالوطن تعلماً ، وإلى تلهفاً وحنيناً . وكثيراً ما كان هذا التلهف والحنين يزدادان قوة وسحيراً بعد قراءة المراثية النثرية أو الشعرية في صحيفة من الصحف الوطنية . من أجل هذا كثرت قصائد الرثاء كثرة واضحة في ديوان شاعر

اجتماعي كحافظ إبراهيم ، وهو الذي يقول :

إذا تصفحت ديواني لتقرأه وجدت أن المرأى نصف ديواني

مصر امتياز قناة السويس

وفي اواخر سنة ١٩٠٦ وأوائل سنة ١٩١٠ شغل الرأي العام بمسألة تتصل بحياة البلاد الاقتصادية والسياسية . وهي مشروع الامتياز الممنوح لشركة قناة السويس ، ومد أجله أربعين عاما أخرى . وقد أثار هذا المشروع سخط الأمة كلها . وطالبت الأمة بمعرضه على الجمعية العمومية قبل البت فيه ونظام حافظ قصيدة في نوفمبر سنة ١٩٠٩ عبر بها عن آدال الأمة وآلامها جاء في مطلعها : (١)

لقد نصل الدجى ففى تنام
ذكرت جلالها أيام كانت
وأيام الرجال بها رجال
فأفلق مضجعى ما بات فيها
ومنها قوله :

فيا ويل القناة إذا احتواها
لقد بقيت من الدنيا حطاما
وقد كنا جعلناها زاما
حمونا ورد ماء النيل عذبا
وما الموت الزوام إذا عقلنا

بنو التمايز وانحسر اللثام
بأيدينا وقد عز الحطام
فواطفى إذا قطع الزمام
وقالوا انه موت زوام (٢)
سوى (الشركات) حل لها الحرام

* * *

زيارة الرئيس روزفلت لمصر

وأتى الرئيس روزفلت لزيارة مصر في مارس سنة ١٩١٠ وألقى خطبة بمدينة الخرطوم دعا فيها ضباط الجيش الى الخضوع لحكم الاحتلال الانجليزى ثم رجع الى القاهرة وألقى بالجامعة المصرية خطبة أخرى في نفس هذا المعنى فتألم لذلك الوطنيون ، وضجت الصحف الشعبية ، وامتلأت اعلمتها بالرد على الزعيم روزفلت .

أما الشيخ على يوسف فإنه كتب في مؤيده خطابا مفتوحا الى الرئيس روزفلت حمل فيه على مسلكه، وخطبته، وعلى إخلاله بواجب الضيافة. ونشرت ترجمة هذا الخطاب في بعض الصحف الامريكية الشهيرة. فبعث بعضها الى الشيخ على يوسف يطلب اليه كتابة فصل في هذا الموضوع يتحدث فيه عن روزفلت، وما كان لزيارته من الأثر في نفس الشعب المصرى. فلبى الشيخ هذه الدعوة وبعث اليها بالمقال، (١)

وكان لهذه الحركة صداها في الشعر المصرى يومئذ. ومنه هذه القصيدة التى قالها حافظ أيضا :

سمع مصر بقولك الماثور
فلت (شوق الأسير للتحرير
خطة القوم بعد ذاك النكير
في حماكم من دونه ألف سور
نائيا آمنا وراء البحور
يوم كانوا على تخوم الشغور ؟
يورك) وداء مستحكما فى الصدر
هر تاريخ مجدكم بالنور
ونفضتم عنكم غبار القبور
هجر مصر تفز بأجر كبير الخ

أى خطيب الدنيا الجديدة شنف
إنما شوقها لقولك يا (روز
يانصير الضعيف مالك تطرى
لم تطيقوا جوارهم بل أقتم
أنت تطريهمو وتثنى عليهم
ليت شعرى أكنت تدعو اليهم
يوم كانوا قذى بعين (نيو
بوم سجالتمو على صفحات الد
وتوثبتم الى الحياة وثوبا
يانصير الضعيف حبيب اليهم

* * *

هكذا كان الشعر فى مصر يسير مع الصحافة جنبا لجنب، ويجرى مثلهما مع حوادث المجتمع المصرى، ولا يترك مناسبة من المناسبات حتى يكون له كلمة، كما للثر الصحفى كلمة. وكثيرا ما اشترك الكلمتان فى المعانى والأفكار كما قلنا.

بل ان الامر لم يقف بالشعر الى هذا الحد حتى أخذ يحاكي المقال فى ظاهره « اتخذ العنوان » . فقد كان الشاعر القديم إذا أراد أن ينشر شعره فى ديوان

(١) أدب المقالة الصحفية فى مصر ج ٤ ص ١٢٩ — والمقالة فى نفس المصدر

من ص ١٣٠ — ١٤١. فليرجع اليها من أراد

وجدناه يقول مثلاً : ومن شعره في الغزل كذا ، ومن شعره في الزهد
أو المدح أو الفخر كذا ، الخ
أما الشاعر الحديث فقد حرص على أن يكون لكل قصيدة من
قصائده عنوان كما للمقالة الصحفية عنوان . والعنوان في ذاته عنصر هام من
عناصر الفن الصحفي ، اللازم لإخراج الصحيفة .

* * *

على أن هذه الحركة الوطنية التي اشترك فيها المصريون - أقباطا
ومسلمين - كانت تهددها أخطار من جهات شتى : منها النزاع الدائم بين
السلطتين الشرعية والفعلية ، ومنها سياسة الوكالة البريطانية التي كانت ترمي
في كثير من الأحيان - وخاصة في عهد غورست - إلى التفرقة بين
عنصري الأمة - توسلاً بذلك إلى قتل الحركة الخ
وبالغت الوكالة البريطانية في أساليب التفرقة بين عنصري الأمة إلى حد
أنها أخذت في وقت من الأوقات تقصر الوظائف الحكومية على القبط وحدهم
من المسلمين . وأحس المسلمون وقع هذا الظلم الكبير ، فعبر عنه حافظ إبراهيم
حيث يقول - بعد أن أعياه العثور على وظيفة حكومية يأكل بها العيش :
سعيت إلى أن كنت انتعل الدما

وعدت وما أعقبت إلا التندما
لحى الله عهد القاسطين الذي به
تهدم من تبياننا ما تهدما
إذا شئت أن تلقى السعادة بينهم
فلا تك مصرياً ولا تك مسلماً

* * *

مقتل بطرس غالي :

وقتل بطرس غالي سنة ١٩١٠ ففشيت الفاشية بين المسلمين وأخوانهم الأقباط من
جديد وعمد الأقباط متمرأيهم بأسيوط وأجابههم المسلمون بمؤتمر مثله عقدوه

بمصر الجديدة . وكادت الفتنة تودى بالحركة الوطنية ، لولا حكمة نفر من المصريين الذين أخذوا يغيرون قليلا قليلا من طهجة الصحف . ، وتبعهم في ذلك الشعراء ممن أرادوا أن يقتلوا دواعي الشر يومئذ ؛ ومنهم أحمد شوقي وسرعان ما حـلل الودائع محل الخصام ، واستبدل المصريون بنخمة الفرقة العنصرية نخمة الاخوة المصرية . ويحسبنا هنا أن نشير إلى بعض أبيات لشوقي في هذا المعنى . قال في رثاء بطرس غالى :

أعهدتنا والقبط الا أمة في الأرض واحدة واحدة تروم مراما
نعلى تعاليم المسيح لأجلهم ويوقرون لأجلنا الاسلاما
الدين للديان جل جلاله لو شاء ربك وحد الاقواما
هذى قبوركمو وتلك قبورنا متجاورين جماجما وعظاما

الا — ما أبلغ شوقي في هذا البيت الأخير ، وما أفدره على بعث معاني الالفه والتراحم والشفقة والتعاطف بين أبناء التربة الواحدة ، والمقبرة الواحدة :

هذى قبوركمو وتلك قبورنا متجاورين جماجما وعظاما
وعن هذا المعنى ومعان قريبة منه غير الشاعر اسماعيل صبرى بقوله :
خففوا صياحكم ليس في مصر لأبناء مصر من أعداء
دين عيسى فبكم ودين أخيه احمد يأمراننا بالاخاء
مصر أنتم ونحن الا إذا قا مت بتفريقنا دواعي الشقاء
مصر ملك لنا ما تماسك لنا وإلا فمصر للغرباء !

وعلى هذا النحو مضى الشعر موجها حديثه — كما تفعل الصحافة تماما — الى الجمهور ، معبرا عن مشاعره وميوله ، مؤيدا دعوة العقلاء في الأمة إلى الاخاء والمحبة . وسرى هذا المعنى إلى الشعر الدينى نفسه . ومن هنا جاءت عناية شوقي بالمسيحية « لأن قراءه في العربية لم يكونوا جميعا من المسلمين . بل كان منهم المسلم ، ومنهم المسيحي . ومن ثم كان يقف من المسيحية موقف المعتد بها المؤمن بتهاليتها . وكان لا يزال يشيد بالمسيح حتى في تركياته . وحين ينهزم الترك أمام الدول البلقانية المسيحية ، فإنه يستل المسيح من هذا الدول

وببرئه هو وتعاليمه منهم^(١). يقول في الاندلس الجديدة:
 عيسى سبيلك رحمة ومحبة في العالمين وعصمة وسلام
 ما كنت سفاك الدماء ولا امراً هان الضعاف عليه والايام
 يا حامل الالام عن هذا الورى كثرت عليه باسمك الالام
 أنت الذى جعل العباد جميعهم رحماء وباسمك تقطع الارحام

* * *

شعراء مصر يرون ضد الحركة الوطنية

وكما كانت هناك صحف ترعى الحركة الوطنية، وشعراء يراعون هذه الحركة، فكذلك كانت هناك صحف أخذت جانب الانجليز، وشعراء اخذوا جانبهم أيضاً:

فمن الصحف التى ناصرت الانجليز صحيفته (المقطم). وكانت صحيفتان قبطيتان هما (مصر)، و (الوطن) تقفان كذلك موقفا عدائيا من الحركة الوطنية، وتدعوان فى بعض الاحيان إلى أن يتخلى بعض الاقباط عن جنسيتهم المصرية، وينضوا تحت لواء جنسية من الجنسيات الاوربية^(٢) ومن الشعراء الذين ناصروا (كرومر) وقتئذ شاعران مصريان هما «نسيم»، و «ولى الدين يكن». وقد طفق كل منهما يهاجم الخديو عباس ويهاجم الحزب الوطنى بوجه خاص، ويخدم بذلك مآربه الذاتية، وأطباعه المادية، ويعبر عن موجدته الشخصية. فقد كان بين «يكن» والسلطان عبد الحميد من الإحسان ما أفضى باولهما إلى الاحتماء بكرومر، والاشادة بفضلله وعدالة حكمته، فحماه الرجل وحمى إخوانه من أعضاء تركيا الفتاة. كان شاعر كرومر - وهو نسيم - ينتهز كل فرصة ممكنة لمدح الانجليز والاشادة بعدلهم وفضلهم على مصر، وكان يبلغ من ذلك حد العجب. اليس عجيباً أن نجد شاعراً مصرية يكرم المملوك فكتوريا

(١) شوقى حنيف: شوقى ض ١٤٠

(٣) محمد حسين: الاتجاهات الوطنية فى الأدب المعاصر ص ١١٣ هامش ١

سنة ١٩٠١ فيختم قصيدته بتهنئة ابنها والتعريض بعباس والسخرية بكل مصري يفخر بمجد الفراعنة (١)

يا قوم مصر ولم أنظر لكم أثرا
أتفخرون بأثار لغيركمو
الأم تبغون ملكا عز جانبه
وتفخرون بما (خوفو) بنى لكمو
فأى فخر لكم فيما نشاهده

إذا المعالي دعت قومي دواعيها
الظلم شيدها والذهب يبليلها
وتبلغون من الدعوى تناهيها
وتمدحون من الاهرام بانيتها
يا أمة نسييت في الذل ماضيها الخ

وغادر اللورد كرومر مصر ، فبكاه نسيم بقصيدة طويلة جاء فيها : (٢)
حاشاك ما أنت بالمغصوب منصبه
جعلت مصر بلادا أمطرت ذهبها
خلقتها ويد الاسعاد تكنفها
حللت فيها وغل الجور مقعدها

كلا ولا أنت من عليك معزول
فتربها بمذاب التبر مبلول
دارا عليها من النعمى سراويل
ذلا وفارقتها والجور مغلول

أما (ولى الدين يكن) فلم يكن متهاكما على الانجليز تهالك نسيم ،
ولمما كان يحبهم لغرض واحد فقط ، هو حمايتهم له من السلطان عبد الحميد ،
فانتهى به ذلك إلى تأييد الاحتلال البريطانى فى مصر .

يقول ولى الدين يكن فى رثاء الملك ادوارد السابع ملك انجلترا معترفا
بما له من فضل على جماعة أعضاء « تركيا الفتاه »

أبا الاحرار لا ينساك حر
شبابهمو يحلك والكهول
تناديك الشعوب بكل أرض
فليتك سامع ماذا تقول
تناجى منك حاميهـا المرجى
وصولتها إذا قامت تصول

ومهما يكن من شىء فان هذه النعمة المردولة لم تجد لها اذنا صاغية من
المصريين الذين كانوا يلتهبون حماسـة ووطنية فى تلك الفترة ، وكان

الاحتلال الانجليزي يشير في قلوبهم كل معاني الغضب والغيرة . ومن ثم جاء شعر هذين الشاعرين وأمثالهما نشازا في موسيقى الحركة الوطنية التي استجاب لها المصريون جميعا خلا حفنة قليلة من ذوى المآرب الشخصية والمطامع المادية .

* * *

الشعر المصري والعروبة

بقيت نغمه أخيرة في قيثارة الشعر المصري في المجال الوطني . وتألف هذه النغمة من الشعر الذي قيل في معنى « العروبة » .

ونحن نعرف أن الشعور بهذه الأخيرة إنما جاء نتيجة لبقاء الاستعمار الاوروبي من جهة ، والتفكير في الجامعة الاسلامية من جهة ثانية . وإن كان من الحق أن يقال ان هذه النغمة الجديدة في الشعر المصري لم تكس تقوى وتشدد ، وتسير مع الشعور بالوطنية المصرية جنباً الى جنب الا بعد الحرب العظمى . وسرعان ما انعكس ذلك على نفوس الشعراء المحدثين ، فأضافوا به فخنا جديداً إلى ألقائهم الجميلة ، وأحس الشعراء منذ ذلك الحين بأن البلاد العربية كلها أسرة وحدها . لها كيائها ، ولها مقوماتها ، ولها تاريخها ومصائبها التي جمعت بينها . وفي ذلك يقول شوقي .

قد قضى الله أن يؤلفنا الجر	ح وان تلتقى على أشجانه
كلما أن بالعرّاق جريح	لمس الشرق جنبه في عمانه
وعلينا كما عليكم حديد	تنزى الليوث في قضبانه
نحن في الفكر بالديار سواء	كلنا مشفق على أوطانه

وضرب الفرنسيون بقنا بلهم « دمشق » ، فارتاع لذلك شوقي شاعر مصر والشرق . ونظم قصيدته التي أولها :

سـلام من صبا بردى أرق
ودمع لا يكفكف يادمشق
ومنها :

بنى سورية اطرحو الاماني
وألقوا عنكموا الاحلام القوا

نصحت ونحن مختلفون دارا
ولكن كنا في الهم شرق !
ويجمعنا إذا اختلفت بلادا
بيان غير مختلف ونطق الخ
ويطول بنا القول أيضا لو أردنا استقصاء الشعر الذي قاله الشعراء
المصريون في هذا المعنى ، بل الشعر الذي قاله أحدهم فقط - وهو شوقي .
فلاكتف بهذا القدر . ؟



الصحافة المصرية وتطوُّر فن المقال

شهدت مصر في أوائل القرن الماضي ميلاد حدث سعيد في تاريخها، وهذا الحدث هو الصحافة . وجاء ميلادها على يد الحملة الفرنسية التي أنشأت جريدتين هما جريدة (بريد مصر) وجريدة (العشريات)

غير أن هاتين الجريدتين كانتا باللغة الفرنسية التي يجهلها المصريون في ذلك الوقت . ولم يكن ينشر فيهما غير أوامر الجنرال برنابارت . وذلك فضلاً عن الأخبار والمواد التي تهتم الجند .

وعلى هذا فمن الخطأ الصرف أن ننظر نحن إلى هذه الصحافة الفرنسية في مصر على أنها صحافة مصرية بالمعنى المفهوم من هذه الكلمة . ذلك أن المصريين لم تكن لهم صلة ما بالصحف الفرنسية التي أشرنا إليها .

من أجل هذا قلت لكم أن الفرنسيين في مصر فكروا بعد ذلك في إنشاء مجلة لهم باللغة العربية . وعرض الجنرال مينو على الشيخ الخشاب من شيوخ الأزهر إذ ذاك أن يتولى تحرير هذه المجلة . ولكن هذه الأخيرة لم تخرج إلى الوجود . فقد عاجلتها النهاية التي انتهت إليها الحملة الفرنسية ، والأجل الذي قضى عليها بالخروج من الديار المصرية .

ثم أتى محمد علي وفكر في أن ينشئ في مصر ما يسمى (بجورنال الخديو) فأصدره ، ثم ما زال به حتى حوله إلى ما سمي بعد ذلك « بالوقائع المصرية » . وتعلون أن الصحافة في مصر كانت في أول أمرها رسمية على هذا الوجه . وبقيت على ذلك حتى ظهرت إلى جانبها الصحافة الأهلية أو الشعبية .

كان ذلك في عهد اسمعيل الذي ظهرت حاجته الشديدة إلى الصحافة لكي تذود عنه أضراراً كثيرة ، وأخطاراً محيقة ، منها خطر التدخل الأجنبي أولاً وخطر الباب العالي بعد ذلك .

لهذا السبب الأخير وجدت الصحافة الشعبية في مصر . وكانت صورة من الصحـافة الرسمية في بادئ الامر . ولكن سرعان ما نما هذا المولود الجديد — الذي هو الصحافة الشعبية — وأخذ يقوى ويشدد حتى جاوز دور الطفولة ، ودخل في دور الشباب ، وذلك على أيدي نفر من الصحافيين خطوا بها خطوات كبيرة في هذا السبيل .

ونبحث أنا من جانبي في هذه المراحل التي مرت بها المقالة الصحفية في مصر . واستطعت أن أعد من هذه المراحل ثلاثاً ، سميت كل واحدة منها « طبقة » ، أو « مدرسة » :

١- مدرسة صحفية أولى كان من أشهر رجالها : رفاعه رافع الطهطاوى ، وعبد الله أبو السعود ، ومينخائيل عبد السيد صاحب جريدة الوطن الخ . ومدرسه صحفية ثانية كان من أشهر رجالها : أديب اسحق ، ومحمد عبده وعبد الله النديم ، والمويلحي الكبير ، وبشارة تقلا صاحب الاهرام الخ . ومدرسة صحفية ثالثة كان من أشهر تلاميذها : علي يوسف ، ومصطفى كامل ، وأحمد لطفي السيد ، وعبد العزيز جاويز الخ

والمهم أن لكل مدرسة من تلك المدارس أسلوبها اللغوي الخاص بها في كتابة المقال ، وأن لها غايتها أو هدفها الذي كانت ترمى إليه من وراء هذا المقال ، وأن هذا الهدف إنما حددته لها الظروف السياسية والاجتماعية والثقافية التي أحاطت بكل واحدة من تلك المدارس على حدة .

فأما من حيث الأسلوب فقد كان رجال المدرسة الأولى مقيدين بقيود الماضي القريب ، حين كان النثر العربي يميل الى السجع وغيره من ألوان اللبديع التي فتن بها أديباء العربية منذ القرن الرابع الهجري ، وحين كان هذا النثر محبوساً في أروقة الأزهر لا يكاد يتجاوزها الى الحياة في خارجه . ومن ثم ورث الصحافيون الاولون في القرن الماضي لونا باهتاً من ألوان النثر العربي لم يكن خليقاً بأن يحتذى ، ولا كان جديراً بأن ينسج على منواله . ومع ذلك مضى رجال المدرسة الأولى يكتبون صحفهم بطريقة لا تبعد كثيراً عن هذه

الطريقة القديمة ، ولا تكاد تتحرر منها الا في أوقات قليلة ، ثم جاء الوقت الذي سئموا فيه السجع ، وزهدوا فيه البديع ، وكان ذلك إيذانا بمجيء المدرسة الصحفية الثانية ، وهي المدرسة التي نعمت بقسط من الحرية في الأسلوب ليس شك في أنه كبير بالقياس الى القسط الذي نعمت به المدرسة التي سبقتها ،

وعلى هذا فالفرق بين المدرستين السابقتين أن الأولى كانت تكتب بالأسلوب القديم أو الموروث ، وتحاول إنشاء المقال الصحفي ، وتعتز كثيرًا في هذه المحاولة . وكان من أسباب ذلك عنصران واضحا هما : عنصر الوراثة الذي أشرنا اليه من جهة ، وعنصر آخر مع الوراثة ، وهو قصور هذه المدرسة قصورا تاما عن فهم الفرق بين لغة الكتب ، ولغة الصحف من جهة ثانية .

وأما المدرسة الثانية ، فانها أخذت تتحرر — نوعا ما — من قيود الأساليب الموروثة ، وأصبحت قادرة على إنشاء المقال الصحفي بلغة — هي مع ذلك — أصلح لكتابة الأدب أو الكتب منها لكتابة الصحف . أي أن المدرستين تشتركان في صفة ، وتفتقران في أخرى . تشتركان في أنهما لم تصلا بعد الى تفرقه واضحة بين لغة المقال الأدبي ، ولغة المقال الصحفي . وتفتقران في أن الأولى مقيدة في أسلوبها بقيود الماضي البعيد أو القريب ، عاجزة في الوقت نفسه عن التعبير الحر الطليق ، هابطة المستوى في مجموعها من حيث الأسلوب في حين أن الثانية حاولت بالفعل أن تتحرر من هذه القيود ، واكتسبت من الماران الأدبي ما جعلها تحسن استخدام هذه الزينة أو القيود حين تريد استخدامها على سبيل إظهار المقدرة الفنية — كما كان الشأن مع أديب اسحق من رجال المدرسة الثانية ، بنوع خاص

والحق أن من يطلع على كتابات أديب اسحق لتروعه تلك الأساليب العالية التي كتب بها في الصحف المصرية أو اللبنانية .

ومصدر الجمال في أسلوب أديب اسحق أشياء كثيرة : منها سرعة الانفعال عند هذا الشيء ، مما جعل أسلوبه أدنى الى طبيعة الشعر منه الى طبيعة النثر . ومنها تلويح

الكلام عنده بالمحسنات اللفظية والمعنوية ، مع قدرة ظاهرة على هذا التلوين في غير تكلف بمقوت ، ولا صناعة مرذولة ، ثم منها الثقافة الاجنبية التي زودته بمعان كثيرة ، وجعلت الفرق بينه وبين رجل كـ محمد عبده كبيرا . وباختصار نرى أن أسلوب أديب اسحق يلذا الأدب أكثر مما يلذا الصحفي ، (١) وبقيت المدرسة الصحفية الثانية تكتب صحافتها بهذه الطريقة الأدبية العالية حتى جاء الأستاذ الامام محمد عبده فأخذ يقترب شيئا فشيئا من لغة الصحف . ثم جاء السيد عبد الله النديم وأقترب كثيرا منها ، وأعانه على ذلك ميله الطبيعي إليها وإلى الأسلوب الخطائي الذي برع فيه براعة منقطعة النظير . والأسلوب الخطائي بطبيعته إلى الأسلوب الصحفي أدنى منه إلى الأسلوب الأدبي وإلى ذلك الوقت كانت الصحف دورية ، بمعنى أنها تصدر مرة في كل أسبوع أو أسبوعين أو شهر أو شهرين الخ . غير أنه منذ ظهور (المؤيد) أو قبله بوقت قليل جدا أصبحت الصحف يومية . وغدت الصحيفة تنتظر كل يوم غذاء جديدا ، في وقت معين ، وعلى نمط معين . وكان لهذه الحالة الجديدة اثر بالغ في تطور الأساليب التي تتبع في كتابة الصحف . نعم كانت الطريقة التي كتبت المدرسة الثانية طريقه ادبية خالصة أو كـ الخالصة . يتوخى فيها الكاتب بلاغة العبارة ، واختيار اللفظ ، وحسن الجرس ، وتوشيح الكلام بالأشعار والحكم والأمثال وغيرها . ولكن الطريقة التي أصبحت تكتب بها المدرسة الثالثة طريقة صحفية خالصة . لا مجال فيها للأناقة الفنية التي توخاها الرعيل الثاني من رجال الصحف . ولا مجال فيها للزخرف الفني الذي امتازت به أساليب تلك الطبقة الثانية من طبقات الصحافة . وهكذا شرع المقال الصحفي يبتعد قليلا قليلا عن مجال التعبيرات الأدبية ، ويقترب شيئا فشيئا من مجال التعبيرات الصحفية . ولم يكد ينتهي القرن التاسع عشر حتى أصبح للصحافة في مصر لغة خاصة بها . وكان ذلك على يد الطبقة الثالثة أو المدرسة الأخيرة من مدارس الصحافة المصرية في القرن الماضي وأوائل القرن الحالي ، وهي المدرسة

التي بدأت بالسيد علي يوسف صاحب « المؤيد » ،
ولكن قبل أن نبدأ الحديث عن هذه المدرسة الأخيرة من حيث
الاسلوب ينبغى لنا هنا أن نشير الى أن المدرسة الثانية التي منها أديب اسحق
وعبد الله النديم ، ومحمد عبده ختمت في القرن الماضي بأديب ممتاز من حيث
الاسلوب الادبي ، لم يكن له نظير في هذه الناحية . وهذا الادب
الذي ارتفع بالاساليب الادبية الخالصة الى هذه الدرجة العاليه -- و
ابراهيم المويلحي .

فهما ذهبت تقرأ لهذا الاديب في جريدة (مصباح الشرق) فان تقول
عنه أنه كان موهوبا في السياسة . ولكنه موهوب في الأدب . مع انه كان على
اتصال دائم بكثير من رجالات الحكم في عصره اجل كان ابراهيم
المويلحي رجلا موهوبا في الادب -- ما في ذلك موضع لشك او لجدل .
وكانت اللغة التي يكتب بها هذا الرجل هي العربية . والعربية لغة القرآن .
وليست لغة تجارية ، بمعنى انها محدوده الغنى من الاساليب والألفاظ . . .
وهي من أجل ذلك لا تصلح الا أن تكون لغة الأدب في أروع صوره
وأعلى مراتبه ، الخ (١)

كانت طريقة المويلحي في الكتابة قائمة على البديع والزخرف ، وعلى
السخرية والاستخفاف ، وعلى الاكثار من ايراد الشواهد والامثلة من
التاريخ ومن السير ، وكان من أعظم كتاب زمانه قدرة على التصوير الذي
نسميه اليوم « بالكاريكاتور » . وإليه انتهت رياسة الكتابة الادبيه في أواخر
القرن التاسع عشر . ولذا ينظر التاريخ الى ابراهيم المويلحي على أنه آخر من
يمثل لهذه الطريقة القديمة في أدبنا المصري في القرن الماضي . وهي الطريقة التي
بدأت تختفي من الميدان الصحفي شيئا فشيئا لتحل محلها طريقة أخرى أكثر
منها ملاءمة للصحافة ، هي طريقة : -

المدرسة الصحفية الثالثة - وقد أحاطت بهذه المدرسة ظروف سياسية
خطيرة . لا شك أن من أهمها طرف « الاحتلال البريطاني » ، الذي خلق في

نفوس المصريين البأس مرة ، وغرس في نفوسهم روح المقاومة العنيفة مائة مرة . وكان من أثر هذه المقاومة أن نشطت العقول والأقلام في مصر ، واحتاج الأمر إلى ظهور طبقة جديدة من الكتاب أصبح لها أسلوب جديد يصح أن يطلق عليه اسم « الأسلوب السيامي » . وكان يمثل هذه الطبقة الأخيرة - فيما عدا السيد علي يوسف صاحب المؤيد - مصطفى كامل صاحب اللواء ، وأحمد لطفي السيد محرر الجريدة ، ومنهم كتاب جرائد الأهرام والمقطم ومن اليهم - وعلى هذه الطريقة ذاتها - أو بتعديل يسير فيها - جرى آخرون من أمثال أمين الرافعي (صاحب الأخبار) وعبد القادر حمرة (صاحب جريدة البلاغ) وحافظ عوض (صاحب جريدة كوكب الشرق) وغيرهم .

وكما كانت هذه المدرسة الصحفية الثالثة جديدة في الأسلوب السياسي ، فكذلك كانت جديدة في التفكير السياسي . والذي لا ريب فيه أن الفضل في هذا كله راجع إلى الاحتلال البريطاني . فقد كان هذا الاحتلال في ذاته مدرسة تعلم فيها المصريون دروساً في السياسة كيف تكتب ، وفي السياسة كيف تفهم ، وكيف يقنع الرجل السياسي أو الصحافي خصمه في الرأي أو الفكرة ، ونحو ذلك .

وأتم حين تطالعون على التقارير التي كتبها اللورد كرومر ، أو السير غورست ، أو اللورد كيتشنر عن مصر تجدونها مكتوبة بطريقة عجيبة لاشك أن المصريين لم يألّفوها . فقد كان الهدف من هذه التقارير السنوية إقناع المصريين بضرورة بقاء الانجليز في البلاد المصرية .

وكان وراء كل كلمة من كلمات التقرير أكداً مكيدة من المعاني السياسية والأغراض الاستعمارية التي لم تخف على كتابنا المصريين . فشرعوا يبيئون أنفسهم لردعها ، وأخذوا يحاكون الانجليز أنفسهم في الكتابة على هذه الطريقة وعلى هذا فلا انجليز في مصر فضل تدريبنا على الكتابة في الموضوعات السياسية . وإن كان هذا الفضل من النوع الذي ينطبق

عليه المثل ، « مكره أخاك لا بطل ،
من أجل ذلك نجد رجلا كصاحب المؤيد كتب مقالاته الغراء
« قصر الدوباره بعد يوم الأربعاء ، بتلك اللغة التي يفهمها كرومر ، وهي لغة
المصالح التي لا صلة لها بالمشاعر أو العواطف .
وبينا كانت (المؤيد) تعالج المسائل السياسية على هذا النحو الهادى
المؤثر في نفوس الانجليز فضلا عن المصريين ، إن (اللواء) تسكتب
المقالات الحماسية التي تهيج بها الشعور ، وتثير الخواطر — لا في مصر وحدها
— ولكن في جميع العالم المتمدن .

وهكذا اختلفت طريقة (اللواء) عن طريقة (المؤيد) أو كانت كل منهما
— في الحقيقة — مكمله الأخرى . فالمؤيد تمثل عقل مصر المفكر ،
(اللواء) تمثل قلب مصر النابض . وبهما معا استطاعت الحركة الوطنية
أن تسير إلى غايتها .

لذلك نظر التاريخ الى السيد على يوسف على أنه « الكاتب الصحفي ،
بالمعنى الصحيح لهذه الكلمة . ونظر الى الزعيم الشاب مصطفى كامل على أنه
« الخطيب السياسي ، بمعنى الكلمة أيضا . والفرق عظيم بين الرجلين . وبين
المذهبيين ، وبين الصحافتين .

فصحافة (اللواء) تؤثر في العواطف العامة ، وتلهب المشاعر الوطنية . وهي
من هذه الناحية أقرب ما تكون إلى الخطابة في جملتها . وأدنى الى مشارب الشبيه
وصحافة (المؤيد) تؤثر في العقول ، وتجذب الشيوخ لا الشباب ، وتعتمد
على المنطق ، وتجري وراء المنفعة التي تتخيلها .

وهي من هذه الناحية تعتبر (صحافه) بالمعنى الدقيق لهذه الكلمة .



بقى أن نأني بنماذج توضح لنا الفرق بين هذه المدارس الصحفية الثلاث
من حيث اللغة وطريقة التفكير . ونحن مكتفون هنا بنموذج واحد فقط
لكل مدرسة من المدارس السابقة . على أننا عاجزون أيضا عن الإتيان بهذا
النموذج كاملا . بل نحن مضطرون الى الإتيان ببعضه تاركين لكم فرصة

استكمال النموذج في مصادر أخرى .

نموذج من المدرسة الصحفية الاولى

بالرجوع الى العدد الاول من السنة الرابعة من حياة الجريدة الاهلية التي أنشأها عبد الله أبو السمود . وهي جريدة (وادى النيل) نجد مقالا للحرر بعنوان .

حوادث أدبية سميرة وممارسات عربية جديدة

دان من طالع سعدنا أن وصل إلينا بمصر القاهرة ، في هذه الايام الحاضرة ، من نتائج أفكار أرباب القرائح العصريين ، وثمرات أوراق اصحاب الفضل والادب السوريين ، المتوقدة أذهانهم الآن بمدينة بيروت ، ولا يليق بتاريخ اللغة العربية في هذا العصر أن يلزم في حقهم السكوت ، عدة نسخ متوالية ، وجملة أعداد متتالية ، من جريدتين أو دوريتين ، وصحيفتين خبيريتين ، أو مجموعتين أدبيتين ، بل مهرتين عربيتين أصيلتين تطبعان الآن بطبع مدينة بيروت الجميل ، على هيئة كراسية صغيرة في شكل صحيفة وادى النيل . وتتراكضان بغاية اطلاق العنان في ميدان الأخبار السياسية . أى أخبار بعض الدول المجاورة ، والممالك المعاصرة ، من الحكومات الاسلامية والافرنجية ، وغيرها من سائر الأفطار الاجنبية ، فضلا عن النكات الادبية .

وكتاهما من الطرافة والكمياسة ، وعظم الفائدة والنفاسة في درجة عالية وهيئة حالية . وكانهما فتاتان من الجمآذر الاوروبية ، وقد بدنا في كنائس نصرانية ، متجملتين بمآزر مشرقية عربية ، أو برانس مغربية .

احدهما تنشر باسم (الزهرة) بتأليف وإدارة الاديب الاريب ، والكايب اللبيب ، والاخذ من الكتابة بمجامع الفنون ، المدعو « بيوسف الشلفون » .

والثانيه تظهر باسم (الجمان) جمع جنه - بقلم وإدارة المؤلف اللطيف

والمصنف المتقن الظريف ، أصمعى هذا العصر الثانى ، المشهور باسم (بطرس البستاني) مع شبله الشاب الفهم المبروف كذلك (بسليم) الخ

وعلى هذا النحو مضى محرر (وادى النيل) يحيى جريدتى (الزهرة) و (الجنان) وبقدمها إلى جمهور القراء . وبالرغم من طول هذا المقال فأن السجع لم يفارقه من أوله الى آخره .

والنشيد والاستعارة لا يحتفیان من سطورہ الى نهايته فهو تارة يشبه الجريدتين بمهرتين عربيتين أصيلتين ، وأخرى بفتانين جميلتين غريبتين وهكذا .

ولانقل ان ابا السعود يتكلف السجع والبديع لان المجال هنا مجال أدبي هو مجال التقديم والتحية لجريدتين من الجرائد السورية . فانه تكلف هذا السجع حتى في كتابه الأخبار الداخلية والأخبار الخارجية في نفس هذا العدد الذى رجعنا اليه .

نموذج من أسلوب المدرسة الثانية

فى أثناء الحرب الروسية التركية التى كانت بمثابة حجر الزاوية من الصحافة الشعبية ، والتى قسمت المصريين قسمين : قسم يعجب بأبطال الترك ، وقسم يعجب بأبطال الروس كتب اديب أسحق فى جريدته (مصر) مقالا يدعو فيه الى إعانة جرحى الحرب فقال :

« فى معترك أو مضت فيه بروق المرفقات ، ولعلعت رعوذ المدافع ، فقفلتها غيوث السكرات . وسكرت السيد بخر من الدم فعربدت فى الرموس ، وعقد العشير للملك الموت سرادقا مطينا بالفنا . والخيل ساعبة تقبل ثقالا ، وتعود خفاقا . وكأنها - وقد أعياها الفارس حيا - قد غضبت على الانسان ، فاحتجبت بحجاب الضباب . وتعلمت الأرض من أعماله ، فزلزلت زلزالها ، وكادت تخرج أثقالها . فارتعد الرعيد ، وثبت الصنديد ، ونادى منادى الحراب : من فر من الموت وقع ، ومن كان ينوى أهله

فلارجع . . طريق على الأرض جريح ، ذو كبد حرى ، يستجير وإحدى يديه فوق السكبد الأخرى . يذكر خليلة أو حليله ، آلمه فراقها مع أمل الرجوع . فما الظن به وقد اختفى نور ذلك الأمل ، ووالدة تألمت به جنينا ، وأرضعته طفلا ، وربته يافعا ، وسهرت عليه حالما ، ووالداً واساه في كآبته ، وسلاه في حزنه ، وتوجع له في مصابه . ثم تنجلي له الدنيا بزخرفها وزينتها ، فيرى مريير عذابها حلوا ، وكدر مشاربها صفوا . . .

فهذا هو الانسان ، الجريح بسلاح الانسان ، المطلوبة مساعدته من الانسان . ثم استشهد الكاتب بهذه الآيات :

الحرب أول ماتكـون فتنة تسمى بزيتها لكل جهول
حتى إذا حميت وشب شرارها عادت عجوزاً غير ذات خليل
شمطاء جرت رأسها وتنكرت مكروهاة للثم والتقبل
فانظروا الى أديب اسحق كيف كتب المقال بلغه أدبية راقية ومتكلفة ، لا شك أنها ارقى بكثير من لغة أبى السعود ، وأدل منها على الأصالة الأدبية والثقافة اللغوية والبلاغية ونحو ذلك .

ولكن يجب أن تلاحظوا هنا أن كتاب الصحافة العربية ، ممن ينتمون إلى المدرستين الأولى والثانية عجزوا كل العجز عن أن يفهموا الفرق بين لغة الأدب ولغة الصحف .

واستمر هؤلاء وهؤلاء على هذا النحو ، حتى أخذ كل من الشيخ محمد عبده أولاً ، والسيد عبد الله النديم ثانياً يدنوان من الأسلوب الصحفي شيئاً فشيئاً ، ويمهدان لظهور المدرسه الثالثة من مدارس الصحافة المصرية رويداً رويداً . وإن كان ذلك لم يمنع قط من أن تسير الطريقة الأدبية قدماً هي الأخرى ، حتى بلغت أوجها ونهايتها على يد رجل كإبراهيم المويلحي في جريدة مصباح الشرق - كما عرفنا .

نموذج من صحافة المدرسة الثالثة

سبق لى أن أشرت لكم أن مقالات السيد على يوسف بعنوان (قصر الدوبارة بعد يوم الاربعاء) - وعددها اربع

عشرة مقالة - تعتبر نموذجا حسنا (للأملوب السياسى) الذى امتازت به المدرسة الصحفية الثالثة فى مصر . والحقيقة أننى لا أمتطيع أن أفضل مقالة من هذه المقالات على أخرى من هذه الناحية فلا أكتف بجزء من المقالة السادسة من هذه المجموعة . وهى المقالة التى كتبها السيد على يوسف بعنوان :

التعليم ونظارة المعارف

فقد استهلها الشيخ بجملة اقتبسها من تقرير كتبه اللورد كرومر عام ١٩٠٣ ، وهى قوله :

« ان التقدم فى المعارف يتوقف على كون نظام التعليم وافيا بحاجات الأمة على اختلاف طبقاتها ، . ثم قال :

« إن سياسة التعليم التى جرت عليها نظارة المعارف المصرية ، وينفذها المستر دانلوب بخلطة وصلابة هى أن تكون المكاتب الابتدائية رافعة لأمية الذين يتعلمون فيها القراءة والكتابة بقدر الامكان .

« والحكومة توهم بأنها راغبة فى نشر التعليم الصناعى . وهمتها فى ذلك واهية . وغاية التعليم الثانوى والعالى عندها واحدة ، هى إعداد الفئة اللازمة لخدمة الحكومة بالشبان ليس إلا . فالتعليم الرسمى هنا يقتصر على حاجة الأمة من بعض وجوهها - لا كلها ، ويقصر نفعه على فريق قليل منها فلا يشمل كل الطبقات .

« وقد نادى مجلس شورى القوانين حتى بح صوته فى سنين كثيرة يطلب النظر فى لوائح التعليم . فكان يحاج عن ذلك بأنه ليس من اختصاص مجلس الشورى نظار لوائح التعليم

« وأنها اعطائة لامعنى لها . فالأموال التى تنفق على التعليم من خزينة الحكومة هى أموال الأمة . والأموال التى تؤخذ أجرة للتعليم من آباء التلاميذ هى أموال الأمة . والموظفون الذين يفرضون على زمام إدارة التعليم فى نظارة المعارف إنما يأخذون مرتباتهم من أموال الأمة . وكلما ارتفع صوت أعضاء المجلس يطلب النظر فى برامج التعليم قيل لهم بلسان دانلوب :

« إننا لا نراكم أهلاً لأن تنظروا في نظام تعليم أتم جهلاء به فلا تطلبوا ما استم أهلاً له .

« ومعنى هذا أن الحكمة لا تريد إلا ما يريد قصر الدوبارة من سياسة التعليم .

« وقصر الدوبارة بمثابة وصى على قصر أغنياء ليس لهم مجلس حسبي يراقب أعمال الوصى . ويضع حداً لرشدكم . فلا الوصى يجب أن يخرجهم من هذه الوصاية ، ولا القصر قادرون بذواتهم على الخروج . ولا رقيب فوق الوصى يحسب له الوصى حساباً . والسركاه في العلم والتعليم لأنها ينبوع رشد القاصرين ... « وأكبر لعبة أظهرتها سياسة الاحتلال في التعليم ، ليهر بها أبصار الأجانب والوطنيين « لعبة إنشاء (الكليات) في البلاد . والمعيب في هذه اللعبة أنها أقرب للرياء منها لشرف القصد . ولقد نفذت بطريقة هي الرياء كله . إذ ترك لكل مدير أن يتنافس مع زملائه في حض الأعيان على إنشاء المكاتب الأولية . ومن ثم عادت للعمد ساططهم الأولى في الضغط على الفقير لاستنزاف جلوده قبل جيبه .. فتحول الخير شراً من وجهين :

وجه الرياء من جهة ، ووجه الارغام من جهة ثانية .

والخلاصة أن سياسة التعليم الجارية الآن غير مقيدة لتكوين أمة ينبغ فيها العلماء في كل فن ، ولا هي سائرة للامام قدما . لأن التقدم في المعارف والعلوم يتوقف على كون نظام التعليم وافياً بحاجات الأمة على اختلاف طبقاتها كما قال اللورد ، (١)

في هذا النموذج الأخير تلاحظون معنى أشياء منها :

أولاً - أن صاحب المؤيد كان يتحدث إلى اللورد كرومر في هدوء واتزان ، ويجادله مجادلة تقوم على المنطق والبرهان ، ويسخر من سياسة التعليم في مصر سخرية لا يناله إلاذى منها ، وهي في الوقت ذاته تؤدي الغرض الذي ترمى إليه .

ثانيا - أن اللغة التي كتب بها المقال أقرب الى الصحافة بمعناها الصحيح منها الى الأدب بمعناه الصحيح . فلا سجع ، ولا استعاره ، ولا مقابلة ، ولا مطابقة ، ولا استشهاد بالشر ونحو ذلك . بل انه اذا كان ولا بد من الاستشهاد في هذا المجال فلا بأس أن يكون من كلام الساعة في خطبهم وتقاريرهم ، كما استشهد السيد علي يوسف هنا بكلمة جاءت في تقرير كرومر ، بدأ بها المقال وختمه بها كذلك .

ثالثا - أن أسلوب السيد علي يوسف في مقاله هذا لا يعتمد بنوع خاص على التشبيه . ولكن اذا كان ولا بد من هذا التشبيه فليكن مشتقا من الحياة الواقعة نفسها ، أو ليكن مأخوذا من التراكيب المصرية ذاتها . خذ لذلك مثالا في هذا المقال : تشبيه السيد علي يوسف سلطة الوكالة البريطانية في مصر بسلطة الوصى على اطفال قصر . وهو تشبيه واقعي دقيق ، مضى فيه الشيخ الى نهايته كما رأينا .



تلك فكرة موجزة عن المدارس الثلاث التي مرت بها الصحافة المصرية منذ ظهورها الى ثورة سنة ١٩١٩ . (١)

المدرسة الأولى - ذات المنحى الثقافي .

والمدرسة الثانية - ذات المنحى الاجتماعي .

والمدرسة الثالثة - ذات المنحى السياسي .

وسنفرد كل اتجاه من هذه الاتجاهات الثلاثة بمحاضرة واحدة ، لنرى الظروف التي حددت هذا الاتجاه ، ونرى النتائج التي حققها البلاد من وراء هذا الاتجاه ، ثم الطريقة التي سلكتها الصحافة - ومعها الأدب - في سبيل الوصول الى هذا الاتجاه .

(١) لا تتسع المحاضرة الواحدة في الغالب لتتبع الفن الواحد من الفنون الادبية أو الصحفية التي نحمدتها عنها ؛ وذلك منذ نشأ هذا الفن الى الوقت الحاضر . ولهذا نضطر في أكثر الأحيان الى أن نقف بهذا الفن أو ذاك عند ثورة سنة ١٩١٩ . فترجو أن يلاحظ القارئ ذلك

المقالة فى الانجاء الثقافى

منذ ولى رفاعة الطهطاوى أمر «الوقائع المصرية» ، وكان ذلك فى الحادى عشر من شهر يناير سنة ١٨٤٢ ميلادية - وجدنا له اهتماما خاصا بالجانب الثقافى لهذه الجريدة الرسمية . وقد عاشت هذه الجريدة قبله نحو من أربع عشرة سنة وهى عاطلة تماما من هذه الناحية . يوم كانت مقصورة على أخبار الحكومة ، وأعمال الوالى ، وبعض الحوادث التى تجرى بين الأهالى ، وبعض الأخبار الخارجية القليلة من هنا وهناك .

فى ذلك التاريخ - وهو ١١ يناير سنة ١٨٤٢ - صدر قرار مجلس الشورى (بأن تحال المواد المناسبة من الجرائد الأجنبية ، وعلاوة بعض القطع الأدبية من الكتب الأدبية ، وانتخاب أخبار المملوكية ، وترتيب الجريدة المصرية بصفة عامة على حضرة الشيخ رفاعة) (١) .

وإذا ذهبنا لتصفح عددا من أعداد الوقائع المصرية منذ أشرف عليه الطهطاوى هذا - وليكن العدد ٦٢٣ - على سبيل التمثيل . فأنك تراه

مرتبا على هذا النحو :

أخبار داخلية ، فأخبار خارجيه ، فقطعة أدبية لرفاعة نفسه عنوانها «تمهيد» ، فأخرى فى موضوع السلطان وأخلاق السلطان . ثم فصل عنوانه تجارة . ثم قطعة مأخوذة من مقدمة ابن خلدون . وبذلك ينتهى العدد .

ثم أتى اسماعيل فعهد الى رفاعة الطهطاوى مهمة الاشراف على قلم الترجمة الملحق بديوان المدارس ، كما عهد اليه كذلك الاشراف على جريدة أخرى أسماها (روضة المدارس) . وقد صدر العدد الاول من أعداد هذه الاخيرة فى ١٧ أبريل سنة ١٨٧٠ .

وكانت الصحيفة تصدر مرتين في الشهر . . . ويكتب فيها من ينتخب من ذوى المعارف، ويستحسن نشره بين الناس من الفوائد العلمية لأجل توسيع دائرة الأفكار . وتحريرها يكون بعبارة سهلة التناول وجيزة مفيدة . . (١) ومن ثم أصبحت هذه الجريدة توزع على طلبة المدارس . واقبل هؤلاء على قراءتها اقبالا عظيما كان يصرفهم في كثير من الاحيان عن دروسهم بالمدرسة . وكانت الجريدة من الناحية الاخبارية الصرفة - تقصر عنايتها كذلك على اخبار المدارس والامتحانات وما يقال في هذه الامتحانات من كلمات افتتاحية جرى العرف بها . وكلها ثناء على الخديو الذي شجع حركة التعليم ، وحركة انشاء المدارس ونحو ذلك .

واذا وقع لك عدد من اعداد هذه الجريدة أو المجلة وجدتها أشبه ما تكون بمجلة علمية لاهليته من كليات الجامعة . فكما أنك لا تنظر في مجلة جامعية بأكثر من ابحاث لأساتذة الجامعة ، عنى فيها هؤلاء الاساتذة بالحقائق العلمية وحدها ، فكذلك تجد روضة المدارس . . فهي ليست أكثر من معرض للكتب التي يؤلفها الاساتذة المشتركون في تحرير هذه المجلة ، وهي كتب ينشرونها فصلا فصلا ، أو ملزمة ملزمة : (٢)

فلزمة أو فصل من كتاب حقائق الاخبار في وصف البحار ، لعلى باشا مبارك . وملزمة أو فصل من كتاب تنوير الأفهام في تغذية الأجسام ، لعلى باشا مبارك أيضا . وملزمة أو فصل من كتاب أثار الأزهار ومنشور الأفكار ، لعبد الله بك فكرى . وملزمة أو فصل من كتاب بهجة الطالب في علم الكواكب ، لاسماعيل بك الفلكى وملزمة أو فصل من كتاب المباحثات البيئات فيما يتعلق بالبيئات ، لمحمد أفندى ندا . وملزمة أو فصل من كتاب الصحة التامة والمنحة العامة ، للدكتور محمد بدر . وملزمة أو فصل من كتاب غرائب النوادر المضحكات والالغاز والاحاجي والنكات ، للشيخ عثمان مدوخ مدرس الانشاء

(١) عزت عبد الكريم : تاريخ التعليم في مصر : ج ٢ ص ٥

(٢) ادب المقالة الصحفية في مصر للمؤلف ج ١ ص ١٤٣

بمدرسة المساحة والمحاسبة وملازمة أو فصل من كتاب «الروضات النفخية والمقامات الفتحية» لأحمد فتحي بك ناظر مدرسة المساحة والمحاسبة . ثم فصل من كتاب «القول السديد في الاجتهاد والتجديد» لرفاعة الطهطاوى . وفصل من كتاب «الفوائد البديعة في علم الطبيعة» لعلى أفندى عزت المدرس بالمهندسخانة . وفصل من كتاب «النبد الانتخابية في فن الجغرافيا السياسية» لمحمد أفندى الطيب المدرس بالمدرسة التجهيزية . وفصل من كتاب «العقد النظيم في مأخذ جميع الحروف المصرية من اللسان القديم» للمسيو بروكشى - ترجمه أحمد أفندى نجيب أحد تلامذته . وفصل من كتاب «كنز اللال في الحكم والادثال» لمحمد أفندى بليغ عضو البعثة . إلى ملازم أو فصول أخرى كثيرة ومباحث طويلة في الكيمياء والميكانيكا . وكلها محلاة بصور الاجهزة التى تعين على فهم هذه المواد الجديدة - ونحو ذلك ، (١)

وهكذا كانت (روضة المدارس) مجلة أدبية وعلمية ذات أقسام ثلاثة : قسم للعلوم ، وقسم للاداب والانشاء ، وقسم للاخبار المدرسية ، نذكر فيه المدارس التى تم انشاؤها ، وأخبار الامتحانات التى تجرى بها ، مع التنويه أحيانا ببعض الدروس التى يلقيها أمثال الشيخ حسن المرصفى بدار العلوم فى موضوع الأدب بنوع خاص .

* * *

وهذا كله فى مجال الصحف الرسمية التى ينفق عليها من أموال الدولة . أما فى مجال الصحف الشعبية فقد وجدنا أن صحيفة (وادى النيل) لصاحبها عبد الله أبى السعود - وهو تلميذ رفاعة الطهطاوى - صورة دقيقة من الصحيفة الرسمية المعروفة باسم «الوقائع المصرية» : فيها موادها ، وبها العناية بالمواد الادبية التى تفوقت فيها على الوقائع المصرية نفسها . فقد أخذت صحيفة (وادى النيل) تخصص من صفحاتها جزءا تنشر فيه فصولا من الكتب الادبية والتاريخية القديمة على نحو ما فعلت صحيفة روضة المدارس . ولعل أول كتاب

عينت صحيفة وادى النيل بنشره هو «كتاب تحفة الانظار في غرائب
الأمصار» لابن بطوطه.

* * *

و مضى زمن المدرسة الصحفية الاولى على هذا الوجه ، ثم تلتها المدرسه
الصحفيه الثانيه في مصر ، فوجدنا هذه الاخيره اقل عناية بالاتجاه الثقافى من الاولى
فقد شغل رجال هذه المدرسه من أمثال محمد عبده ، وعبد الله النديم ، وأديب
اسحق ، وسليم النقاش ، وصاحب الأهرام بأمور اجتماعية وسياسية إلى
جانب انشغالهم بالامور الثقافية .

و ثم فرق آخر في المجال الثقافى بين المدرستين السابقتين . وهذا الفرق
هو عناية الأولى بالجانب العلمى البحت من الثقافة . وان كان من الحق أن يقال
أن الصبغة الادبية للنهضة الثقافية انما بدأت في مصر من عهد اسمعيل ، ثم
أخذت تزداد في مصر شيئاً فشيئاً : ومن الحق أيضاً أن يقال إن السوريين
المقيمين بمصر أعانوا يومئذ على هذه الصبغة الادبية ، وكان لهم فضل
في قوتها وتغلبها على الصبغة العلمية البحتة فيما بعد .

كان رجل كأديب اسحق أو سليم النقاش كثيراً ما يأخذ من معين اللغة الفرنسية
وينقل إلى القراء في مصر والشرق كثيراً من أفكار الفرنسيين في السياسة
والاجتماع والفلسفة والاخلاق والادب . وذلك كله فضلاً عن القصص
المسرحية الكثيرة التي نقلوها من الفرنسية الى العربية — كما اسلفنا .

لقد شرح اديب اسحق في مقالة له في مصر والشرقيين معنى الحرية
والوطن والوطنية . كما شرح لهم نظريه فصل السلطات ، والحكم النيابى ،
وواجبات الدولة نحو الافراد ، وواجبات الافراد حيال الدولة . ومضى
الأديب السورى في هذه الكتابات حتى وصل الى روسيا ، فوصف نظم الحكم
بها وتعرض لكثير من الأفكار الشائعة بين أهلها ، ووازن بينها وبين الدول
الأخرى في كل ذلك .

وليس شك في أن الحرب التي قامت بين روسيا وتركيا في تلك الفترة

كانت الباعث الحقيقي له ولغيره من الكتاب على إنشاء هذه المقالات التي أرادوا فيها الدفاع عن الدولة العثمانية ضد الدولة الروسية مسفهي آراء الأخيرة محبذين آراء الأولى ، كل ذلك في حماسة بالغة للشرق الذي هو مهبط الرسالات والذي هو الموطن الأول (للشعلة) التي انبعثت في أوربا ، وهي الشعلة التي أضادت الطريق لفرنسا ولثورتها المعروفة في التاريخ .

* * *

وأخيرا نصل الى المدرسة الصحفية الثالثة فنراها سياسية الصيغة في الاعم الأغلب .

ولكن هذه المدرسة آمنت مع ذلك بقيمة الثقافة . وكان من نتائج هذا الإيمان العميق في نفوس أفرادها ظهور (مشروع الجامعة) . ومن الانصاف هنا أن يقال إن أكثر أفراد هذه المدرسة الأخيرة عنوا بأمر التعليم في البلاد ، واهتروا اهتماما بسياسة التربية التي جرت عليها الحكومة في تلك الأوقات . وكان من أظهر هؤلاء في هذا السبيل أحمد لطفي السيد رئيس تحرير « الجريدة » ، وله في هذا الميدان بلاء لا يقل عن بلاء غيره في مجال الدين أو المجتمع أو السياسة .

• وإن نظرة واحدة إلى آراء هذا الكاتب الفيلسوف في شؤون التربية والتعليم لترينا في وضوح أنه صدر في آرائه المختلفة عن هذه القواعد الثلاث : الأولى — أن الانسان خير بطبعه — كما قال جان جاك روسو — وأنه قابل للتربية والتهديب ، وأن في استطاعة الأمة أن تقوم في أعداد أبنائها على أساس هذا الرأي

الثانية — أن الغرض من التربية والتعليم هو الحصول على صفة التوازن الخلقى والنفسى في الأمة والفرد . فعلى الأمة والفرد الاهتمام بتنمية العقل وتنمية الجسم بقدر واحد فيهما تقريبا .

الثالثة — أن الغرض من التعليم في نظر الباحث الاجتماعى هو الحصول على أكبر قدر ممكن من التشابه بين أفراد الأمة الواحدة . ذلك أن التشابه هو

المصدر الحقيقي للألفة . والالفة هي السبب الحقيقي في التضامن والوحدة .
والتضامن هو الطريق للتقدم الذي ينشده المجتمع . (١)

مهما يكن من شيء فتحن إذ ننظر إلى المدرسه الصحفية الثالثة في مصر —
فنجدها أنها تمتاز عن سابقتها بأمر — ورأبغده . هي : التعميل ، والتجديد في
الاساليب ، وهضم الثقافة الاوروبية — بعد اذ تم نقل الكثير منها على يد
المدرسة الاولى — والعمل على نقل الحضارة الاوروبية قصد الانتفاع بها
والاسترداد منها ، (٢)

ويبدو لنا أن الاتصال الحقيقي في مصر بالفلسفه اليونانية بدأ على يد
أحمد لطفي السيد من رجال المدرسه الصحفيه الثالثه . فقد أعجب هذا الرجل
اعجابا شديدا بأرسطو ، وترجم له خمسة كتب وهي :

كتاب الطبيعة ، وكتاب السكون والفساد ، وكتابان في الأخلاق
بعنوان : إلى نيقوماخوس . وكتاب في السياسة . نقلها كلها عن سانت هيلير
وان قيل في هذا الاخير إنه ليس بثقة .

« وعلى قدر إعجاب الرجل بأرسطو كان شديد الإعجاب كذلك بكل
من : كانت الآلماني ، وفوالتير ، وروسو من الفرنسيين ، وستوارت مل
الانجليزى (صاحب مذهب المنفعة) . وتولوا مستوى الفيلسوف الروسى ،
وجوستاف لوبون الفيلسوف الفرنسى ، وغيرهم ممن قرأ لهم ، وظهر أثر
ذلك واضحا فيما كتب من مقالات على صفحات « الجريدة » ،

أما (اللواء) فكانت عنايتها بالامور الثقافيه دائما ذات هدف وطنى حيناً
واسلامى حيناً آخر . ومن ثم دعت اللواء الى الكتابة عن أبطال الاسلام
وجمعت طائفة من المقالات في هذا المعنى في كتاب أطلقت عليه اسم (حماة
الاسلام) لمؤلفه مصطفى نجيب « وهو صاحب هذه المقالات التى نشرتها هذه
الصحيفة كما قدمنا .

(١) ادب المقالة الصحفية في مصر ج ٦ ض ١٣٦ — ١٣٧

(٢) نفس المصدر ص ٥

وبمثل هذه الطريقة كانت اللواء تنشر مقالات جميلة في تراجم الشخصيات الكبيرة التي كان لها أثر في بناء النهضة الحديثة في مصر وفي الشرق .

* * *

غير أن المجالات الثقافية بعد الربع الاول من القرن العشرين دخلت في دور « التخصص » : فمجلة خاصة بالمحامين ، وأخرى خاصة بالمهندسين ، وثالثة خاصة بالمدرسين . وصحيفة تختص بالزراعة ، وأخرى بالصناعة ، وثالثة بالاقتصاد ، ورابعة بالمجتمع ، وهكذا . بل ان الاتجاه السائد الآن هو أن يكون لكل وزارة من وزارات الحكومة مجلة خاصة بها ، ولكل هيئة من هيئات (الانتاج القومي) أو السياحة مجلة خاصة بها كذلك . ولا شك أنه ما دامت هناك جهة من الجهات تستطيع الانفاق على هذه الصحف والمجلات فانها تضمن لنفسها البقاء — ولو في المحيط الخاص بها ، وبين أفراد الفئة أو الطائفة التي يعينها الامر .

✓ أما الصحافة الادبية الخالصة فهي التي أصيبت في مصر بكارثة !

نعم — كانت مصر إلى عهد قريب تنعم بطائفة من الصحف ذات الطابع الادبي الرفيع . ومنها على سبيل المثال : مجلات الهلال ، والمقتطف ، والبيان ، والبلاغ الاسبوعي ، والسياسة الاسبوعية ، والفصول للاستاذ محمد زكي عبد القادر ، ومجلة (أبولو) التي أصدرها الدكتور زكي أبو شادي عام ١٩٣٢ وجعلها مخصصة لفن واحد فقط من فنون الادب ، هو فن الشعر . ثم صدرت الرسالة عام ١٩٣٣ . وتلتها مجلة الشباب للأستاذ محمود عزمي ، وجريدة منبر الشرق للشاعر الأديب علي الغاياني ، ومجلة الثقافة عام ١٩٣٩ . وقد تولى رئاسة تحرير هذه الاخيرة الاستاذ أحمد أمين . وكتب فيها أعضاء لجنة التأليف والترجمة والنشر ، واتصل بها اساتذه الجامعة ، ووصلت اليها المقالات والاشعار من كبار الادباء في العالم العربي كله تقريبا .

« وهكذا شهدنا في مصر حركة أدبية فكرية مباركة . غير أن اشتعال الحرب العالمية الثانية في أول سبتمبر عام ١٩٣٩ جعل المجالات الادبية تنكمش ؛

وتتضائل بعض الشيء ، كما جعل الصحف اليومية تؤثر أنباء الحرب وتطورات المعارك على أخبار الادب والفكر . فلما بدأت المعارك تتكشف عن قرب انتصار الحلفاء على الالمان - بعد نزول قوات ايزنهاور في بلاد المغرب الافريقي - أصدر الامريكان طبعة عربية لمجلتهم الشهرية المعروفة باسم Readers Digest وجعلوا الاستاذ فؤاد صروف رئيسا لتحريرها .

وصدرت تلك الطبعة العربية باسم (المختار) . (١)

غير ان مجلة (المختار) كادت تقصر عنايتها على نشر الآراء الامريكية والافسكار التي تتفق والمذهب السيامي والاجتماعي للولايات المتحدة . ولأن أكثر مواد هذه المجلة كان مترجما - كما ذكرنا - فقد كانت لغتها بعيدة نوعا ما عن الذوق المصري الذي لم يعجبه منها غير الافكار العملية والآراء التي تتصل اتصالا قويا بالحياة العامة .

ثم لم تسلك الحرب العالمية الثانية تضع أوزارها حتى ظهرت في الميدان الأدبي مجلة شهرية باسم (الكاتب المصري) تولى تحريرها الدكتور طه حسين ، وكتب فيها بعض اساتذة الجامعة . وكانت هذه المجلة الاخيره شديدة العناية بالنقد والفكر العالمي الحر . وكان الدكتور طه حسين ينشر فيها مقالاته المشهورة تحت عنوان (المعذبون في الارض) . ومع هذا وذاك فلم تطل حياة (الكاتب المصري) كما لم تطل حياة (المختار) .

ثم ما هي الا فترة قصيرة حتى ظهرت مجلة أدبية ، باسم مجلة (الكتاب) للاستاذ عادل الغضبان . غير أن هذه المجلة صارت الى ما صارت اليها الرسالة ، والثقافة ، والمقتطف ، والمختار ، والكاتب المصري ، فاحتجبت عن الانظار ، وخلا الميدان الأدبي والثقافي في مصر الامن مجلة (الهلال) التي اسسها جورجى زيدان سنة ١٨٩٢ ولم تزل باقية الى اليوم .

فما الذي افضى بالصحافة الادبيه في مصر الى هذه الكارثة ؟ وما اسبابها ؟ وهل هناك أمل في أن تعود الصحافة الادبية في مصر سيرتها الاولى ؟ الواقع إن الآراء اختلفت في هذا الموضوع اختلافا كبيرا .

فمن قائل انها الصحافة اليومية التي (عودت القراء كل بسيط سهل من الأراء والافكار . وهي تغالى في هذا المضمار ، فتنشر مقالات ربما أدت بالقارىء الى لون من الجود والتبطل الذهني . بل لعل يوما قريباً يأتى ونرى فيه القراء لا يبدلون أى جهد حقيقى لفهم ما يطالعون) (١)

ومن قائل (أن السينما أو دور الخياله طغت على الشباب المصرى . وصرفته عن القراءة فى الكتب والمجلات ونحوها ، وعودته الاعتماد على هذه الطريقه فى كسب المعلومات ، وفهم أسرار الحياة) . (٢)

ومن قائل (إن العيب الأول إما هو فى كتاب الصحف أنفسهم لقلة حظهم من الثقافة الادبية الواسعة . وفى ذلك يقول الاستاذ فؤاد افرام البستانى عميد الجامعة اللبنانية فى حديث له مع مجلة (الهاتف) العراقية :

فاذا تخصص أحدهم فى تحرير رايوة الأدب مثلاً أحس أن من واجبه أن يتحدث الى قرائه عن الأدب الفرنسى أو الانجليزى - وقد لا يكون ملماً بشيء منها - فيكتفى بنقل قطعة أدبية عن اللغة الاجنبية التى يعرفها على غير تعمق . فيعرض بضاعة اجنبية الاصل ، ولكنها فاسدة النقل . فاذا اطالع عليها أحد العارفين عزف عنها . بل عزف عن المجلة بكاملها واحتقرها) .

ومن قائل أن من أسباب اختفاء الصحف الادبية عندنا قلة عناية أصحابها بالآخر اج الفنى لهذه الصحف ، وعدم اهتمامهم بتزويدها بالصور الفنية وأشباهها . فإن فى الاكثار من هذه الصحف ما يجذب القراء ويثيرهم بشراء المجلة أو الصحيفة الخ

(١) المحاضرة المقدمة ص ١٢

(٢) اذكر ان القائل بهذا الرأى هو الاستاذ عباس العقاد.

المقالة في الاتجاه الاجتماعي

تعرفون أن الحضارة الاسلامية في مجملتها حضارة دينية المصدر والنشأة، وأن الحضارة الاوروبية الحديثة قائمة على أسس عقلية وعلمية محكمة . ومنذ التقت الحضارتان معا على أرض مصر كان من نتيجة التقائهما أن حدث تخلخل عام في الحياة المصرية ، أعقبه صراع هائل في نفوس المصريين وقلوبهم أيضا . ففكر المصريون من تلقاء أنفسهم أن يملأوا هذا الفراغ الذي أحدثته هذه الحالة في عقولهم وافئدتهم : فمنهم من عمد إلى الاتحاد جهره ، ورأى فيه الخلاص من هذا الموقف . ومنهم من عمد إلى الإصلاح الديني على أساس جديد ؛ هو عقد الصلح بين الدين والمدنية . ومنهم من فكر في الانضمام إلى المهسكر الأوروبي جملة ، وحاول ان يحتذى الحياة الأوروبية نفسها بدقة . فجاءت محاذاته لهذه الحياة مجردة من المنطق ، ولا نظر فيها مطلقا إلى ماضي الأمة المصرية وهكذا .

ولا غرابة في ذلك فأنتم تعرفون أن البيئـة المقلدة أشد من البيئة الاصلية تطرفا في التقليد . فاذا كانت مصر مقلدة لأوربا ، حديثة العهد بعلمها وحضارتها ، فعنى ذلك أنها أشد تطرفا في الأخذ من ظاهر الحضارة الحديثة . حتى لا تتمم بالتخلف عن أوروبا في مضمار هذه الحضارة . وتلك هي المشكلة التي واجهت المصالحين في مصر ، وراحوا يفكرون في حلها ، والتغلب عليها ماوسعهم التفكير في هذه المسألة .

كيف يخلق المصلحون من هذا المجتمع الذي أصابه التفكك أو التخلخل أمة قوية تصلح لمباراة الأمم الأوروبية في مجال التمدن والترقي ؟ .

قال السياسيون : فلنحارب الاحتلال البريطاني بكل قوة . ومن هنا نشأت الحركة الوطنية ، وبلغت أوجها على يد الزعيم الشاب مصطفى كامل . وقال المفكرون من غير السياسيين : بل نحارب الاستبداد في كل مظاهره ؛

كالاستبداد فى الحكم، والاستبداد فى الطبقات، والاستبداد فى الدين . وإن كنا نعلم أن الشعب المصرى من أكثر شعوب العالم كله خضوعا لحاكم مستبد ، ولطبقة إقطاعية، ولدين لم يحاول أصحابه أن يخلصوه مما علق به - عبر القرون الطوال - من خرافات وأوهام ؛ قبحت صورته. وأوهنت من قوته ، وهبطت بروحانيته الى الدرجة التى يرثى لها . وفى هذا الميدان الأخير - وهو محاربة الاستبداد السياسى والاجتماعى والدينى - وقف رجال كثيرون من أمثال : محمد عبده ، وعبد الله النديم وعلى يوسف، وبعقوب بن صنوع، وعبد الرحمن السكواكى الخ وكلهم أئمة الإصلاح الاجتماعى . ومنهم تألف الرعيل الأول فى ميدانه . أما الرعيل الثانى فمن رجاله رفيق العظم ، وعبد القادر حمزه ، وعبد العزيز جاويش ، وطنطاوى جوهرى ، ورشيد رضا الخ .

الأولون من السياسيين طالبوا بالدستور وبالجملاء ، وبهذه الأشياء التى تمس سيادة الدولة المصرية ، وتؤثر فى كيانها السياسى فى الجملة . والآخرون من المفكرين الاجتماعيين طالبوا بالإصلاح الدينى، وبالحرية الفكرية ، وبالمقاومة الفعلية لكل من تحدته نفسه من الأوربيين بمهاجمة الدين الاسلامى . ولقد كانت الوكالة البريطانية من أخطر الجهات التى هاجمت الدين الاسلامى فى تقارير كانت تصدرها كل سنة لهذه الغاية، ولغايات أخرى كذلك على أن فكرة الإصلاح الدينى أو الاجتماعى فى ذاتها صادفت هوى فى نفس كرومر وخلفائه من بعده، لأنها الفكرة التى تشغل بال رأى العام المصرى عن المطالبة بالاستقلال او الجملاء ونحو ذلك ، أو لأنها الفكرة التى لو نجحت فى مهمتها أصبحت دليلا فى ذاتها على نجاح الاحتلال البريطانى فى مهمته . وهذه المهمة فى ظاهرها هى الأخذ بيد المصريين الى الحضارة ، والسير بهم الى حيث يلحقون بالأمم الأخرى .

والحق - لقد كان كل من هذين الفريقين السابقين ؛ فريق المصلحين السياسيين ، وفريق المصلحين الاجتماعيين على صواب فى نظراته الى المجتمع المصرى ، وحاجات الأمة المصرية . وكان هؤلاء وهؤلاء مسيطرين يومئذ على الميدان الفكرى ، والميدان الأدبى . وكان من نتيجة ذلك أن اصطبح الأدب المصرى كله ، والفكر المصرى كله بصبغه اجتماعية فى أكثرها .

ولقد وضعنا آثار ذلك عند الكلام عن القصة ، وعن القصيدة ، بما لا يدع مجالاً للشك في صحة هذه الدعوى . وبق أن نوضح آثاره في المقالة ، متوخين الإيجاز الشديد . فهذا وذاك بعض تعرضنا له في كتابنا ، وأدب المقالة الصحفية في مصر .

* * *

كانت سنة ١٨٤٩ سنة ميمونة الطالع على حركة الإصلاح الاجتماعي في مصر والشرق . وذلك بما ظهر فيها من كتب هامة أشرنا إلى بعضها . ومنها كتابان لقاسم أمين . وهما كتاب (تحرير المرأة) ، فكتاب (المرأة الجديدة) وكتابان آخران لا يقلان عن الأولين شهرة ، ولا تأثيراً في المجتمع المصري وهما للسيد عبد الرحمن الكواكبي (١٨٤٨ - ١٩٠٢) . وهذان الكتابان هما : (طبائع الاستبداد) ، (وأم القرى) .

وهذان الكتابان للكواكبي عبارة عن مقالات له نشرها في صحيفة المؤيد وصحف أخرى ، ثم جمعهما بعد ذلك ، أولهما في نقد الحكومات الإسلامية . وثانيهما في نقد الشعوب الإسلامية .

« ولقد كان الحديث في مثل هذه الموضوعات التي مسها الكواكبي من الأشياء المحرمة . لأنها تمس نظام الحكم من قريب ، وتفهم الشعوب حقوقهم وواجباتهم . وتهيبهم للمطالبة بهذه الحقوق إذا سلبت ، والقيام بالواجبات إذا أهملت . . وهذا أبغض شيء لدى الحاكم المستبد . ولذلك رأينا الشرق من بعد ابن خلدون أغلق هذا الباب ، ولم يفتحه أي باحث بعده . وصار كتاب ابن خلدون مقدمه بلا نتيجة » (١)

لقد كان لهذه الكتب الأربعة من جهة « وليكتابات الافغانى ومحمد عبده من جهة ثانية ، ولصحف النديم ويعقوب بن صنوع المعروفة من جهة ثالثة الفضل كل الفضل فيما نالت البلاد من تقدم وما لاح عليها من علائم الصحة العقلية والنفسيه . ففي

هذه الكتب والصحف التي أشرنا إليها يجد الباحث طائفة من الأفكار التقدمية والآراء الإصلاحية تكفى كل واحدة منها لأن تنقل الأمة من طور إلى طور ، وتأخذ بيدها من حال إلى حال أخرى . فهذا :

محمد عبده

كان من رأيه أن الإصلاح ينبغي أن يبدأ من الدين . فقصر همه أولاً على تجديد هذا الدين ، أو على تنقيته من الخرافات والبدع التي طمست على عقول المسلمين ، وكانت سبباً في تأخرهم ؛ حتى أصبحوا سخرية الأمم الأجنبية (١)

ولاشك أن الذي يحارب البدع في أمة من الأمم يصبح عدواً لحكامها ، وأولى الأمر فيها . ، لأن هؤلاء الحكام والولاة إنما يعيش أكثرهم في ظلام البدع والأوهام والدعايات ، ويضمنون لسلطانهم البقاء في أوطان لا تعرف معنى للحرية السياسية أو الفكرية . ومن هنا كان الشيخ عدواً لعباس حلبي الثاني . وكان للشيخ محمد عبده وسائله الكثيرة إلى هذا الإصلاح ومنها : —

أولاً — تفسير القرآن . وفي القرآن دعوة إلى تحرير العقل ، وفيه حث على الفضيلة ، وفيه بيان للعقيدة الإسلامية التي بنيت على الوضوح والبساطة .
ثانياً — التوفيق بين الدين والعلم أو المدينه . وفي هذا الميدان الأخير اشترك كثيرون مع الشيخ الإمام ، وأتموا عمله في الحقيقة . ومن هؤلاء — على سبيل المثال — عبد القادر حمزه ، ورفيق العظم ، وطنطاوى الجوهري ، ورشيد رضا وغيرهم .

ثالثاً — إصلاح الأزهر نفسه . وكان الأستاذ الإمام ينظر إلى هذا الإصلاح على أنه أكبر خدمه يمكن أن تؤدي للإسلام . مادام الأزهر أقدم جامعة دينية في الشرق العربي كله ، وما دام الأزهر موئل الدين والمعتقدات

(١) كان من أخطر هذه البدع التي حاربها محمد عبده ما جاء عن طريق مشايخ الطرق أو الدراويش من مثل عادة (الدوسة) . وهي أن يدوس حمار الشيخ ظهور مريديه وهم منبطحون على الأرض وذلك يزعمهم لتلقى البركة . من الشيخ بهذه الوسيلة

في مصر والعالم الإسلامي كله .

وفي هذا السبيل تحمل الشيخ محمد عبده كل الوان الأذى ، من جانب الحكومة حينما . والشعب المصري حينما ، والأزهريين أنفسهم قبل هذين .
رابعا - الفتاوى : وكان الشيخ الامام كثيرا ما يفتى في الأمور الشرعية بوحى من عقله ، ودافع من ميله إلى الاجتهاد . ولو أن الاجتهاد باب أغلقة المسلمون على أنفسهم منذ قرون عديدة . ومنذ ارتضوا لأنفسهم ذلك وعقولهم مشاولة ، وأذهانهم مطموسة ، وتفكيرهم مصاب بالعقم والجود : استغفاه الهنود في جواز الاستعانة بالكفار وأهل البدع والأهواء فيما ينفع المسلمين من مثل تربية الأيتام وشفاء المرضى فافق بجواز ذلك (١) واستغفاه أحد المسلمين الترنسفاليين في أمور ثلاثة ، وهي :

لبس القبعات ، وأكل اللحوم التي يذبحها النصارى على غير طريقة المسلمين ، إذ يضر بونها (بالبلط) ولا يذكرون عليها اسم الله . وفي صلاة الشافعية العيدين خلف الحنفية . فافق بجواز الأمور الثلاثة .

وكثيرا ما كان الإمام يختم دروسه التي كان يلقاها على طلابه في المنطق بدعوة سافره إلى حرية الرأي .

خامسا - الرد على فلاسفة الغرب ممن كلفوا أنفسهم مهاجمة الدين الاسلامي . ومن هؤلاء الوزير الفرنسي (هانوتو) . وقد رد عليه الشيخ محمد عبده بمقالات ست ؛ انفردت كل واحدة منها بتهمة من التهم التي وجهها الوزير الفرنسي إلى الاسلام ، ثم دحض الإمام الفكرة التي بنيت عليها التهمة . (٢)

* * *

(١) تاريخ الإسلام الإمام ج ١ ص ٦٤٨ — ٦٦٦

(٢) راجع تعليقا على هذه المقالات :

كتاب (أدب المقالة الصحفية في مصر) ج ٢ ص ١٠٥ — ١٠٨

Modern Egypt لكرور ج ٢ ص ١٣٤

على أن مهاجمة الإسلام لم تكن من جانب الكتاب الفرنسيين وحدهم ، بل كانت — كما ذكرنا ذلك مرارا — بلهجة أشد وأسلوب أعنف من جانب اللورد كرومر وخلفائه من بعده .

يقول كرومر : ان الإسلام ناجح كعقيدة . ولكنه فاشل كنظام اجتماعي . فقد وضعت قوانينه لتناسب الجزيرة العربية في القرن السابع الميلادي . ولكنه مع ذلك لا يسمح بالمرونة الكافية لمواجهة تطور المجتمع الانساني . فمن عيوبه أن يحرم المرأة كل حقوقها ، ويعتبرها أخط من الرجل . ومن عيوبه كذلك أنه يبيح الرق . ومن عيوبه التعصب والتطرف الذي يبيح لأتباعه أن يتخذوا المخالفين لهم في العقيدة أسرى حرب ، ويكفر كل من لا يعتقد برسالة محمد الخ (١)

وتوالى كتابات كرومر على هذا النحو ، وهو في كل مرة يعنف في حديثه عن الاسلام والمسلمين أكثر من المرة السابقة . وانتهى من أبحاثه الى نتيجة عجيبة ، وهي قوله — في غير تدبر ولا احتياط — إن المسلم غير المتخلق بالأخلاق الاوروبية لا يصلح لحكم مصر . وأكد أن المستقبل الوزاري في مصر سيكون للمصريين الآخذين بحظ من التربية الاوربية البهتة . (١) أدرك المسلمون أن مرجع هذه الآراء الفاسدة عن الاسلام ليس إلا سوء فهم لروح هذا الدين القويم ، وجهل بتاريخه ومبادئه . ومن أجل هذا شمر الجميع عن ساعد الجدا استعدادا للدخول في هذه المعركة التي اشتركت فيها طوائف كثيرة من المصريين . منهم طائفة الادباء ، وطائفة الصحفيين ، وطائفة المترجمين ، وطائفة رجال الدين — كل بطريقته الخاصة بها .

وكم كانت هذه المعركة القلبية عنيفة في حقيقة الامر ، وكم انفق فيها المصريون من الجهد ومن الوقت ، حتى أوشكت قضية الدفاع عن الدين أن تكون معضلة في مصر على قضية الدستور نفسه ، وقضية الجلاء نفسه .

كنت لا تفتح جريدة ، أو كتاباً مؤلفاً ، أو آخر مترجماً ، أو تصغى إلى خطيب في محفل من المحافل أو ناد من الأندية حتى يكون الدفاع عن الاسلام ضد أعدائه من الاوروبيين جزءاً هاماً من هذا الكتاب ، أو الصحفيه أو الحديث أو الخطبة .

والعجيب أن بعض الشرقيين كانوا يتأثرون أحياناً بكلام الاوروبيين ، ويدونون أن يجاهروا برأيهم في هذا الموضوع فإذا فعلوا ذلك انبرى لهم آخرون من الشرقيين ، وردوا عليهم بنفس طريقتهم .

كتب الأستاذ عبد القادر حمزه مقالا بعنوان (خطر علينا وعلى الدين) سأل فيه : هل في النداء بالدين فائدة ؟ يريد بذلك أن يكون مقلداً لبعض مفكرى الغرب فيما ذهبوا اليه من أن الدين هو السبب الحقيقي في تأخير المسلمين ، وذلك لانقيادهم له انقياداً أعمى . وقال أن من الواجب على المسلمين ألا يتحمسوا للدين في كل شئ ، ولو كان في هذا تقرب إلى العامة الذين استولى عليهم الهوس الدينى . (١)

فانبرى للرد عليه الأستاذ رفيق العظم مجيباً عن سؤاله المتقدم بقوله (٢) « لقد اخطأ الكاتب حين فهم أن المنادين بالدين كلهم يدعون إلى التمسك به على ما دخله من الحشو واللغو . فنحن في حاجة إلى النداء باصلاح الدين لا النداء بالدين مطلقاً الخ »

كان الأستاذ عبد القادر حمزه متأثراً في رأيه بتاريخ النهضة الاوروبية ، وتاريخ الصراع بين الكنيسة والدولة ؛ وهو الصراع الذى انتهى بفصل السلطة الدينية عن السلطة الدنيوية . وهى فكرة جميلة كانت بعض ما أفاده المسلمون من الحضارة الاوروبية الحديثه ؛ كما سنشير إلى ذلك فى نهاية هذا الفصل .

(١) المتخطف عدد مارس ١٩٠٤ ص ٣٣١ — ٣٤٠

(٣) مجلة الهداية عدد أكتوبر سنة ١٩١٠ — نقلاً عن كتاب : الاتجاهات الوطنية

في الأدب المعاصر لمحمد حسين ج ١ ص ٣٢٧

وجاء الأستاذ رفيع العظم ، فرد عليه بأن الإصلاح المدنى تابع عادة للاصلاح الدينى . فاذا أفلح المسلمون فى العودة بدينهم إلى الحالة الأولى ، فقد أفلحوا فى العودة بالمجتمع والأخلاق إلى المستوى الذى كان يحمد لهم من قبل . تلك فكرة من الأفكار التى شغلت بال رأى المصرى العام إذذاك ، وثم أفكار أخرى شغلت بال المفكرين أيضا . سنعرض لبعضها عندما نقف هذه الوقفات القصيرة مع آخرين من المفكرين - فيما عدا الشيخ محمد عبده . ومنهم :

عبد الله النديم

ولاهمية هذا الاخير نأتى بذكره كلها سنحت الفرصة . والنديم رجل يمتاز - كما قلنا - بشعبيته التى لم يكن لها نظير فى مصر والشرق فى القرن الماضى . كان من أقدر الناس على الخطابة ، ومن أقدرهم على الانغماس فى المجتمع المصرى بمختلف طبقاته ، ومن أعلمهم بمحاسن هذا المجتمع وعيوبه (١) . وكانت وسائل النديم فى سبيل الإصلاح الاجتماعى كثيرة منها : الوسيلة الصحفية - ولعل من أهم صحفه يومئذ جريدة التنكيك والتبكيك . ومن وسائله الرواية التمثيلية . وقد كان يعنى بتأليف هذه الروايات ، وينشرها فى الصحف والمجلات ، وكان يشترك بنفسه مع التلاميذ فى تمثيلها بالمدارس التى كان يقوم بإنشائها ، ويشترك كذلك فى التدريس بها . ومن أهم هذه الروايات (رواية الوطن) (٢) . وفيها يصور الظلم الذى كان يقاسيه الفلاح فى مصر من رجال الإدارة المصرية ، من لدن المدير إلى الصراف ، وشميخ البلد ، ومهندس الرى ، ومشايخ القرية الخ ومنها - أى من وسائل النديم - الخطبة . وقد كانت المجتمعات العامة فى مصر لا غنى لها مطلقا عن النديم ، حتى شاع عن محمد عثمان المغنى انه كان إذا سئل أين تغنى الليلة ؟ قال : فى الفرح الفلانى مع عبد الله النديم (٣) .

(١) راجع زعماء الاصلاح للاستاذ احمد أمين ، وسلافه النديم لأحمد سمير وأدب المقالة

الصحفية فى مصر . الجزء الثانى للمؤلف

(٢) انظر سلافه النديم ج ٢ ص ٣٣

(٣) أدب المقالة الصحفية فى مصر ج ٢ ص ١٢٢

ثم من وسائل الجمعيات والمدارس . وقد كان النديم مشتركا في جمعية سرية يقال لها (مصر الفتاة) . وتحولات على يديه إلى (الجمعية الخيرية الإسلامية) . وكان من أغراض هذه الأخيرة نشر التعليم بين الفقراء بالمجان . ولذا جمع النديم كثيرا من التبرعات لهذه الغاية .

وكان من أهم المواد التي يقوم بتدريسها في تلك المدارس مادة الإنشاء ، ومادة الخطابة .

ومهما يكن من شيء فلم يكن أشد على دعاة الحضارة الأوروبية والمعجبين بها من قلم النديم ، وذلك منذ آلى على نفسه أن يحارب الفساد الخلق الذي نجم عن هذه الحضارة الغربية . وكانت مجلة التنكيت والتبكييت مسرحا لهذه الحرب الشعواء التي شنّها الرجل على الشباب المصري بعد إذ تمتعت أخلاقه بسبب هذا القسط الضئيل الذي ناله من حضارة أوروبا (١)

وكان النديم في نفس الوقت من أشد المتعصبين للحضارة الإسلامية ، واللغة العربية ، حتى كتب المقاتلات الطوال دفاعا عن هذه اللغة ، ودعا في جريدة (الأستاذ) إلى تكوين (مجمع للغة العربية) (٢)

ولعل من أشهر مقالاته في الدفاع عن العربية مقالة له بعنوان : اضعاء اللغات تسلييم الذات . نشرها في العدد الثاني من أعداد جريدة (التنكيت والتبكييت) التي مر ذكرها .

الكواكبي

أما الكواكبي فهو رجل من أسرة شريفة في حلب . وقف نفسه على مكافحة فكرة واحدة ، لعلها من أخطر ما يشكونه الشرق الإسلامي إلى اليوم . وهي فكرة (الاستبداد) - ذلك الداء الذي قتل مواهب الأمة الإسلامية ، وكانت

(١) انظر حكاية (عربي تفرنج) .

(٣) (اللغة والانشاء) مقال للنديم بمجلة الأستاذ بتاريخ ٢١ أكتوبر ١٨٩٢

له آثار بعيدة المدى في خلقها وتربيتها ، وكان العامل الوحيد في تلف شخصيتها وضعف إرادتها إلى الحد الذي أزرى بها وبماضيها وحاضرها بين سائر الأمم !
 « ومن أين لأسير الاستبداد أن يكون صاحب إرادة؟ وهو كالحیوان المملوك العنان ، يقاد حيث يراد به . ويعيش كالريش يهب حيث تهب الريح بلا نظام ولا إرادة . وما هي الإرادة؟ هي ناموس الأخلاق . هي ما قيل فيها تعظيما لشأنها : لو جازت عبادة غير الله لاختار العقلاء عبادة الإرادة . هي تلك الصفة التي تفصل الحيوان عن النبات في تعريفه بأنه متحرك بالإرادة . وأسير الاستبداد الفاقد الإرادة مسلوب حق الحيوانية فضلا عن الإنسانية، (١)
 « الاستبداد مفسد للدين . وذلك في أهم قسميه - أي الأخلاق - وإما العبادات فإنه لا يمسها ، لأنها تلاميذ في الأكثر . ولهذا تبقى الأديان في الأمم المأسورة عبارة عن عبادات مجردة صارت عادات . فلا تفيد في تطهير النفوس شيئا ، لانتهى عن فحشاء ولا عن منكر . وذلك لفقد الإخلاص فيها تبعا لفقدها في النفوس .
 « والاستبداد مفسد للتربية والأخلاق . لأنه يضطر الناس إلى استباحة الكذب والتخيل والخذاع والنفاق والتذلل وسراغمة الحس وإماتة النفس الخ وفي الحقيقة أن الأولاد في عهد الاستبداد سلامل من حديد يرتبط بهمسا الآباء على أوتاد الظلم والهوان والخوف والتضييق ، فالتوالد زمن الاستبداد حمق . والإعتناء بالتربية حمق مضاعف . . وغالب الاسراء لا يدفعهم للتوالد قصد الإخصاب . إنما يدفعهم اليه الجهل المظلم ، وأنهم محرومون من كل الملمات الحقيقية كاذة العلم ، ولذة المجد ، ولذة الإثراء ، ولذة البذل ،
 « والاستبداد يفسد الميول الطبيعية ، والأخلاق الحسنة ، ويقاب الحقائق في الأذهان ، وينزل بالإنسان إلى مستوى البهائم ،
 ثم قال :

« والاستبداد مفسد لدولاب العمل نفسه في الحكومة . فالحكومة المستبدة تكون مستبدة في كل فروعها ، من المستبد الأعظم إلى الشرطي ، إلى

الفراش ، إلى كناس الشوارع . ولا يكون كل صنف إلا من أسفل أهل طبقته أخلاقا . لأن الأسافل لا يهتمهم جالب محبة الناس . إنما غاية مسعاهم اكتساب ثقة المستبد فيهم بأنهم على شاكلته ، وأنصار دولته ...
 « إن العقل والتاريخ والعيان : كل يشهد بأن الوزير الأعظم للمستبد هو اللئيم الأعظم في الأمة . ثم من دونه من الوزراء يكونون دونه لئوما . وهكذا تكون مراتب أئومهم حسب مراتبهم في التشريفات ... والنتيجة أن وزير المستبد هو وزير المستبد ، لا وزير الدولة ، كما هو الحال في الحكومات الدستورية »

ثم يقول الكواكبي بعد هذا كله :

« ومن طبائع الاستبداد أن الأغنياء أعداؤه فكرا ، وأوتاده عملا . فهم رباط المستبد : يذلهم فيستون ، ويستدرهم فيخنون . ولهذا يكثر الذل بين الأمم التي يكثر أغنيائها . أما الفقراء فيخافهم المستبد خوف النعجة من الذئب ، ويتحجب اليهم ببعض الأعمال التي ظاهرها الرأفة . يقصد بذلك أن يغتصب قلوبهم التي لا يملكون غيرها . والفقراء كذلك يخافونه خوف دناءة ونذالة . فهم لا يجسرون على الافتكار فضلا عن الإنكار . وكانهم يتوهمون أن في داخل رموسهم جواسيس عليهم » .

هكذا تحدث الكواكبي عن الاستبداد فوضح كيف أنه مفسد لكل شيء . في الأمة ؛ وأن أول ما يفسده هو (الحرية) « لأنه لاضامن للحكام أن يجعلوا الشعرة من التعقيد مسالة من حديد ، يخنقون بها عدوتهم الطبيعية - أي الحرية ، ولكن ما السبيل إلى التخلص من الاستبداد في الأمة .

« إن الوسيلة الوحيدة لقطع دابر الاستبداد هي ترقية الأمة في الإدراك والإحساس . وهذا لا يتأتى إلا بالتعليم ، ^(١)

(١) بين كلام الكواكبي في كتاب طلائع الاستبداد ومقالات الأستاذ أحمد لطفي السيد في (الجريدة) حول موضوع التربية والتعليم ، وموضوع أخلاق الموظفين شبه كبير . ومن الأمثلة على ذلك مقال لهذا الأخير عنوانه (عبادة البسالة) . أدب المقالة الصحفية في مصر : الجزء السادس : قسم النماذج

قاسم أمين

بقيت الإشارة الموجزة الى أمير المصلحين الاجتماعيين - وهو هنا (قاسم أمين) . وأراءؤه معروفة لدى كل قارئ عربى فى أيامنا هذه . وقد ضمن هذه الآراء كتابيه المعروفين ، وهما (تحرير المرأة) و(المرأة الجديدة) . فى الاول دعا الى السفور ومساواة المرأة بالرجل .

وليس فى الشريعة الاسلامية نص يوجب الحجاب بالطريقة المعروفة . وانما هى عادة عرضت للشريعيين من مخالطة بعض الأمم ، واستحسنوها وأخذوا بها ، وألبسوها ثوب الدين .

ومضى قاسم أمين يفسر سور القرآن الكريم بما يتفق وهذه الفكرة . وأستأنس ببعض أخبار الرعيل الأول من المسلمين ، فنقل عن الطبرى قصة عمر بن الخطاب حين وفد عليه ضيف ، فأمر له بالغداء ، ودعا زوجته (أم كلثوم) فأنت لتأكل معها .

وعالج المؤلف فى هذا الكتاب مشكلات عدة . منها حق المرأة فى التعاقد الشرعى مع الرجل . ومنها حق الرجل فى أن يرى خطيبته قبل الشروع فى الزواج . ومنها اشتغال المرأة بالشئون العامة فى المجتمع . ومنها حق المرأة فى العمل بيدها لكسب العيش . ومنها تعدد الزوجات ، ولماذا شرعه الاسلام عند الضرورة القصوى ؟ ومنها مشكلة الطلاق ، ولماذا أبيع فى الاسلام ؟ ومتى يكون ذلك ؟

وأثار الكتاب ضجة كبرى فى المجتمع المصرى الذى لم يستعد بعد لتقبل هذه الدعوة . وزاد فى عوامل الضجة يومئذ اشتغال الكتاب على طائفة من العبارات التى منخر فيها المؤلف من رجال الدين ، ومن الجبهة المتعصبين من المسلمين ، ومن الداعين الى عدم الأخذ من العلوم الاوروبية الحديثة .

وفى الكتاب (الثانى) دعا قاسم أمين جميع المصريين الى رفض الفكرة القائلة بأن العادات المصرية أفضل العادات ، وأن ماسواها لا يستحق العناية والانتفات . لأن هذه الفكرة تسد الباب مددا امام المصلحين الذين يريدون

ان ينقلوا المصريين الى حاله أحسن من حالتهم، ومجتمع أفضل من مجتمعهم.
ثم من هذه المقدمة انتقل الكاتب الى النتيجة التي دعا اليها ، وهي جواز
الآخذ من الحضارة الاوروبية بأحسن ما فيها . قائلا :

« ولاخوف علينا من ذلك بدعوى ان الاعتراف بفضل الاجنبي بما يزيد
طمعه فينا . اذا الواقع أن السبب في طمع الاجانب فينا ليس هو الاعتراف
بأخطائنا ، وإنما هو ذلك الانحطاط نفسه » (١) .

وينتقل الكاتب من ذلك الى مناقشة الفكر المصري الحديث في مسائل أخرى
بزعم هذا الفكر الحديث أنها صحيحة وليست بصحيحة . ومن ذلك زعم بعضهم
أن المرأة مخلوق ناقص العقل والتفكير ، وأنها أضعف من الرجل ، وأقل منه
قدرة على مقاومة المغريات التي تثير الشهوات . فيرد الكاتب على ذلك :

« بأن علم التشريح يثبت بغير ذلك . فهو يدل دلالة قاطعة على المساواة
التامة بين الرجل والمرأة فيما يسمى (بالمملكات) » .

« وكيف نحكم على المرأة بنقصها في المملكات ، ونحن لم نتح لها الفرصة الكاملة
التي تظهرنا فيها على هذه المملكات ؟ »

« بل كيف نحكم على المرأة بضعفها أمام المغريات والشهوات ونحن لم
نسمح لها بعد بالسفور الذي يظهرنا على قدرتها أو عجزيتها من هذه الناحية ؟
« ان العفة انما تكسب بمنح الحرية للمرأة » . ولو أدرك المتزمنون ذلك
لعدلوا عن كثير من آرائهم السخيفة في هذا الموضوع .

« ان السبب الحقيقي في ضعف المرأة الشرقيه انما هو سجنها والتضييق
عليها ، وحرمانها من لذة الرياضة من اى نوع ، وزيادة الحجر عليها كلها
تقدمت بها السن ، والحيولة بينها وبين مخالطة الرجال . مع ان الحرية هي
منبع الخير للانسان ، وأصل ترقيته ، وأساس كماله الادبي ،

« وقد عاشت الأمه المصريه اجيالاً في الاستعباد السياسي . فكانت نتيجة
ذلك انحطاطاً عاماً في جميع مظاهر حياتها : انحطاط في العقول ، وانحطاط في

الاخلاق وانحطاط في الأعمال . وما زالت تهبط من درجة الى أسفل منها ، حتى انتهى بها الحال الى ان تكون جسما ضعيفا غليلا ساكنا ، يعيش عيشة النبات اكثر من عيشة الحيوان . فلما تخلصت من الاستعباد رأت نفسها في أول الأمر في حيرة لا تدري معها ماذا تصنع بحريتها الجديدة ؟

« وهكذا يكون الحال بالنسبة لحرية النساء : أول جيل تظهر فيه حرية المرأة تكثر فيه الشكوى منها . ويظن الناس أن بلاء عظيما قد حل بهم . لأن المرأة تكون في دور التمرين على الحرية . ومع مرور الزمن تتعود المرأة على استعمال حريتها ، وتشعر بواجباتها شيئا فشيئا ، وترقى ملكاتها العقلية والأدبية . وكلما ظهر عيب في أخلاقها يداوى بالترفيه حتى تصير انسانا شاعرا بنفسه » (١)

ثم عاد الكاتب فناقش موضوع اشتغال المرأة بالأعمال العامة . وبنى ذلك على شعورها بالمسؤوليات الثلاث الملقاة على عاتقها : مسؤوليتها نحو نفسها ، ومسؤوليتها نحو اسرتها ، ومسؤوليتها نحو المجتمع .

فاما من حيث المسؤولية الاولى فلا ينبغي للوطن الذي يحترم نفسه أن يقصر المرأة على الأعمال الحقيرة الممتنة ، كالخدمة في البيوت ، وبيع السلع الزهيدة في الطرقات ونحو ذلك . فمن حقها — اذن أن تعد نفسها — متى ارادت — لتكون معلية ، أو طبيبة ، أو مهندسة . وليس في الشريعة الاسلامية ما يحرمها كل ذلك .

واما من حيث المسؤوليتين الثانية والثالثة فقد عول الكاتب في شرحهما على أن السبب الأول والأخير في تأخر الامم الاسلامية في وقتنا الحاضر انما هو (إهمال الاسرة) . وقد رد ذلك الى شيء واحد فقط هو جهل المرأة .

* * *

والخلاصة في أثر الحضارة الأوروبية التي التقت على أرض مصر بالحضارة الاسلامية أنها — بغض النظر — عن سواها ، قدمت للمسلمين هذه الافكار :

أولا - فكرة الحرية الشخصية ، وفكرة الوطن والوطنية وفكرة الأخوة الإنسانية . وقد روج الأوروبيون المستعمرون لهذه الفكرة الأخيرة عليها منهم بأنها فكرة تقبها الشعوب الضعيفة المظلومة . وبالفعل تقبها الناس في هذه الشعوب ، وأفادوا منها - بالرغم من سوء نية الأوروبيين ، وبالرغم من أنها الفكرة التي أتى بها الدين الاسلامي نفسه قبل ذلك بأكثر من ألف سنة !

ثانيا - فكرة الدستور والمطالبة بالحياة النيابية . نعم في الإسلام دعوة إلى الشورى . ولكن هذه الدعوة - كغيرها مما في القرآن الكريم - دعوة عامة ولا شك أن الغرب هو الذي أتى بهذه الصورة الجديدة للشورى إلى مصر . وقد استهوت الشرق نفسه هذه الصورة ، فطفق يدعو لها ، وكافح كفاحا طويلا من أجلها .

ثالثا - فكرة تحرير المرأة . وقد سبق القول بأن الإسلام آمن بحق المرأة من نواح شتى ، وأن الحجاب والقيود الكثيرة التي رسخت فيها - المرأة المسماة لم تكن من صنع الدين ، ولكن من صنع الأمم الكثيرة التي اعتقت هذا الدين . وقد تنبه إلى هذا قاسم أمين فصصح الوضع بالقياس إلى المرأة المصرية ، وفك يده قيدها ، ثم فتح أمامها أبواب العمل والعلم معا . وإن كان من الحق هنا أن يقال إن رفاة الطهطاوى في النصف الأول من القرن الماضي سبق (قاسم أمين) إلى الدعوة إلى تعليم الفتاة المصرية واقنع بذلك (ديوان المدارس) .

رابعا - فكرة الأخذ من العلوم الحديثة ، ولم تصادف هذه الفكرة من القبات ما صادفته الأفكار الأخرى . فانتشرت المطابع ، وانتشرت الصحف وعرفت المكتبات ، وعرفت المعامل ؛ ودرست علوم الطب ، والهندسة والكيمياء والفلك وغيرها . وأصبح لهذه العلوم على اختلافها مكان خاص من النهضة الحديثة .

خامسا - فكره الفصل بين السلطة الدينية والسلطة الدنيوية ؛ وهي الفكرة التي أغرت باعتناقها الكثيرين من المصريين عقب فراغهم من قراءة التاريخ الأوروبي . ونحن نعرف أن من أروع صفحات هذا التاريخ صفحة النزاع

المريير بين الدولة والكنيسة .

وهل ينسى التاريخ (محاكم التفتيش) ، و (صكوك الغفران) ، ووقوف الملوك أذلاء بين أيدي البابوات ونحو ذلك ؟

قرأ الشرقيون هذا التاريخ ، وذكروا معه طغيان السلطان عبد الحميد ومن حوله من رجال الدين ، وهم يسيطرون على عقله ، ويدخلون في روعه أن الاسلام دعا إلى كيت وكيت ، وأن المسلمين في مشارق الأرض ومغاربها راضون منه بكيت وكيت . وبالغ وزراء السلطان محمود من قبل في تعظيمه حتى خلعوا عليه لقب (خليفة المسلمين) . فأمعن السلاطين في ظلمهم ، وأخذ الدجالون الدينيون يزينون لهم كثيراً من عملهم . وكان من نتائج ذلك كله في الميدان الأدبي والصحفي ظهور كتاب « ما هناك » (١) لابراهيم المويلحي ، وكتاب « ذكرى وعبرة » (٢) لسلیمان البستاني . وموضوع الكتابين معا هو الحكم العثماني على يد عبد الحميد ، وما آل إليه من فساد خطير وكلا الكتابين عبارة عن مقالات نشرت تباعاً في صحف مصر وسوريا .

في تلك المجالات الاجتماعية السابقة كلها مبيح كتابنا المصريون ، والشرقيون ، واتخذوا من الصحافة ميداناً لهم ، ومكاناً فسيحاً لأرائهم . ومنبراً عالياً لنشر هذه الآراء في الإصلاح ؟

(١) ادب المقالة الصحفية في مصر ج ٣ ص ١٢٠ - ١٥٠

(٢) الاتجاهات الوطنية في الأدب المعاصر للدكتور محمد حسين ص ٢٦٨ - ٢٧٣

المقالة في الاتجاه السياسي

في أفق السياسة المصرية ظهرت طائفة من المسائل السياسية شغلت بال الرأي العام المصري . وتقدمت الصحف للتعبير عن هذا الرأي ، وسنرى أنه كان لهذا الاتجاه السياسي - في جملة - تيارات أربعة : هي التيار التركي ، والتيار الفرنسي ، والتيار الانجليزي . والتيار القومي . وبقيت هذه التيارات السياسية تصطرع في خضم الحياة المصرية حتى كتبت الغلبة للأخير منها -- وهو التيار القومي .

ولكن كم كان الطريق وعراً ، والجهد شاقاً . والظلمة حالكة أمام الذين جاهدوا في سبيل الوصول إلى هذه الغاية الأخيرة . وإذا ذهبنا نحصى المسائل السياسية التي ناقشتها الصحف المصرية منذ نشأتها وجدنا أن أهم هذه المسائل ما يلي :

حفر قناة السويس

وقد بدأ التفكير في حفر القناة منذ أيام محمد علي . ولكن شخصية هذا الرجل وصلابة عوده كانت حائلاً دون الفرنسيين الذين لم يستطيعوا اقناعه بالسهولة التي اقتنع بها خلفاؤه من بعده .

ثم جاء سعيد - وكان من سياسته أولاً ألا يتيح للأوروبيين فرصة التدخل في شؤون مصر . ولكن سياسته تغيرت في أيامه الأخيرة ؛ وذلك منذ عرض عليه (دلسبس) فكرة المشروع ، فوافق عليها مبدئياً دون دراسة من جانبه ، أو من جانب الرأي العام المصري لهذه الفكرة .

وفي عهد اسمعيل ظهر التدخل الأجنبي في مصر بصورة سافرة . واستطاعت كل دولة من الدول الأوروبية صاحبة المصالح الحقيقية في الديار المصرية أن تعبر عن رأيها حيال هذه المسألة :

فأما بريطانيا فكانت تعارض المشروع مادام القائمون به ، وأكثر الممكتبتين فيه من الفرنسيين وخدمهم .

وأما فرنسا فهي التي ترى الخير كل الخير في حفر القناة ، والوصول إلى المحيط الهندي ، رغبة منها في تدعيم التجارة - لا أكثر ولا أقل ،

ودارت المقالات الصحفية مدة ما على هذا المحور السياسي والاقتصادي : فالصحف البريطانية في مصر - ومنها (البروجيه) - وهي صحيفة انجليزية تصدر باللغة الفرنسية - كانت تؤيد وجهة النظر الإنجليزية ، وتدعو السلطان العثماني إلى عدم الموافقة على المشروع ، وتحرضه على الامتناع عن منح امتياز القناة للشركة الفرنسية .

والصحف الفرنسية - ومنها صحيفة النيل ، ومنار الإسكندرية وغيرهما - كانت تشيد بالفوائد الجلية التي ستجنيها مصر والعالم والانسانيه كلها من وراء هذه الفكرة .

(A) وفي عهد اسمعيل انقسمت الصحف منذ البداية إلى قسمين : أحدهما يؤيد الفرنسيين ، والآخر يؤيد الإنجليز . وإن كانت الصحف المؤيدة للإنجليز عبارة عن صحافة هزيلة ينفق عليها القنصل البريطاني في مصر .

ثم في عهد توفيق ظهرت الصحافة الوطنية بالمعنى الصحيح ، وبرز في الميدان الصحفي أمثال عبد الله النديم ، ومحمد عبده ، فدعا الجميع يومئذ إلى ردم القناة ما دامت تجر على مصر كل هذا الويل ، وتدعو الدول الأوروبية إلى التدخل المستمر في شؤون مصر .

ثم في عهد عباس حلمي الثاني أضيف إلى التيارين المتقدمين - وهما التيار الفرنسي والتيار الإنجليزي - تياران آخران ، أحدهما يدعو إلى السيادة التركية ، والآخر يدعو إلى القومية المصرية .

أما السيادة التركية فدعت إليها صحف كان يعاونها السفير التركي أحمد مختار باشا الفازي قبل سحبه من مصر : وكانت هذه الصحف قليلة الأهمية وأما صحيفة المؤيد للسيد على يوسف فكانت تدعو للخديو عباس وحده وأما اللواء لمصطفى كامل فكانت تدعو إلى الولاء للسلطان العثماني . وهما معا

بمغنيان التخلص من الاستعمار البريطاني . ولو أنه لم يرد في جريدة اللواء بنوع خاص ، ما يتعارض والنفوذ الفرنسي الذي أخذ يقوى في مصر ، ويصبح له تأثير في الميدان الاقتصادي يتفوق تفوقاً ظاهراً على التأثير الانجليزي في هذا الميدان .

وأما (الجريدة) لمحررها أحمد لطفي السيد فكانت تدعو إلى القومية المصرية ، وترى في هذه الدعوة الأخير السبيل الوحيد إلى الاستقلال الذي تشره الأمة ، والتخلص النهائي من التدخل الأجنبي .

مسألة الدستور

كانت مسألة الدستور من أهم المسائل السياسية التي اشتغلت بها الصحافة المصرية .

وللحياة الدستورية في مصر ثلاثة أطوار :

أولها — الطور الذي يمثله مجلس شورى النواب من سنة ١٨٦٨ — إلى قرب الاحتلال البريطاني سنة ١٨٨٢

وثانيها — الطور الذي يمثله الجمعية العمومية ومجلس شورى القوانين ابتداء من سنة ١٨٨٢ إلى قرب قيام الحرب العظمى .

وثالثها — الطور الذي يمثله برلمان سنة ١٩٢٤

على أن من الخطأ أن ننظر إلى الطورين الأولين كأنهما يمثلان حياة نيابية سليمة . إذ الواقع أن المصريين كانوا يتوقون إلى حياة دستورية صحيحة كتملك التي تنعم بها البلاد الأوروبية الكثيرة . ولكن الحاكم المصري الشرعي من جهة . والحاكم الأجنبي من جهة ثانية لم يتيح لهم هذه الفرصة الطيبة . فبقيت مصر محرومة من نعمة الدستور على الوجه الصحيح . وذلك رغماً من الجهاد الطويل الذي بذلوه في هذا السبيل . (١)

نعم — طالب المصريون بالدستور تشبهاً منهم بالأوربيين ، وبالشعب

(١) راجع مقالا للمؤلف بعنوان أجواء فكرية وسياسية عاش فيها الأدب والصحافة

المصرية : المجلد السادس عشر من مجلة كلية الآداب : جامعة القاهرة الجزء الأول ١٩٥٤

العثماني الذي منحه السلطان عبد الحميد هذا الدستور . وكان من نتيجة ذلك دخول المصريين في الطور الأول من حياتهم الدستورية ، وهو الطور الذي يمثل مجلس شورى النواب .

غير أن المصريين - حين تبين لهم سوء قصد الخديو وأعوانه ، وأنه لم يمنح مصر دستورا بالمعنى الصحيح أخذوا يلجأون إلى طريقة أخرى ؛ هي طريقة الجمعيات السرية التي طفقت تطالب بين الحين والحين بطائفة من المطالب الدستورية ، كانت تصدر بها بيانات مثالية يقرؤها الشعب المصري ويفعل بها انفعالا ظاهرا .

ومن هذه الجمعيات على سبيل التمثيل :

(جمعية الضباط الفلاحين) الذين شعروا بشعور واحد يومئذ - هو شعور التذمر من سوء المعاملة التي كانوا يعاملون بها في داخل الجيش المصري . فقد كان ولاية هذا الجيش يفضلون عليهم الضباط الشراكسة . لذلك اجتمع رأيهم على إنشاء هذه الجمعية . وكان رئيسها واحدا منهم اسمه (علي الروي) . وجذبت الجمعية اليها (الأمير حلیم) وركزت حوله آمالها . ووصلت أنباء هذه الجمعية إلى مسامع الخديو اسمعيل ، وفكر في البطش بها . ولكن الجمعية استطاعت فيما بعد أن تضم اليها كلا من أحمد عرابي وعبد العال وفهمي ، وهم - فيما بعد - زعماء الثورة العرابية .

ومنها (جمعية مصر الفتاة) - وهي الجمعية التي كان من أعضائها أديب اسحق وعبد الله النديم وغيرهما . وهي الجمعية التي استطاع النديم - فيما سبق لنا من حديث - أن ينتقل بها من السر إلى العلن فتحولت على يديه إلى (الجمعية الخيرية الإسلامية) .

ويصح أن يكون من هذا النشاط السري كذلك ما عرف في مصر باسم (المحفل الماسوني) وهو المحفل الذي انضم اليه كل من الأمير حلیم ، والأمير توفيق ، والسيد جمال الدين الأفغاني . وعن طريق هذا الأخير تمهد الطريق لظهور (الحزب الوطني) والثورة العرابية (١) .

(١) راجع في ذلك فصلا بعنوان الجمعيات السرية ص ٧٥ من كتاب

والحق ان الثورة العرابية - وهي رمز للمقاومة الفعلية التي بدت من جانب المصريين - كانت تهدف الى المطالبة بالدستور ، وكانت ترمى الى وقف النفوذ الاجنبى الذى تمثل - يومئذ - فى الضباط الشراكسة . ولعل أهمية الثورة العرابية فى تاريخنا الحديث ترجع الى هذه الأمور ، وإلى أمر آخر له دلالة وخطورته ، وهو هنا شعور المصرى بشخصيته ، ورغبته فى مقاومة حاكمه ، والحد من سلطته .

ولو قد نجحت الثورة العرابية - كانت لها من النتائج الخطيرة ما يدل عليه خطاب (عرابى) الى المستر (بلنت) . وفيه يقول :
 " ثم خلع اسماعيل فزال عنا عبء ثقیل . ولكننا لو كنّا نحن قد فعلنا ذلك بأنفسنا لکنّا نخلصنا من أسرة مجحمة على أجمعها ، ولکنّا عندئذ أعلنّا الجمهورية ، (١)
 غير أن الثورة العرابية منيت بالفشل ، وجاءت بالاحتلال البريطانى الذى هو السبب الحقيقى فى قيام :

الحركة الوطنية

وقد تولد عن هذه الحركة كثير من المشكلات :
 ومنها مشكلة عباس - وقد رأينا كيف كان هذا الأمير الشاب يتجهس للحركة أولاً ، ثم ينسحب منها بعد ذلك .
 ومنها مشكلة النزاع بين السلطة الشرعية ممثلة فى كرومر ، والسلطة الاسمية ممثلة فى عباس . بل أن هذه المشكلة الأخيرة كانت من أقوى أسباب الحركة الوطنية فى الحقيقة . كما كانت سبباً من أسباب ذلك الاتجاه الوطنى الذى اتجهت اليه الأمة المصرية نحو انشاء الاحزاب السياسية . فظهر منها أولاً (حزب الامه) . وبلسانه تتحدث (الجريدة) ، فحزب الاصلاح على المبادئ الدستورية بلسانه تتحدث (المؤيد) ، فالحزب الوطنى ، وبلسانه تتحدث (اللواء)

(١) محمد حسين الاتجاهات الوطنية فى الأدب المعاصر ص ١٤١ نقلاً عن رسالة مخطوطة موضوعها (البارودى) كتبها السيدة نفوسة زكريا للحصول على ورقة الماجستير - راجع الرساله ص ٣٨ .

A.

وأحب الانجليز أن يقتلوا الحركة الوطنية في مهدها ، فلم يجدوا امامهم أمضى من سلاح (التفريقه). فنفثوا سموها في جسم الأمة ، وظهرت أعراض المرض عليها بظهور (المسألة القبطية) . وانقسم الشعب المصري نفسه قسمين : مسلمين وأقباطا . هؤلاء يزعمون أنهم مظلومون في المجتمع المصري الحديث . وأولئك يرون انهم هم المظلومون بسبب الاحتلال البريطاني الذي فضل الاقباط عليهم وآثرهم بوظائف الدولة . وبلغت الفتنة اقصاها عندما عقد الاقباط مؤتمراً لهم بمدينة أسيوط . ورد عليهم المسلمون بمؤتمر لهم بمصر الجديدة . وكان ذلك سنة ١٩١١ في وزارة رياض . وما كادت الحركة الوطنية تفيق من هذه النكسة القومية حتى ظهرت حادثة دنشواي . فانهزها الزعيم الشاب مصطفى كامل فرصة للتشنيع بالاحتلال في داخل البلاد وخارجها ، ونجح نجاحاً منقطع النظير في هذه الحملة . وربحت الحركة الوطنية رجاء عظيم من وراء ذلك .

والحق أن لهذه الحادثة المشؤمة — التي هي حادثة دنشواي المشهورة الفضل كل الفضل فيما بدا على الحركة الوطنية من مظاهر القوة ، وما ظفرت به من النجاح ،

وإن من يتصور حالة البلاد منذ الاتفاق الودي سنة ١٩٠٤ ، ويتمثل اليأس الذي خيم عليها منذ ذلك التاريخ ليعجب كيف ان الله تعالى يخلق من الشر خيراً ، ويجعل الحنة سبباً للفرج في بعض الاحيان .

فلولا هذه الحادثة لما خرج اللورد كرومر من مصر .

ولولا هذه الحادثة لم بدت الصحوة والعافية على الصحافة المصرية في ذلك الوقت .

ولولا هذه الحادثة لما خرج السيد علي يوسف في (المؤيد) بمقالاته المشهورة (قصر الدوبارة بعد يوم الاربعاء) .

ولولا هذه الحادثة لما ارتفع صوت مصطفى كامل في خطبه وصحفه التي أصدرها باللغتين الفرنسية والانجليزية

وكتب، فيها مقالات قوية ، من أهمها مقال بعنوان : (الى الامه الانجليزيه والعالم المتمدن) .

وباختصار شديد - لولا هذه الحادثه - لاستفحل داء اليأس في نفوس المصريين ، وفقدوا الأمل نهائيا من التخلص من الانجليز .
لهذا ينظر التاريخ الى حادثه دنشواى على أنها نقطه التحول الحقيقى فى الحركه الوطنيه ، والنشاط المصرى من حيث هو .
ولا شك أن كان من أجل المطالب الوطنيه التى اجمعت عليها الامه :

* * *

مطلب الجلاء

وصحيفة المؤيد من أولى الصحف التى طالبت بجلاء الانجليز عن الديار المصريه ، وسجلت على الحكومه البريطانيه نحو من ثلاثين وعدا بالجلاء عنها . وكان الانجليز لا يفتأون ينتحلون الأعذار الواهيه لبقائهم فى مصر . ولعل من اقوى هذه الأعذار فى نظر العالم المتمدن يومئذ حجة الدفاع عن العرش المصرى ، وحجة اصلاح البلاد من جميع النواحي الإقتصاديه والثقافيه فى ذلك الوقت . وهنا انبرى لهم السيد على يوسف فى المؤيد ، وناقشهم هذه الدعوى منافشة منطقيه قوية ، أشعرهم فيها بكنبهم . وأخرجهم أمام الدول الأجنبية المعاديه لهم . وطفق يقول لهم :

« أحق ماتقولون من أنكم ستتركون مصر عند تمام اصلاحها ؟ وما هو هذا الإصلاح الذى تعلقون عليه أمر انجلائكم ؟ وهل بدأتم فيه ؟ أم ثم شئ منه ؟ » (١)

وكان من سياسة روزفلت الأمريكى فى ذلك الوقت مساندة الاحتلال البريطانى فى مصر . وجاء هذا الرجل فى زيارة الى مصر ، وخطب بالجامعة

(١) راجع فى ذلك متتجات المؤيد : -

مقال بعنوان . متى تصلح مصر ص ٣٠

وآخر بعنوان يابنى مصر ص ٤٧ .

المصرية خطبه في هذا المعنى. فرد عليه السيد على يوسف ردودا مقنعة سمعت بها الصحف الأمريكية التي يعينها الأمر . واستكتبت صاحب المؤيد مقالا طويلا في موضوع هذه الزيارة ، وفي رأى المصريين في الاحتلال والجلاء فاجابها السيد على يوسف الى ذلك (١) .

وبعد ظهور المؤيد بثلاث سنوات - أعنى في سنة ١٨٩٢ ظهرت جريدة (الاستاذ) . أصدرها النديم ، وحارب فيها الاستعمار الأوربي محاربة لا هوادة فيها . وطالب فيها بجلاء القوات البريطانية عن مصر . ولعل من أقوى ما كتب النديم في ذلك مقالا له بعنوان :

« لو كنتم مثلنا لفعلمتم فعلنا » (٢)

وفي هذا المقال الأخير دفاع عن عباس بوصفه صاحب السلطة الشرعية في البلاد ، وهجوم على كرومر - وقد أثار ضجة كبرى ضد عباس منذ أمر باقالة الوزارة الفهميه ، وهى الوزارة التي كانت تدین بالولاء التام للاحتلال البريطانى .

وقد جاء في بعض هذا المقال الخطير نداء للنديم من قوله :
« فيا بنى مصر : ليعد المسلم منكم إلى أخيه المسلم تأليفاً للعصية الدينية . وليرجع الاثنان معا الى القبطى والإسرائيلى تأييدا للجامعة الوطنية . وليكن المجموع رجلا واحدا يسعى خلف شيء واحد ، هو حفظ مصر للمصريين ، وفي عام ١٩٠٠ ظهرت في الميدان - جريدة (اللواء) ، وكانت قضية الجلاء ، ومكافحة الانجليز تشغل جزءا كبيرا منها . وطغى هذا الجزء على بقية الأجزاء الأخرى . وذلك منذ انتصر مصطفى كامل على الانجليز انتصاره المعروف عقب حادثة دنشواى . وكان ذلك في السنة السابعة من حياة هذه الجريدة الوطنية الكبرى .

ومن المقالات المشهورة في هذا المعنى مقال بعنوان (ماذا تريد الأمة)

(١) ادب المقالة الصحفية في مصر ج ٤ ص ١٢٤ .

(٢) نفس المصدر ج ٢ ص ١٨٧ - ٢٥٠

وآخر بعنوان (لينصروا الاحتلال ويؤيدوه) . وثالث بعنوان (اللورد كرومر والحركة الوطنية المصرية) . ورابع بعنوان (ذكرى دنشواي) .
وقد استمر هذا العنوان الأخير إحدى عشر مرة .
ذلك كله عدا المقالات التي نشرها مصطفى كامل في جريدة الأهرام ، أعنى قبل ظهور اللواء بمدة . ومن أشهرها مقال له بعنوان (صواعق الاحتلال) ، وآخر بعنوان (من أين يأتي الخطر) وهكذا .

* * *

الجامعة الإسلامية

وقد سبق لنا أن أشرنا إلى هذه المسألة في المحاضرة التي تحدثنا فيها عن بيئة الأدب والصحافة . وإلى هذه الجامعة كان يصبو السيد جمال الدين الأفغاني . وعنه يقول جورجى زيدان في كتابه « أشهر مشاهير الشرق » :
« إن الغرض الذي كان يصبو نحوه أعماله . والمحور الذي كانت تدور عليه آماله هو توحيد الإسلام ، وجمع شتات المسلمين في صورة جامعة إسلامية في ظل الخلافة العظمى ، (١) »

أجل - كانت الجامعة الإسلامية حلما لزيدان من أحلام المسلمين ، وأملا من الآمال التي اشتاقت نفوسهم إلى تحقيقها يومئذ .

ولكن بعض المفكرين الأوروبيين نظروا على أنها نذير بحرب صليبية . وغلا بعض هؤلاء في عصبيتهم الدينية أو السياسية ولم يجدوا حلا لهذه القضية إلا القضاء على المسلمين في جميع أنحاء العالم ، وإبادتهم من هذه الحياة ، ونش قبر الرسول صلوات الله عليه وسلم بالمدينة ، ونقل رفاته إلى متحف اللوفر بفرنسا . (٢)

وشامت الأقدار أن تكون (أرض البلقان) مسرحا للصراع العنيف بين الدولة العلية والدول المسيحية ، وأن تتغذى من ذلك فكرة الجامعة

(١) جورجى زيدان . أشهر مشاهير الشرق ج ٢ ص ٦١

(٢) تاريخ الاستاذ الامام ج ١ ص ٨٠١

الاسلامية . وعن ذلك عبرت (مجلة العروة الوثقى) التي تولى تحريرها الشيخ محمد عبده وهو في باريس ، وإلى جانبه قطب الوحي من هذه الحركة كلها منذ ظهورها . ونعني به السيد جمال الدين الأفغانى . (١)

ثم يأتى النديم فيتابع الدفاع عن الدولة العلية ، ويقول فى مجلة (الاستاذ) وذلك فى المقال الذى أشرنا إليه من قبل بعنوان « لو كنتم مثلنا لفعلمتم فعلمنا » ، « لو كانت الدولة العثمانية مسيحية الدين لبقيت بقاء الدهر بين تلك الدول الكبيرة والصغيرة التى هى جزء منها فى الحقيقة .

« ولكن المغامرة وسعى أوروبا فى تلاشى الدين الإسلامى أوجب هذا التحامل الذى أخرج كثيرا من ممالك الدولة بالاستقلال أو بالابتلاع . وأننا نرى كثيرا من المغفلين الذين حنككتهم قوايلهم باسم أوروبا يذمون الدولة العلية ، ويرمونها بالعجز وعدم التبصر وسوء الإدارة وقسوة الأحكام . ولو أنصفوها لقالوا إنها أعظم الدول ثباتا ، وأحسنها تبصرا ، وأفواها عزيمة . فانها فى نقطة ينصب إليها تيار أوروبا العدوانى ، لأنها دولة واحدة إسلامية بين ثمانى عشرة دولة مسيحية ، عدا دول أمريكا ، الخ

أما صحيفة (المؤيد) فقد سبق أن اشرنا إلى رأيها فى الجامعة الإسلامية . وهو الرأى الذى انفتت فيه مع الصحافة الفرنسية .

وقد كانت هذه الصحافة ترى أن الجامعة الإسلامية لا وجود لها إلا فى أذهان المسلمين وقلوبهم فقط ، وأن المسلمين لا يجدون السبيل إلى إخراجها إلى حيز العمل ، وأن المهنى الحقيقى للجامعة الإسلامية إنما هو رغبة المسلمين فى النهوض الخ .

وأما (اللواء) فقد عنيت بفضل مصطفى كامل عناية كبرى بالمسألة الشرقية . ومن قبل كتب الزعيم الشاب كتابا صغيرا فى تاريخ هذه المسألة ذاتها . وجاء فى الكتاب قوله :

« والحقيقة أن بقاء الدولة العلية ضرورى للنوع البشرى ، فان فى بقائها

(١) راجع فى ذلك مقالا مشهورا بالعروة الوثقى بعنوان (الهندسة والديانة الإسلامية)

سلامة أمم الغرب وأمم الشرق ... ولقد أحس الكثيرون في أوروبا من رجال السياسة ، ومن رجال الأقلام أن بقاء الدولة العلية أمر لازم للتوازن التام، وأن زوالها — لا قدر الله — يكون مجلبة للأخطار أ كبر الأخطار،^(١) ومن هما كانت عناية مصطفى كامل بمسائل الإسلام في (اللواء) غالبية على غيرها من المسائل الأخرى كلها ، وذلك منذ السنة الأولى من إنشائها أعنى سنة ١٩٠٠ إلى السنة السابعة من حياتها ، وهى السنة التى شهدت حادثة دنشواى ، وكانت هذه الحادثة الأخرى نقطة التحول أيضا فى هذه الصحيفة من الناحية الإسلامية الخالصة إلى الناحية الوطنية الخالصة أيضا .

وللقارىء أن يعود إلى مقالات :

(اتحاد كلمة المسلمين) ، (أوروبا والإسلام) ، (العلم والإسلام) ،
(مستقبل الإسلام) وغيرها .^(٢)

وأخيراً كان من الأفكار السياسية التى شغلت حيزاً كبيراً فى الصحف المصرية فكرة :

* * *

الجامعة القومية :

وهنا ينبغى للباحث أولاً أن يفرق بين الشعور بالمصرية ، والشعور بالقومية ، أما الشعور بالمصرية ؛ فهو نتيجة للتدخل الأجنبى - أوروبا كان هذا التدخل أم تركيا - وقد غدى هذا الشعور فى نفوس المصريين عوامل عدة أشرنا إليها فى مواضع كثيرة من هذه المحاضرات .

وجاء الكتاب والصحفيون فزادوا هذا الشعور نفسه قوة على قوة . وسمعنا كلمة « مصر للمصريين » تدور على ألسنة الصحفيين السوريين مثل أديب اسحق وسليم النقاش ، ثم تدور على ألسنة الصحفيين المصريين مثل النديم . وجرى السيد على يوسف ومصطفى كامل على هذه النغمة أيضا .

(١) مصطفى كامل المسألة الشرقية ص ١٦

(٢) نفس المصدر المتقدم ج ٥ ص ١٤١ — ١٥٢

وانظر الى صاحب (المؤيد) كيف يعبر عن الشعور بالمصرية ، ويضرب الامثال بالامم الاجنبية التي يشعر بعضها بالشعور العربي ، وبعضها بالشعور الانجليزي ، وبعضها بالشعور الفرنسي وهكذا :

« من كان يظن أن عرب البوادي تقوم منها أمة يتحرك فيها سبعون ألف فارس لامرأة صاحت : وامعتصماه ؟ أو أن الانكليز يصيحون شعبا يقوم منه اثنا عشر ألف مقاتل للأخذ بثأر رجل منهم قتله بعض المتوحشين ؟ ويقوم منهم رجال يجعلون لفظة (بريطانيا) لا تذكر الا وعلى أثرها (العظمى) ؟ وتحرق فئة منهم ثلاثين ألف مجلد من كتاب فرساوى ذكر فيه غلادسون بغير ما يليق به من التعظيم ؟ بل من كان يظن أن لئامه الفرنسية التي كانت بيوت أهلها مبنية من قبل على هيئة الحصون والقلاع - لما كان متسلطا عليهم من الفشل والانحلال - تدرج منها أمة تطير أفنديتها عند ذكر الالزاس واللورين (وهما مديرتان أخذتهما منها الألمان في الحرب الاخيرة) ويأى الواحد من أفرادها أن يدخل خاناء ألمانيا ، أو يشتري بضاعة من ألماني ، متى أمكنه أن يشتريها من فرنساوى ؟

« ولقد قال بعض الحكماء : إنك إذا رأيت الفلام في المكتب يسمع سب أبيه ، ولا يتميز غيظاً ، فبشر الأمة التي سيكون عنصرها منها بالانحلال والدمار .

« واقد رأينا مصداق ذلك في بلادنا هذه فقد نقلت اليها بعض التواريخ أنه كان يسب المصري بلفظة (فلاح) فيقال (يقطع الفلاح ونهاره) . وإذا ذلك كانت مصر على ما لا تخفى من الانحلال والبوارج ، (١)

وهذه المقالات وأمثالها إنما تعبر عن الشعور بالمصرية ، وهو شعور نما في المصريين منذ انتقل اليهم معنى من معاني الوطنية ، وذلك على يد رفاعه الطهطاوى الذى كان من رواد النهضة في هذه الفكرة . ثم تبعه آخرون في ذلك ، حتى كان العهد بأديب اسحق فنقل إلى المصريين شيئاً من بذور الثورة

الفرنسيه ، ونقل اليهم كذلك تفسيراً لكلمات الوطن والوطنية الخ . وكذلك فعل على مبارك في كثير من كتبه المعروفة ، ومنها (الخطط التوفيقية) ، أما (القومية المصرية) فيقصد بها الى تلك الحركة التي جاءت لمناهضة (الجامعة الاسلامية) بعد اذ تبين للمصريين أن عليهم أن يتركوا فرنسا وانجلترا والدولة العلية ، وأن يعتمدوا على أنفسهم فقط في الحصول على حقوقهم في الاستقلال ، وحقوقهم في الحرية .

و لقد صادفت هذه الفكرة هوى من نفوس الانجليز الذين كان يعينهم انفصال المصريين عن تركيا ، كما متاح لهم فرصة الافراد بالسيطرة التامة على مصر . وحمل ذلك بعضهم على الظن بأن فكرة الجامعة المصرية - كفكرة الغاء الامتيازات الاجنبية - هما معاً من وحي الانجليز لمصلحتهم الذاتية في مصر ، وهي المصلحة التي تحقق لهم جزء كبير منها بالاتفاق الودي سنة ١٩٠٤ ، (١)

واشتهر بهذه الدعوة الأخيرة - وهي الدعوة الى (الجامعة القومية) بدل (الجامعة الاسلامية) - أحمد لطفي السيد محرر (الجريدة) . فنادى بها وكان من أشهر مقالاته في هذا الباب : مقال له بعنوان « عليكم أنفسكم » : جاء فيه « أن من غير الصواب أن يعمل بعضنا لفناء شخصية المصري في شخصية العثماني . لأن هذا الرأي مع بعده عن الصواب لا يتفق مطلقاً مع مصلحة مصر ، ولا يتفق كذلك مع اعتبار مصر اقليماً ممتازاً مستقلاً... فني نصر ف عنايتنا كلها إلى بلدنا ؟ ومتى نقنع بأننا مصريون قبل كل شيء ؟ » (٢)

ومنها مقال بعنوان (غرض الامة هو الاستقلال) (٣) جاء فيه ،

« إن أول معنى للقومية المصرية هو تحديد الوطنية المصرية (نريد الوطن

(١) أدب المقالة الصحفية في مصر ج ٦ ص ١٥

(٢) الجريدة بتاريخ ٧ سبتمبر ١٩٠٩

(٣) الجريدة بتاريخ ٢ سبتمبر ١٩١٢ - وقرأ المقال في أدب المقالة الصحفية ج ٦ ص ٢١٨

١٢

مستقبل الأدب في ظل الصحافة

نحن نعرف أن الأدب الذي وجد قبل ظهور الصحافة كان أدباً قليلاً في جملته ، وارسقراطيا في صبغته . وكان هذا الادب يمتاز بصابعه الحماسي في الحالاتين . ونقصه بالطابع الحماسي هنا ذلك الطابع العاطفي الذي يهدف دائماً الى تمجيد البطولة ، أو عبادة البسالة - على حد تعبير الاستاذ احمد لطفي السيد في الجريدة .

فالادب الجاهلي عند العرب والادب الاموي ، وكثير من الادب العباسي عندهم ، والادب اليوناني القديم . والادب الروماني القديم - كلها آداب حماسية تمجد الابطال ، وتخلق منهم أنصاف آلهة . أما الادب الاوروني في العصور الوسطى فأدب (رومانسي) أو خيالي يدور حول موضوعات خيالية ، ويعبر عن عواطف مصنوعة ، ويتحدث أحياناً عن السحر ، ويبني على كثير من الوهم . وانما ذلك كله نديجة للحكم المطابق ، ولنظم الإقطاع ، ولسيطرة الاقوياء على الضعفاء ، ولتلق الناس للطبقة الحاكمة ، ورفعهم إياها إلى مستوى أعلى من مستوى البشر ، واعتمادهم في ذلك على اللغة المملوءة بالمبالغات والاستحالات ، يصوغون منها مدائح للحكام ، لا يقبلها العقل مطلقاً ولكن تقبلها العواطف الكاذبة والأذواق المريضة التي هيأها الأدباء لقبول الأساليب الحادة ، والتهويل في العبارة ، والغموض فيها أحياناً إلى حد السحر ، والجنوح بهذه العبارة صوب الرصانة والجزالة والضخامة والانطلاق والقوة ؛ وما شابه ذلك من الصفات التي تلائم الممدوح !

أما الأدب الحديث فقد استطاع أن يخلع عن نفسه رداء (الرومانسية) الخيالية ، وأن يتخذ لنفسه رداء (الواقعية).

وهذا أول الفروق الواضحة بين الأدبين . وإذا ذهبنا تبث عن الأسباب الرئيسية التي جعلت الأدب الحديث يعدل عن (الرومانسية)

ويصبو إلى الواقعية لم نجد لذلك الاسباب واحدا فقط ؛ هو ظهور الصحافة .
والصحافة مدرسة كبرى جذبت اليها الأدباء . فتدرب فيها هر لاء تدريباً
أكسبهم كثير آ من الخبرات الخاصة ، والتجارب النفسية والفكرية واللغوية
التي غيرت من وجه الأدب ، ورسمت للأدباء طريق الزعامة الادبية التي
يطمحون اليها في المجتمع . والصحافة في ذاتها تجربة أدبية لها خطرها
من هذا الناحية ، لأنها أول تطبيق عملي للتحويل من (الرومانسية) إلى
(الواقعية) . ثم جاء الادب نفسه بعد ذلك فشارك في هذه التجربة وكان
عليه إذذاك أن يضحي بالفن في سبيل الفكره ، ويهمل القيم الجمالية من أجل
القيم الاجتماعية أو التطبيقية الجديدة .

ذلك بالضبط ما فعله الكاتب الانجليزي (ديفو) وأغضب به رجال
الادب في زمانه ، وأثار سخطهم عليه ، حتى وجدنا كاتباً آخر هو (سوفت)
يشير دائماً الى ديفو بقوله : (هذا الكاتب الأحمى الذى أنسى اسمه دائماً) !
وفرق آخر من الفروق الواضحة بين الادب القديم والادب الحديث ؛
هو هذه النزعة (الديموقراطية) التي اتصف بها الأخير ، وحلت فيه محل النزعة
(الارستقراطية) التي كان يتصف بها الاول .

✓ فبعد أن كان موضوع الأدب هو الحديث عن الملوك والأمراء والسادة
أصبح موضوع الأدب هو التحدث عن هؤلاء ، وعن السوقه ، وعن اللصوص
والخادمت ، والساقطات ، والأشخاص المجهولين كل الجهل من المجتمع في
العادة . ومن هنا كان رأينا في (الجاحظ) دائماً أنه صحفي عصره بالمعنى المراد بهذه
الكلمة عند إطلاقها . . . ولست أدري لم لم ينجح هذا الاتجاه الصحفي في
الأدب العباسي ، ويصبح له تلاميذ ومريدين ؟

إن مرد ذلك عندي هو الصبغة العامة لذلك العصر ، وهي الصبغة
الارستقراطية لا الصبغة الشعبية .

والحق أنه ليس في نزوع الأدب الحديث نحو الديموقراطية وجه من
وجوه الغرابة ما دامت الشعوب الحديثة أصبحت موضع رعاية الحكومة

— أيا كان مذهبها السياسي — وما دامت شخصية الفرد في المجتمعات الحديثة قد نمت ، وجاءت الصحافة نتيجة لنماها في الحقيقة . ثم جاء الأدب فكان عليه أن يجارى الصحافة في عنايتها بالأفراد — أو بعبارة أخرى — بالطبقة الوسطى من طبقات المجتمع .

وهذا الذى يقال فى الأشخاص يقال مثله فى الأحداث . فبعد أن كان الأدب لا يعنى إلا بالأخبار الضخمة ، أصبحت له عناية بالأخبار الصغيرة التى لا ترقى إلى خبر زلزال ، أو بركان ، أو معركة فاصلة فى ميدان قتال ، ونحو ذلك . وكذلك اتسعت الصحف للأخبار جميعها ، لا فرق بين كبيرها وصغيرها . وكذلك تخلصت الصحافة أيضا من المبالغة فى إيراد الخبر أيا كان . وهذا الذى قيل فى الأشخاص والأحداث يقال مثله أيضا فى الأسلوب أو اللغة . فبعد أن كانت الأساليب القديمة تمتاز بالصنعة وبالزخرف ، وبالجلال ، وبالحكمة أصبحت تمتاز باللفظ وبالخفة ، وبالإيناس ، وبالرفقة وبتلك الصفات التى تجذب الجماهير إلى قراءتها .

على أن تطور الأساليب الحديثة لم يقف عند هذه الحدود بل تعداها إلى الموضوع . فأصبح الكتاب المحدثون يعالجون موضوعات جديدة ، كان ينظر القدماء إليها على أنها موضوعات تافهة وحقيقية . فهذا هو (ديفو) يكتب فى مثل هذه الموضوعات :

هل يبعث الزنوج يوم القيمة ؟

هل من حق الزوج أن يضرب زوجته ؟

هل يمكن أن تقوم صداقة بريئة بين الرجل والمرأة ؟

وذلك بعد أن كان القدماء يكتبون فى موضوعات الموت والحياة ، وموضوع الجبر والاختيار ، وموضوع الدين والإلحاد . وغيرها من الموضوعات الجادة القيمة .

وكذلك تذكرون تلك الموضوعات الصغيرة ، والعنوانات التى تبدو كأنها حقيرة ، وهى عناوين المقالات التى كتبها صحفي معروف ، هو (المازنى) وخاصة فى كتابه « صندوق الدنيا »

ومن هذا القبيل مقال كتبه الأستاذ أحمد أمين في مجلة الشقافه بعنوان « صندوق الـكتـا كيت » .

وإذن فكما حلت البساطة في الأخبار محل التهويل فيها ، فكذلك حلت البساطة في المقال محل الجدية والجزالة ، وأصبح كل موضوع في الحياة - مهما قل شأنه - صالحاً لأن يكون مادة صحفية ، متى صادف هذا الموضوع كاتباً ماهراً يحيله إلى مادة أدبية أو صحفية لها حظ من الجذب أو الطرافه .

وذلك كله أثر من آثار المقال الصحفي والخبر الصحفي في كتابة الأدب . أما التحقيق الصحفي - والمعروف أن ديفو هو أول من ابتكر هذا الفن من فنون الصحافة - فإنه يمتاز بالدقة ، والواقعية ، والإهتمام بالحقائق الملموسة والعناية بالشواهد المأخوذة من الحوادث الجارية ، وبالصياغة التي لا حظ لها من الجمال في أكثر الأحيان . وجميع هذه الخصال من شأنها أن تجو بالأساليب الكتابية ناحية واقعية موضوعية .

ويؤكد النقاد الانجليز أن فن التحقيق الصحفي هو السبب الأول في ظهور الروايات الواقعية التي كتبها أمثال : ديفو ، وديكنز ، وثرآكارى ، وإميل زولا ومن بينهم من كتب الرواية الواقعية في كل من انجلترا وفرنسا وروسيا .

وأما الحديث الصحفي - ويقال كذلك إن ديفو يرجع إليه فضل السبق في هذا الفن - فكثيرون من النقاد يرون فيه بذور الرواية التي تعنى باللموص والخدم ، والساقطين من الرجال ، والساقطات من النساء ، وهؤلاء الأشخاص الذين كان الادب القديم يأنف من التحدث عنهم أو التحدث إليهم .

تلك أهم الفروق الواضحة بين الادب القديم والادب الحديث . وهى فروق مرجعها إلى هذا الحدث الجديد في تاريخ الآداب في العالم ، وهو ظهور الصحافة .

وقد سبق لى أن حدثتكم عن السمات العامة التى سرت من الصحافة الى القصة المصرية أولاً ، والقصيدة الشعرية ثانياً ، والمقال الصحفي فى اتجاهاته الثلاثة : الاتجاه الثقافى ، والاتجاه الاجتماعى ، والاتجاه السياسى :

ففى (الشعر) رأينا كيف كانت القصيدة الشعرية - فضل الصحف - أشبه شئاً بالمقالة المقفاة . وكيف كانت الالفاظ الشعرية أدنى الى السهولة التى لا تعتمد الا فى النثر . وكيف كان شعر المناسبات عبارة عن مقالات يتطلبها هذا الطرف أو ذاك الخ .

وأكثر من هذا وذاك أن الشعر الحديث - مجازاة منه للصحافة - اتجه الى القصة الشعرية القصيرة - فضلاً عن المسرحية الكبيرة - حتى يمكن أن تجد هذه القصة الشعرية مكاناً لها فى الصحف والمجلات . ومن الشعراء المجيدين فى هذا الميدان شاعر كخليل مطران ، وذلك فى كثير من قصصه الشعرية المعروفة . ومنها (فتاة الجبل الأسود) و (مقتل بزرجمهر) و (الجنين الشهيد) وغيرها .

وفى (القصة) رأينا أن الاتجاه الأول الذى اتجهت اليه للقصص العربية كلها كان اتجاهها اجتماعياً صرفاً . وأوضحنا أسباب ذلك بتفصيل تام . ومثل ذلك حدث فى الادب الاوروبى ، وذلك منذ ظهر أمثال : ديكنز ، وثاكارى وويلز ، وغيرهم .

ولكن الامر لم يقف هناك عند هذا الحد . بل وجدنا القصة الاوروبية تتخذ أشكالاً اخرى . منها شكل القصة التى تكتب على هيئة رسائل يتبادلها بطلان من أبطالها أو شخصان من أشخاصها .

ولا ريب أن هذا الشكل من أشكال القصة فى الادب الاوروبى مأخوذ من نظام الرسائل التى يبعث بها القراء الى رئيس التحرير فى الجريدة حول فكرة من الافكار أو مسألة من المسائل .

على أن القصة القصيرة فى الادب الحديثة تعتبر كذلك أثراً من آثار الصحافة . ونحن نعلم أن الصحيفة تفضل غالباً أن تكون القصة من القصر بحيث تنشر كلها فى عدد واحد من أعدادها دفعة واحدة .

ومنذ التفت الأدباء المحدثون الى هذه الظاهرة الاخيرة أوجبوا على أنفسهم أن يكتبوا قصصهم على هذا النمط .

وفي ميدان القصة أيضا يلاحظ الباحث عناية الأديب القاص بخلق الجو الاجتماعي للقصّة دائماً . وهو أثر من آثار المقال الصحفي ، والتقرير الصحفي ، والتحقيق الصحفي ، على النحو الذي أشرنا اليه .

ومع هذا وذاك فقد عرفت القصة الطويلة طريقها كذلك إلى الصحف . ف نشرت فيها مسلسلة ، ولكن بأسلوب صحفي توفرت فيه جميع الشروط السابقة ، من حيوية دافقة ، الى رشاقة ظاهرة ، الى عناية بتصوير الشخصيات ، الى تحليل نفسي لهم ، ووصف للظروف المحيطة بهم الخ . ولقد اجمع النقاد كذلك على أن أهم تأثير للصحافة في الأدب هو خلق هذا الفن الجميل من فنونه ، وهو فن الرواية أو القصة بمعناها الحديث .

ولا غرابة في هذا ، فمنذ ظهرت الصحافة تهيأت العناصر والوسائل اللازمة لتكوين الرواية الواقعية الجديدة . ومن هذه الوسائل أو العناصر تصوير الشخصيات الاجتماعية ، كما ظهرت في صحف ستيل ، وأديسون ، وسويفت ، وفيلدنج ، وجولدسميث . ومنها - أي من هذه الوسائل - خلق الجو الاجتماعي اللازم لإنشاء القصص الواقعية ومنها العناية بالأفراد كأفراد ، وشرح نواحي الانحراف النفسي عند هؤلاء جميعا . ولو كانوا لصوصا أو جناتا ، أو كانوا خدما وسوقة وأخيراً - من هذه الوسائل الحوار الاجتماعي الفكه : ونحو ذلك .

وإذا كانت الصحافة هي التي خلقت فن الرواية الواقعية بأحداثها وأشخاصها وموضوعاتها وأجوائها فقد كانت ذات أثر كبير في قوالبها الفنية كذلك . وتأملوا معنى رواية كرواية (روبنس كروزو) تجدوا أنها كتبت بأسلوب المتكلم . وهي في ذلك أقرب شبيهاً بأسلوب الخبر الصحفي ، أو مراسل الجريدة ونحوهما .

وفي الرواية السابقة تنويه بمقدرة الفرد على مكافحة طبيعته . ووصف تشجيعه وحسن تصرفه في مواجهة كل موقف من مواقف الإنسان الذي

هو (ابن الطبعه) . ومن أجل ذلك رأينا (روسو) يدعو في كتابه (أميل) إلى دراسته هذه الرواية وهي عندنا شديدة بقصة (حى بن يقظان) المعروفة في الأدب المصرى . وفي ذلك ما فيه من العناية (بالفردية) التي ظهرت بوضوح تام في المجتمعات الحديثة .

(أما في المسرح) فقد وجدنا ظاهره خليقة بالتسجيل في الأدب الأوروبى ، وهي أن المسرحيات التي ظهرت تدور كلها حول (المذاهب السياسية) و (المذاهب الإجتماعية) و (العلاقة بين العلم والدين) و (الآراء الحديثة في علم النفس) ونحو ذلك .

والذى لا شك فيه أن هذا الإتجاه أثر من آثار المقال الصحفي الذى عاجل هذه الموضوعات الفكريه على اختلافها .

خذ لذلك مثلاً (برنارد شو) - ونحن نعرف من سيرته أنه كان صحفياً ، وناقداً اجتماعياً وفنياً ، وهو يعترف صراحة بأثر هذه الحقيقة في فنه وأسلوبه - قد علمته الصحافة كيف يكتب بالأسلوب الصحفي ، وعلمته الصحافة كيف تدور الواحدة من رواياته المسرحية غالباً حول مشكلة من المشكلات الإجتماعية أو النفسية .

فن هذه الروايات التي كتبها (شو) روايته المعروفة بأسم (كانديدا) Candida ، وروايته المشهورة بأسم (الاسلحة والانسان) ورواية (الانسان العادى والانسان العالى) Man and Snperman . في الأولى يتحدث عن حقوق المرأة ، وفي الثانية يهاجم الرومانسية ويدافع عن الواقعية . وفي الثالثة يعبر عن تفأوله وإيمانه بتقدم البشرية . وهذه كلها موضوعات اجتماعية ، بل هي مما يشغل بال الرأى العام في انجلترا الى اليوم . حتى ان الباحث ليحار حقاً في فن (برنارد شو) ، أهو صحافة أم أدب مسرحى ؟

وآية ذلك أنك ترى هذا الكاتب العبقري يتوخى دائماً ان يكتب لكل رواية مسرحية من رواياته مقدمة طويلة ، لا نستطيع ان نفرق بينها وبين المقال الصحفي بحال ما .

والعجب فوق ذلك أن (شو) في روايته « جزيرة جون بول الثانية » يتحدث عن حادثة دنشواى بوجه أخص ، ويأتى في حديثه بأسماء الفلاحين المظلومين الذين اعتدت عليهم (المحكمة المخصوصة) فى ذلك الحين . ويصف وقائع دنشواى وصفاً مؤيداً بالأحصاءات والأقوال ، ويتم له بذلك خلق الجو- الاجتماعى اللازم لفهم الحادثة (١) .

ولا ننس أن (شو) يمتاز بالنزعة العقلية فى الكتابة ، وبالحرية ، وبالدكاء وسرعة الخاطر وحضور البديهة ، وبالميل الظاهر الى التهمك والذع والسخرية الخ . وتلك كلها صفات الأسلوب الصحفى الذى يحمل فى طياته عناصر القوة والحيوية والشهرة والذيع ، والاستهواء لأكبر عدد ممكن من القراء فى العالم . وهذا الذى قيل فى مسرحيات (شو) وتأثرها بالاج- واء التى خلقتها الصحافة هو بعينه ما يمكن ان يقال بالقياس الى استاذة (إيسن) النرويجى الذى كان هو الآخر صاحب صحيفة أصدرها بنفسه ، فضلاً عن اشتراكه فى كثير من الصحف الأخرى . ومن ثم اقرب (إيسن) فى أسلوبه كثير من أسلوب الصحافة ، وظهر عليه كثير من خصائصها . وقد عالج (إيسن) فى مسرحياته بعض المشاكل الاجتماعية ، كمشكلة المرأة ، ومشكلة الفرد فى المجتمع ، ومشكلة العامه بين المثال والواقع الخ

وهكذا لم يعد الأدب الحديث أدبا يراد به التسلية وحدها بل غدا أدبا حيا لصيقا بالمجتمع ، تهتم بالواقع ، ويزيد الأفراد علما بنفوسهم ، وطبائعهم وحياتهم ، وحكوماتهم ، ويزيدهم علماً بالنظريات والآراء التى تصدر عنها هذه الحكومات فى قيادة الجماهير . ومن ذا الذى يمارى فى أن هذه الأفكار كلها ثمرة من ثمرات الصحافة ؟ .

معنى ذلك أن الصحافة كانت ولا تزال نعمة على الأدب وعلى الفكر معا

* * *

ولكن هل صحيح أن الصحافة نعمة على الأدب أو على الفكر ؟

(١) لفت نظرى الى هذه الرواية الهامة من روايات شو صديق الاستاذ ابراهيم امام المدرس بكلية الآداب جامعة القاهرة . فله الشكر .

كلا - فان الناظر الى الادب والفكر في أمة من الامم يرى الغبن الذي وقع عليهما بسبب الصحافة . وقد أشرنا الى هذا الغبن من ناحية الأدب ، وقلنا ان الصحافة افقدته كثيراً من القيم الجمالية التي كان يفخر بها في العصور المتقدمة . شأن الادب في ذلك بالضبط شأن الصناعة التي كانت تدار بالأيدي في الازمنة الاولى ، فاصبحت تدار بالآلات في الازمنة الاخيره . كان الصانع القديم يقضى في إخراج القطعة الواحدة من نتاجه أوقانا طويله يبذل في أثائها كل ماوهبته الطبيعة من فن ومهارة . فاذا تم له ذلك واستوت القطعة الفنية امامه نظر اليها وتأمل فيها ، وأحدثت له هذه النظرة وهذا التأمل لذة نفسية كبيرة ؛ هي كل ما تلقاه من أجر على ما بذل من جهد ، وأضاع من وقت .

أما الآن فان المصانع التي تدار بالآلات البخارية والكهربائية تخرج مئات آلاف القطع في أقل من دقيقة ، وتجعل من الصانع أو العامل آلة صماء ، أو زرا من أضرار الكهرباء ، لا يحس لذة من اللذائذ القديمة عدا لذة السكسب والحصول على لقمة الخبز .

ذلك كله في الأدب البحث . وأما الفكر فقد خسر هو الآخر خسارة هي في نظري اكبر من خسارة الادب .

ولقد نظرت وتأملت في جميع النهضة الفكرية والمذهبية التي قامت في بلاد الغرب فوجدت الكثير منها كان نتيجة لازمة لدراسات عميقة ، وجهود كبيرة من جانب الكتاب والمفكرين ، لا اصحاب الصحف خاصة .

إن (الكتاب) - لا (الجريدة) - هو الذي يستطيع أن يؤثر في عقول الشيوخ وعقول الشبيبة . وفي مدى جيل واحد أو جيلين على اكثر تقدير تظهر نتيجة هذا الاثر الذي أحدثه الكتاب . وهذا هو الفرق بينه وبين الجريدة . للأخيرة التأثير القوى السريع ، وللاول التأثير النافع البطيء . الاخيرة أداة الحكومات والجماهير . والاولى أداة الفلاسفة والمفكرين . وعلى هؤلاء في الواقع يقع العبء الاكبر في بناء الامة ، أو في تحويلها من طور الى طور ، والانتقال بها من حال الى حال ، والارتفاع بها الى المنزلة التي ينبغي أن تكون لها بين الامم الاخرى .

فأين الكتاب الذى كتبه مصرى أو شرقى فى فلسفه الحكم ؟ واين الكتاب الذى كتبه مصرى أو شرقى فى فلسفه الدين ؟ ان صح هذا التعبير ؟ واين الكتاب الذى كتبه مصرى أو شرقى فى مشكلة الحضارة الاوربيه الحديثه ، بعد أن عشنا معها كل هذا العمر الطويل ؟

وانتم ترون الحياة المصرية أو الشرقية مملوءة بالمشكلات الاجتماعية والدينية والفكرية، وترون المصرى أو الشرقى صريعا لشتى الرواسب النفسية، وانتم حين تطوون السنين القهقرى أمامكم لاتجدون واحدا من الكتاب أو المفكرين شغل نفسه جديا بمشكلة من تلك المشكلات ، وتوفر جديا على بحثها . لا اكاد أستثنى من هؤلاء غير أشخاص يعدون على أصابع اليد الواحده . منهم جمال الدين الافغانى، ومحمد عبده ، وعبدالرحمن الكواكبى ، وقاسم أمين . وأكثر هؤلاء إنما أتاحت لهم الصحف أن يكتبوا كتبهم على شكل فصول نشرت تباعا ، ثم جمعت بعد ذلك على شكل كتب ، وقرأها الناس جيلا بعد جيل وتأثروا بها . وهذا ما لا تسمح به الصحف فى وقتنا الحاضر .

وانتم تعلمون أن الثورات المجيدة فى التاريخ إنما خرجت من دائرة الادب الاصيل ، وميدان الفكر الانسانى العميق .

فالثورة الفرنسية نفسها اثر من كتابات روسو وفولتير ومنتسكيو .

ونزعة السلام والديمقراطية خرجت من أدب تولوستوى .

ودولة الباكستان لم تكن سوى حلم للشاعر إقبال .

وبراك بشخصياته الفنية المتكررة كان يسبق الحياة الاوربيه فى القرن

التاسع عشر .

وهيجل — بدون شك — كان وراء الفاشية والنازية .

وراء تحرير العبيد فى أمريكا قصة (كوخ العم توم) .

وروايات بول سارتر الأديب تلهب خيال الوجوديين ، وتجعلهم يسبغون فى الشوارع بشعورهم الطويلة ، ولحائهم المرسله ، وملابسهم المزركشة ، ومظهرهم الغريب !

ان كل حركة من حركات الغرب إنما هي ثمرة جهود عنيفة بذلها أهله في سبيل الوصول اليها . وحين وصلوا اليها كان من السهل عليهم أن يهضموها ويتمثلوها جيذا ، ويدخلوها في كياناتهم الاجتماعي . فاذا انتقلت اليها هذه الحركات بسرعة البرق بدون أن يكون لها من تاريخنا الثقافي أو الاجتماعي رصيد ما ، أو بدون أن تسبقها عندنا جهود تمهد لها تمهيدا ما — لم نجن من ورائها الا الحيرة والإرتباك !

ولعل قادتنا ومفكرينا أن يدركوا هذه الحقيقة ، ولعلمهم يبذلون من ذوات نفوسهم جهودا عنيفة ، ويتحررون أولا من اغراء صاحبة الجلالة الصحافة !

A — لقد كان تأثر الأدب المصرى بالصحافة سببا في بعد الأدب المصرى عن صفة العمق، كما ابتعد من قبل عن صفة الفن . ولينظر الباحث هنا فيما عمدت اليه بعض الصحف والمجلات في أيامنا هذه . فقد رأى أصحابها أن العلم أصبح متمصورا على طائفة معينة . هي تلك الطائفة التي تقوم بتدريسه في داخل المدارس والجامعة . أما سواد الشعب فأنهم لا ينالون من العلم الا قشورا بسيطة . هي كل ما نستطيع الصحفيه أن تجود به عليهم في شكل مقالات علمية أو أدبية . وهنا فسر هؤلاء الصحفيون في طريقة عملية لتبسيط العلم . فأخرجت كل صحيفه مشهوره سلسلة من الكتب في الادب والاجتماع والتاريخ وعلم النفس والفلسفه والصحة والطب ونحو ذلك . ومن الأمثلة عليها في وقتنا هذا :

سلسلة (اقرأ) وتخرجها مجلة الهلال كل شهر . وسلسلة (كتاب اليوم) وتخرجها جريدة أخبار اليوم كل شهر . وسلسلة (كتاب الشهر) وسلسلة « كتابي ، الخ .

أجل — لقد طال خضوع الأدب للصحافة . ومن الخير أن يسترد هذا الادب بعض حريته واستقلاله عن الصحافة ، وان يكون ذلك إلا اذا أصبح الأدباء والعلماء من القوة بحيث لا يأخذهم بريق الصحف ، فيتهافتون عليها رغبة في الحصول على الشهرة لا أكثر ولا أقل !

ويوم يستطيع (الكتاب) أن يزاحم (الجريدة) على هذا النحو تقول إن الأدب في طريقه إلى الحصول على استقلاله الصحيح عن الصحافة . وعلى هذا فمستقبل الأدب الحديث في يده هو . إن أراد الأدباء لأنفسهم الشهرة وحدها ، فعليهم أن يتعلقوا بالصحف . وإن أرادوا الأدباء والعلماء لأنفسهم التأثير البعيد المدى في الأجيال المقبلة كلها ، وأرادوا المشاركة الحقيقية في بناء الأمم التي أنجبته ورفعتهم إلى هذه المنزلة ، فعليهم أن يفرغوا بعض الشيء للعلم والأدب ، ويستغلوا مواهبهم استغلالاً صحيحاً من هذه الناحية .

إن الناس بحاجة في هذه الأزمنة الحاضرة إلى الأدب العاطفي ، أو الأدب (الرومانسي) الذي يكون برداً وسلاماً على أقدارهم ، وغذاءً صحيحاً لعواطفهم وأحاسيسهم ، وعوناً لهم على احتمال مكاره الحياة ، وراحة لهم من عنائهم الذي لا ينقطع !

وقد أحس أديب كبير وصحفي مشهور في أيامنا هذه - وهو هنا الدكتور طه حسين - بالخطر الذي يهدد الأدب . فنشر في صحيفة الجمهورية (بتاريخ ٥ فبراير سنة ١٩٥٤) مقالا جاء فيه :

« ولا بد للأديب من أن يروض نفسه ، ويسوسها حتى تألف الجهد والعناء والمشقة ، وترى أنها أيسر ما يجب لإنتاج الأدب الرفيع الذي يستحق أن يسمى أدباً ... ولا على الأديب أن يغضب أصحاب المطبعة إن أبطأ به الإنتاج عما ضربوا له من موعد . فذلك كله خير له من أن يتعجل ، فيرضى الصحيفة والمطبعة ، ويسخط الفن ويفسد الأدب ، وقد يفسد معه ذوق كثير من القراء . وهنا تنسکر الصحف وتثور : فهي لا تستطيع أن تنتظر الأديب حتى يتقن إنتاجه ، ويصبح نشره شيئاً لا حرج فيه .

« فمن أراد أن يكتب لها على شرطها فليفعل . ومن أبى إلا أن يكتب على شرط الأدب فليلتزم لنفسه مذهباً آخر من مذاهب النشر ، آه .

واكثر من هذا وذاك أن من المفكرين والنقاد من حذروا الشباب

أخطار الصحافة من الناحية الخلقية الخالصه . وصرح بعضهم ، بأن قراءة المجلات الاستعراضية لمجرد التسلية - لا للعلم ، أو تغذية العقل وتنمية الوجدان - كان لها اكبر الأثر في انحطاط الأخلاق في امريكا

* * *

(والخلاصة) إن المستقبل الحقيقي للأدب هو في العودة الى الحالة الأولى قبل نشوء الصحافة - اعنى حالة الخريه والانطلاق ، أو الحالة التي وصفها بعضهم بقوله « الفن للفن » .

ولقد بذر البذور الأولى للعودة إلى الطبيعة في الأدب الأوروبي روسو في فرنسا ، وجوته في ألمانيا ، وبلدك في انجلترا ، ولقد كانت الحركة الرومانسية في ذاتها تحطيماً لأغلال العقل ، وانطلاقاً مع دواعي الروح ، والنفس ، والعاطفة ، والقلب .

* * *

لا تنسوا أبداً أيها الشباب أن الأدب الحقيقي هو الذي تقرأونه في مثل الشعرا الجاهلي ، والغزل الأموي ، وكلمة ودمنة لابن المقفع ، ورسالة الغفران للمعري ، وحى بن يقطان لابن الطفيل ، وقصائد دانتى ، ومسرحيات شكسبير ، والفردوس المفقود للمتلون ، وثورة الإسلام لشيلي . ففي هذا الأدب نشعر دائماً بالانطلاق من مشاغل النفس ، ومطالب البدن ، وهموم الحياة . والانسان في حاجة دائماً إلى ما يصرفه عن نفسه وشواغله . وتلك هى الوظيفة الأولى للأدب ، والواجب الأول على الأدباء . وهذا هو معنى قولنا إن مستقبل الأدب هو في العودة به إلى الحالة الأولى . ولست أريد بالحالة الأولى هنا العودة بالأدب إلى نزعتة القبلية الاسـة -تقراطية التي أشرت اليها في أول هذا الحديث ، فقد قلت عنها إنها أفسدت الادب من كل ناحية .

ولا تنسوا أبداً أيها الشباب أن الكتاب - لا الجريدة هو الأقدر على

تهيئة الامم للتقدم الذى تنشده ، وإعداد الأجيال المستقبلية للنهوض بها الى المستوى الذى تتطلبه .

فاذا أرادت الامم بأبنائها خيراً فلتفتح الفرصة كاملة للادباء المفكرين من ناحية ، والعلماء المخترعين من ناحية ثانية . أوائك يقدمون لها أدباً خصباً قريباً حياً يغذى فيها الشعور ، وينمى فيها العواطف ويكون فيه النعيم المقيم للعقول المجردة ، والنفوس الحائرة ، والقلوب المعذبة . وهؤلاء — أى العلماء — يقدمون لها المخترعات الحديثة التى تشارك بها الامم فى ركب الحضارة . وهذا وذاك لا يكون دائماً عن طريق السكتب .. وتلك هى الوظيفة الثانية من وظائف الادب . ونعنى بها تقديم الافكار التقدمية للمجتمع .

إن النزول إلى مستوى القراء معناه دائماً تدهور الذوق أولاً ، وإرضاء الجماهير على حساب الفن ثانياً ، والفكر ثالثاً ، والمجتمع فى نهاية الامر ؟

عبد اللطيف حمزه

الفهرس



ص	مق	دومة
٣	١	بين الأدب والصحافة
١٢	٢	لغة الأدب ولغة الصحافة
٢١	٣	بيئة الأدب والصحافة
٢٦	٤	القصة المصرية في ظل الصحافة
٤٥	٥	طلائع القصص المصري الحديث وصلته بالصحافة
٦٧	٦	القصيدة الشعرية والصحافة المصرية
٨٢	٧	شعر الحركة الوطنية وصلته بالصحافة
١٠١	٨	الصحافة المصرية وتطور فن المقال
١١٤	٩	المقاله في الاتجاه الثقافي
١٢٣	١٠	المقاله في الاتجاه الاجتماعي
١٣٩	١١	المقاله في الاتجاه السياسي
١٥٣	١٢	مستقبل الادب في ظل الصحافة

تربة الامم بتقديم الذي تهبه ، وإعداد الأجيال المستقبلية التي هي بها
 الى المستوى الذي تتطلبه .

رسالة

فإذا أرادت الامم بأجنادها خيراً فليفتح الفرصة كاملة للأبداء الفكريين من
 ناحية ، والعلماء المخترعين من ناحية ثانية . أولئك يقدمون ما أدباً خصباً
 قيماً حياً يغذى فيها الشعور ، ويشق فيها العواطف ويكون فيه العلم القيم
 المعقول المحمّد ، والفكر الحارّ ، والقلب المعذبة . وهذا هو أي
 العلماء . يقدمون لنا المخترعات التي لا يمكن أن يتفكر بها العقل
 الحاضرة . وهذا وذلك لا يكون طبعاً من طبع في المكان . وذلك في
 الوظيفة الشابة من وظائف الادب . ونحن بهذا نقدم الأفكار الجديدة
 للفتنة .

٢٦٦ إن الزوال الى مستوى الفاعل ٧

شارع الترجان (بالعبية)

تليفون : ٧٩٢٩٢ - مصر

٧٢ ٧

٢٨ ٧

١٠١ ٨

٣١٢ ٨

٦٦١ ١٠

٤٦١ ١١

٦٥١ ٦١



ΣΑ.ΡΓΟ
ΑΔΕΣΗ

892 709-H23sA.c.1

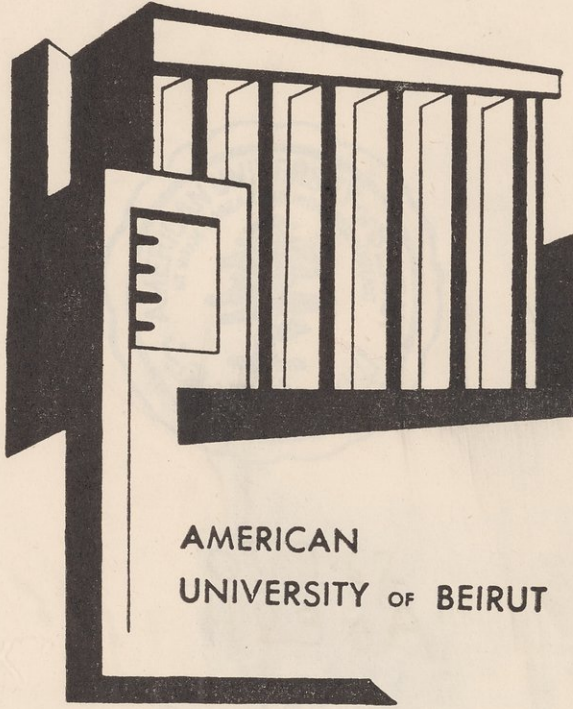
معهد الدراسات العربية العالية

الصحافة والأدب في مصر

AMERICAN UNIVERSITY OF BEIRUT LIBRARIES



01033418



AMERICAN
UNIVERSITY OF BEIRUT

892.709
Ha531sA
c.1